خطط الغيطانى

جمال الغيطانى

مكتبة مدبولى

جمال الغيطاني

خطط الغيطاني

« مكتبة مدبولي »
٦ ميدان طلعت حرب

الطبعة الأولى ١٩٨٠
،، الثانية ١٩٩١م

الجزء الأول

الشوارع، والأسوار

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه ثقتي

السور الأول ويضم بـــــاب
الأبواب، وفي البدايـــــــة
مدخـــــل بـــــه منمنـــات
ويبـــدو للناظر المتعجـــل
انـــه لا علاقـــة لـــه بمـــا
ســيلي ذلـــك

.. أعوذ بالله من عمل يقرب من سخطه، وأسأله التوفيق لما يدنى رضاه ومحبته، أحمده وهو الأول قبل كل أول، والآخر بعد كل آخر، الدائم بلا زوال، والباق بعد كل فان، لا تدركه الابصار، وهو يدرك الأبصار، لا تغيره الأحوال ولا يدخله الملال، ولا تنقص سلطانه الأيام والليالي، أما خافه

فتفنى أعمارهم كلما مرت الدقائق والثواني، هو الذي أوجد هذه الخطط، وما فيها، واليه تعود، وفيه تتلاشى، بعد حين ومقدار لا يدري أمده الا هو، سبحانه، الجأ اليه وزمان الخطط الحلو يولي، وذبول يدرك الزمن العفي، اخضرار الخطط تسري اليه صفرة، وأجنة أيام الجهامة تولد بلا راد أو مانع، في أفق الخطط تلوح علامات النوازل، وتضاعف الشرور، وفساد الأسباب، أقول والأنات تفيض من الأيام والليالي، إعلم ان الله خير حافظ، جعل الخطط متوسطة الدنيا، فسلمت من الحر الشديد والبرد القارس، طاب هواؤها وضعف قيظها، ورق بردها، سلم أهلها من مشات الجبال ومصائف عمان وصواعق برمودا، وجرب اليمن، وطواعين الهند، وعقارب أفريقيا وكوليرا بنجلاديش وغيلان الأمازون، قيل في الزمن الآفل أن أهل الدنيا مضطرون الى الخطط، يسافرون اليها ويطلبون الرزق بها، أما أهلها فلا يطلبون الرزق في غيرها، أقول وشجني يفوق كل الشجون، أن الأحوال ستمضي بعكس ذلك، لكنني لماذا أسبق المسافات، لماذا أتجاوز الشوارع والحارات والضواحي والأحياء والخلاوي والأطراف؟. سبحانك ربي. تخرج الميت من الحي، والحي من الميت، كل شيء ماض الى غاية، عدا الأماني فماضية الى فناء، تحققت وان لم تتحقق، سبحانك يا من تمسك

بالسر، وتخفي الجوهر، وتضفي على العلن لون الحلم. كانت الخطط مجلوة، زاهية، حتى أن أهالي الحي السابع أقاموا سبعين سنة لا يمشون فيه نهارا الا بخرق سوداء، خوفا على أبصارهم من شدة بياض مبانيه. وفي أقل من ميل في ميل رأى البعض يوما ميدان رهان، وجنات نخل، ومنازل سكنى، وذروة جبل، وحادي ابل، وملاح سفينة، أيصدق ذلك قلبي، أو أن المؤرخين والرحالة يكذبون، تبدل الحال، ومن الشوارع والحواري والأسوار يلوح كذب كأنه صدق، وصدق كأنه كذب، الأبيض أسود. شباب كأنهم شيوخ، قلة ميسورة، وكثرة مغمورة، ربي استعيذ بك من الشيطان، ربي ألهمني صبرا جميلا، عندما خاض العثمانلية في خير الخطط، انشد مؤرخ رقيق الفؤاد..

نوحوا على الخطط لأمر قد جرى

عمت مصيبته كل الورى.

لننأى عن الظاهر، ولنتدلى على مهل في أغوار الباطن، لنذكر بما جرى من طيران الحديد، وسماع اللامسموع، ورؤية اللامرئي، وانتشار الربا، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وتفشي العملات الربوية، وكثرة الوجوه الأجنبية. وغلب معاني الأخبار، ربي، ألق السكينة في روحي، قوي صبري وثبت ايماني، في مواجهة الرزايا، الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير...

باب صغير، قرب نهاية السور الأول لا بد من ولوجه..

.. هنا تتعدد التساؤلات، متى يمكن تحديد البداية؟ أهي ظهور العجم؟ لكن من يستطيع تحديد ذلك بدقة؟ ومتى بدأ انتظارهم الطويل، وصبرهم على المشاق، وتحملهم للمكروه، ومن أطلق عليهم اسم العجم وهم من أبناء الخطط، من مواليدها، وأعمارهم من أيامها؟ ليس من السهل ان ننسب كل شيء الى العجم كما جرى ذلك عند مرحلة معينة.

تتردد استفسارات هامسة، أهو الاستاذ؟ لكن عمره محدود، كل الدلائل تشير اليه، وكثير من المطبوعات المتداولة سرا في الخطط تتناوله علنا، البعض يقول انه لم يأت بجديد، وانه جهر فقط بما تجاهله الآخرون، أو تغافلوا عنه.

أو انه المقدور، وعجائبه، وغرائبه..

لكن لا شيء يولد من عدم، لهذا سنأخذ بآراء الكثرة، والقائلة أن الاستاذ وداره الصحفية وضعوا أساس الحروف

ومن قبل عرف الخلق في الخطط صحفا عديدة، لكن انفردت جريدة الأنباء بوضع خاص، رغم تقلب الأحوال، وتعدد الظروف، أسسها في الأربعينيات رجل قيل انه كردي، وزعموا انه أرمني، ويؤكد الرواة الثقاة انه تركماني، على أية حال لا يذكره الآن انسان، لأنه رحل فجأة وغابت اخباره عن الخطط، ولا تنسب الأنباء الآن إلاّ الى الاستاذ ورجاله الأوائـــل، زايـــد التنوخي، والدكتور لطفي الطنبولي، والدمياطي، وورنق، تشغل الأنباء مبنى من طراز قديم يمت الى القرن الماضي، يقع عند بداية الشوارع، يتميز بنوافذ متسعة، ومدخل فسيح، يفرش الرصيف العريض المؤدي اليه مساحة مستطيلة من الحشائش زاهية الخضرة، يقال ان الاستاذ أحب في بداية عمره اللون الأخضر، وان أشد ما أضناه خلال سنوات الشدة افتقاده للون الأخضر، ان المبنى لا يبهر الناظرين، لكنه أهم مكان في الخطط، ما من زائر أجنبي مهم، أو صحفي بارز، أو كاتب مرموق، أو رجل دين، زار الخطط الا ومر بمبنى الأنباء، اما للقاء الأستاذ، أو الاستماع الى وجهات نظر، أو مناقشة أمر ما، المبنى من سبعة طوابق، في المدخل مكتب البلشي مسؤول الاستعلامات، في الطابق الأول المحررون الجدد، في الثاني يوجد الصحفيون القدامى، والكتاب غير الدائمين، لكن التنوخي خصص لنفسه

حجرة بالطابق الأول على مقربة من صالة التحرير الرئيسية في الثالث ادارات المطابع، والمستخدمين، والخزانة الخاصة بالمحررين والموظفين، أما العمال فيتسلمون رواتبهم ومنحهم وقروضهم من خزانة أخرى داخل المطابع. في الرابع تقع ادارة الاعلانات الخارجية، والداخلية، وتتردد اشاعات عن وجود غرف سرية في هذا الطابق لا يعرفها إلاّ الاستاذ نفسه، لكن.. لم يثبت صحة ذلك، أما الخامس فيضم الادارة الطبية التي استحدثها الاستاذ في أوائل الستينيات، ويضم السادس عدة صالات للاجتماعات الخاصة، وأغراض اخرى، أما الطابق السابع فخصص بأكمله للأستاذ، وبرغم تقلب الأحوال، ظل مقرا لمن يسير دفة الأمور، توجد مباني عديدة بلا حصر في الخطط ربما فاق بعضها مبنى الدار من ناحية الوظيفة، على سبيل المثال، المقر المركزي للعقل الالكتروني، وادارة أمن الخطط، ومصلحة تسجيل المواليد، لكن جميع هذه المباني أقل مكانة من مبنى الدار. يوجد مكتب للأنباء في كل قسم من الخطط، ومندوب في كل شارع، ومراسل بكل عمارة ضخمة تزيد عن عشرة طوابق، كذلك في النوادي، والنقابات، والتجمعات، والأقسام الفرعية لادارة الأمن، ومراكز اطفاء الحريق، ومراسلون متنقلون في سيارات جوالة تحسباً للحوادث المفاجأة، وعندما ذاعت

بأخبار الأطباق الطائرة أبدى الأستاذ همة عالية في الاهتمام بها، أمر بتوزيع فريق من المصورين بقيادة البيجرمي فوق الأماكن المرتفعة، ربما ظهر طبق في سماء الخطط، عندئذ قد يفوز أحدهم بلقطة تجود بها المصادفة، يقول البعض ان كل الذين التحقوا بالدار ذوي طباع متشابهة، حتى لو ثار أحدهم على الاستاذ وجهر بالخلاف، يقولون ان الاستاذ لم يصرح لمخلوق بما أخفاه، لم يضع خطوطا عريضة لما أضمره، انما مضى كل شيء كما أراد، وان الظروف ساعدته على ذلك، لكن تؤكد المطبوعات المتداولة خفية، ان الاستاذ سبب رئيسي وهام، ولولا ظهوره في الخطط لتغيرت أمور عديدة.

الشارع الأول

.. انه شارع قديم، كل ما فيه وقع بالفعل، لم تتبق به الا ذكريات تتأهب لمصاحبة الصدى، يمكن العودة اليه من وقت الى آخر لاستيضاح بعض ما غمض من أمور، أول من أقام فيه الدكتور الطنبولي، وعندما أعدت ملفات العاملين حمل ملفه رقم (١)، عندما جاء الى هذا الشارع لأول مرة كان يقارب الثلاثين، لم يرتد الطربوش في العهد الملكي الذي ساد الخطط أكثر من قرنين، وعد ذلك من محاسنه عندما جاء العهد الجمهوري، والحقيقة أن ملفاته في ادارة المستخدمين، وادارة أمن الخطط، ومصلحة الجوازات، ونقابة الصحفيين، ولجان الصحافة في سائر الأحزاب التي تعاقبت على حكم الخطط تخلو تماما من أي صورة له بالطربوش انه قصير، حاد الأنف، مستدير العينين، قليل الحديث، اذا تكلم في اجتماع بدأ كأنه يخبىء شخصا آخر داخله، لم يشاهد منفعلا أبدا، برغم ضآلة حجمه، ووهنه البادي إلا أنه يستطيع العمل لمدة أربع وعشرين ساعة، إنه أول من يظهر في هذا الشارع عند

بداية النهار لحظة اتخاذه الطريق الى الدار، اتخذ سكرتيرة في أواسط الخمسينيات بعد الحاج من الاستاذ، وكان لا بد من مرور شهور قبل اكتمال ثقته فيها، انها سيئة الحظ، لم تتزوج بعد عبورها الخامسة والعشرين نحفت، وظهرت تجاعيد على وجهها، شف جلدها، ونشف صدرها، غطى ساقيها شعر كثيف لهذا ارتدت الجوارب القطنية الطويلة، وعندما ظهرت موضة البنطلون تمسكت بها ولم تتخل عنها، شنع الجعيدي فقال انها تحلق ذقنها يوميا، وتشتري أمواساً من صيدلية صغيرة وتدعي ان ذلك لشقيقها، انها عصبية جدا، تجحظ عيناها أثناء زعيقها فتثير الخشية في نفوس أعتى الرجال، أكد الجعيدي انها رغبة مكبوتة لأنها لم تشم رائحة رجل، أحبها صبي جزار لكنها لم ترض به ولم تحن عليه، لأنها رغبت الزواج من شاب يحمل مؤهلاً عالياً، خريج كلية التجارة. شعبة المحاسبات، لكنها لم تنل غرضها في هذا الشارع أو الذي يليه، لا يثق الدكتور الطنبولي الآن الا بها، أعجبه عبوسها، ونظرات الكراهية التي تقابل بها كل من يجيء لمقابلته، كثيرا ما أصغى من خلف الباب الى الفاظها الغلاظ عندما تجيب من جاء يسعى وراء سلفة او تخليص معاملة، تكثر من ترديد كلمات، المصيبة. الداهية السوداء، الهباب. اذا سلمت أحدهم موافقة تقول انه من المحتمل انفاق المال على الأطباء،

أو لاجهاض جنين، أو لازالة تشويه قد يحدث نتيجة انفجار موقد او بوتاجاز، أو رشوة في المشرحة حتى لا تضيع ملامح عزيز غال، لا يصرح الدكتور الطنبولي بخروج مليم الا بعد تطبيق ما تضمنته اللوائح المالية، يزعم الجعيدي ان سبب اصابته بنوبة قلبية هو حجز احدى الشركات على الخزينة، ويؤكد انه يبكي قهرا عندما يقبض العاملون مرتباتهم أول الشهر، لكن مما يذكر له انه أنقذ الدار من أزمات عديدة، وكثيراً ما اقترض من أقاربه لسداد بعض التزامات الدار، يزعم الجعيدي انه اقترض أموالاً طائلة من برنق العبيط، لا يذكر انسان انه شوهد يؤدي واجبا، في مأتم أو فرح. لم يصافح أي انسان في الأعياد والمواسم. تحوط حياته الخاصة حجب، حتى التنوخي لا يعرف عنه شيئاً مع انه أقرب الناس اليه في هذا الشارع، كثيرا ما حاول التجسس عليه، لكنه فشل، كيف تعرف الأستاذ اليه؟ ان المسافة الأولى من الشارع تقارب على الانتهاء، هذا وجب الايجاز..

يقال ان أحدهم حدث الاستاذ عن شاب لا يصادق الا الحانوتية وحفاري القبور، لا تفوته دفنة، طالب طب لكنه فاشل، يكره النجاح لنفسه، مال الاستاذ الى ذلك، قال ائتوني به، عرض عليه العمل في الدار، من المؤكد ان الطنبولي لم يتم تعليمه، لكن أعوامه في الكلية منحته لقب دكتور..

زقاق التنوخي

.. كما لا يدري انسان أين كان قبل مولده، أو الى أين سيمضي بعد رحيله الى الأبد، لا يدري انسان على وجه الدقة كيف ظهر التنوخي في هذا الزقاق، كثير من الحكايات مجهولة الأصل، كالأمثال لا يدري أحد أول من نطق بها، لكن هناك قصة شائعة تطغي على غيرها، يقال إنه جاء الى الزقاق في أواسط الأربعينيات، سعى الى الاستاذ مرتديا هلاهيل الثياب، بدأ ثابت الأعصاب عندما قال ان مستقبله ضاع بسبب الأنباء، اذ نشرت صورته كمتهم في قضية تزوير، كاد وكيل النيابة يخلي سبيله لصغر سنه، لكن فضيحة النشر بددت كل أمل، حتى والده الذي يعمل عرضحالجيا أمام احدى المحاكم – في رواية أخرى نجار براميل – طرده، بعد صمت قال إن ما دفعه الى المجيء طريقة عرض قضيته. هنا برقت عينا الأستاذ كأنها أضيئتا فجأة، انه البريق الذي عرف عنه، ولا يجرؤ اعتى الناس على مواجهته لحظة انبعاثه، يولد الخشية، يثير الارتباك، ثم الخوف، يستمر حادا، نفاذا، قال التنوخي إنه شعر بتعاطف معه بين السطور، لم يتردد الأستاذ، فتح درج مكتبه الأيمن، تناول ثلاث ورقات من فئة العشرة جنيهات، طلب من التنوخي ان يشتري ملابس جديدة، خطر للتنوخي ان يمضي بلا رجعة، لكن عقله قال

له، حرام ان تبيع الغد باليوم، عاد الى الدار مرة أخرى، تغير مظهره حتى أن البلشي وقف احتراما له مع انه منعه قبل أربع وعشرين ساعة، يبقى سؤال يتردد لدى البعض في الخطط، متى نشرت صورة التنوخي لأول مرة؟، من المؤكد انه بذل جهدا كبيرا للحصول على سائر النسخ من عند الأنباء، لكن يشاع سراً ان الجميدي لديه نسخة وبين الحين والآخر يطلع عليها أحد الاحباب سرا، لكن... متى اطمأن الاستاذ الى التنوخي؟ من الثابت انه لم يوله ثقته الا بعد اتصال ضابط من ادارة أمن الخطط، قال له ان كل صغيرة وكبيرة مرصودة عندهم، ولا يستطيعون متابعة التقارير الشفوية أو التحريرية، انهم على استعداد لقبول التنوخي فورا في حالة الاستغناء عنه أو طرده كما هو متوقع، لكن ما لا يعرفه الضابط الذي تصور انه يؤدي خدمة للاستاذ الواسع النفوذ، ان الاستاذ غمرته راحة بعد المكالمة، أصبح قادرا على الاطمئنان الى المستقبل، هذا هو أول الخونة، استدعى التنوخي وقدم اليه عشرين جنيها، ولفترة طويلة.. لم يعلم التنوخي، لماذا كوفيء يومئذ؟؟

عطفة الامبابي

.. لا تستطيع اذنا انسان واحد أن تلما بكل ما يقال في نفس الوقت، أو حتى في غرفة محدودة لو زاد عدد المتحدثين

عن شخصين، فصاحب بالين كذاب، وصاحب ثلاثة منافق، لكن الامبابي حاول ذلك من موقعه هنا، سعى الى التقاط شوارد المكالمات بواسطة جهاز السويتش الذي تغير عدة مرات منذ تأسيس الدار، لكن الامبابي، المجلل بالأسرار لم يتغير، انه مسؤول عن تلقي المكالمات ثم تحويلها الى التليفونات الداخلية، أبطل الأستاذ تركيب أي تليفون مباشر عدا مكتبه، كما انه يتلقى الأخبار الواردة من الأقاليم، لديه قدرة عجيبة على الرد في وقت واحد على أكثر من متحدث، وتحويل الأسلاك، والاصغاء عن طريق سماعة غريبة الشكل، مستديرة ملتصقة دائما بأذنه اليمنى الى كل ما يدور من أحاديث في وقت واحد، انه مصمم هذه السماعة الغريبة التي أبدى المهندسون الألمان دهشتهم فيما بعد لغرابتها، لكن هناك أقوال حول قوة سمعه وغرابتها، اذ يستطيع الاصغاء الى عشرات المتحدثين في وقت واحد، وان يستوعب ما يقوله كل منهم، كما انه قادر على الاصغاء الى دبيب النمل، وتنفس الفراشات، والأصوات المصاحبة لتفتح الزهور عند الفجر، وصدى تبخر الندى، يقال ان الأستاذ اكتشفه أثناء أحد الموالد التي تقام عادة لأولياء الخطط، ويشنع الجميدي فيقول انه قادر على الاصغاء لما يجري عند أقصى نقطة في الخطط، وانه كثيرا ما حاول الابلاغ عن جناة ارتكبوا جرائمهم ثم

تحدثوا بها، والتقط أصواتهم، لكن الاستاذ منعه من ذلك، وطلب اليه الا ينقل ما يسمعه الا اليه هو فقط، ومنذ ذلك الحين يبدو الامبابي كالأخرس، يتناول افطاره وغداءه أثناء جلوسه خلف السويتش، ربما فسر ذلك غلظ ردفيه، يحتفظ في ذاكرته بآلاف الأرقام، يمكنه العثور على أي مسؤول، حتى انه أوصل الأستاذ برئيس وزراء الخطط السابق في بيت عشيقته، ومن مكانه هنا يمكنه أن يرصد حركة العاملين في الدار بدون أن يراهم، فيرد قائلا ان فلان يشرب الشاي عند فلان، أو أن هذا الصحفي غادر المبنى، وان ذاك يكتب، لهذا لا يمكنه ازعاجه، ومن معتقداته الغريبة ان كل صوت يتردد لا يفنى، انما محفوظ في فراغ ما، فضاء لم يصل الى تصوره عقل بشري، وان لكل صوت بصمة لا تتغير منذ الميلاد وحتى الموت وانه يحفظ بصمة كل صوت تحدث اليه ولو مرة واحدة، ومن المؤكد انه الوحيد الذي يمكنه الحديث الى الاستاذ في أي وقت، والنفاذ الى الأقبية التي لم يدخلها أقرب الناس الى الأستاذ، والمؤكد أيضا ان الأستاذ كافأه بمائة جنيه من جيبه الخاص بعيدا عن تعقيدات الطنبولي وجهامة سكرتيرته، لماذا هذه المكافأة مع انها واقعة نادرة الحدوث، هذا ما لا يعلمه انسان..

.. الرِجْل خفيفة على هذا الدرب، ربما لأنه يفصح عما يحويه، ولأن معالمه خفية، والساعي اليه لن يستطيع الوقوف أبدا على التفاصيل الدقيقة لكيفية تعرف الأستاذ برونق، حتى الهيئات السرية، بما فيها ادارة أمن الخطط، وعملاء وكالـة المخابرات المركزية بالخطط، أو التنظيمات الخفية للأجوج، وفي مثل هذه الدروب لا يمكن الا الأخذ بما هو شائع، أو برواية تجب ما عداها، المؤكد انه لم يرتبط بعلاقة تماثل علاقته برونق، يقال انه جاء اليه رجل أبيض الشعر، على جلده لون الثراء وملمس الشبع، وفي صوته نبرات الغنى وطابعهـا التمهـل والنطـق البطيء الثابـت، الموزون، قال انه سفير سابق، تولى السفارة مرات، وفي عواصم مختلفة، عندما كان السفير له هيبة، وقبل ان يتولى الأولاد هذا المنصب، ابنته درست معه في انجلترة، طافت بلدانا كثيرة، تتقن الأسبانية، والايطالية والفرنسية، كما انها تعرف لغة أعداء الخطط، تُلُمّ ببعض لغات بلدان أفريقيا الوسطى، وكثيرا ما استعان بها للتفاهم مع أهالي هذه النواحي وهي في السابعة، ومعروف طبعاً ان الأطفال يتعلمون اللغات أسرع من الكبار، انها جريئة، ذكية، وترغب في العمل كصحفية، هز الاستاذ رأسه موافقا، لكن مقابل شرط واحد، أبدى

لرجل موافقة مسبقة، قال الأستاذ بهدوء ثاقب، أن يفض بكارتها بنفسه..، ان الاستـاذ يهوى مفاجأة الآخرين بما لم يعتادوه، ويلقى المتعة في تقصي ردود الأفعال وله في ذلك نوادر عجيبة، كأن يتحدث الى احدى المصونات بجدية، ثم تفوُّهه بلفظ فاحش، أو انحنائه لأستاذة جامعيةْ، وسؤالها برصانة عن الوضع المفضل مع زوجها، أو تقدمه من سيدة تدير جمعيـة خيرية، طلب الحديث على انفراد، قال انه يرغب في مضاجعتها جيدا... في مكتبه، غدا، في الخامسة، يؤكد انها جاءت في الموعد تماما، وانه ما من امرأة جاهرت بالاحتجاج، أما عن قوة الأستاذ وفحولته فهذا أمر شائع في كافة انحاء الخطط، بعد أيام قال جعفر ان آنسة ترغب في رؤيته، عندما ظهرت على مهل في مدخل الدرب، تلخص انطباعه في لفظ واحد «مهرة»، مهرة منسبة، أصيلة، فرس الرهان، جموح يضج به جسدها، صدرها متوتر كالقوس المشدود، له أزيز، قوام راقصة اسبانية تزهو في الحلبة، سارح الى أعلى بلا مانع، شلال متدفق من الأنوثة الغضة التي تلهب الحواس، ضم بعينيه الخصر الرقيق الذي يعجز الذهن عن تصور انه يضم كبدا ومعدة وأجهزة أخرى، لم يتخل الأستاذ عن عادته، ركز البصر أخمص البطن، لكنها لم تجفل، لم تحضن حقيبتها متشاغلة، انما اشهرت نظراتها بلا خجل،

تدفقت الى شرايينه، لحسن حظه انها لم تولد في بلد آخر، بدت عالمة بما يضمره، مطلعة على نواياه، قبل الاضطجاع قال بصراحة ان اي امرأة بالنسبة له أداة راحة من توتر لا بد من افراغـه، قال ان المرأة خلقت لذلك، مع انه يكتب ليل نهار عن حريتها وضرورة مساهمتها في الحياة العامة، بعد انتهائه قال إنها خسرا والدها بسبب شيء لا وجود له، لم تبد اهتماما، ولم يبدو انه استثارها باستفزازاته، بعد سبعة أيام قال انها ستعمل بمكتبه، ستطلع على كل شيء، لكن ليس لها أن تسأل على ما لن يحطها به علما، لا بالتصريح أو التلميح، حان الوقت الذي يجب ان يقوم بينه وبين الناس حاجز حلو شفاف، حازم، يملأ العيون، ان جعفر وحده لا يكفي. وهكذا.. اصبح الجميع مطالبين بالتحدث الى رونق قبل مقابلة الأستاذ، واستثنى التنوخي، والطمبولي، وجعفر الساعي، والاصبابي..

عطفة الساعي

في الدرب السابق، أطل جعفر الساعي مرة واحدة ليخبر بوصول رونق، ثم تركها بمفردها، لم يدر وقتئذ أنه سينسحب مرات فيما بعد، انه الساعي الخاص، نحيل، طويل كعود الزان، حاجباه مقوسان لهذا يبدو غاضبا دائما، حتى له

الدخول في أي وقت، يحمل القهوة، يخبر عن محرر يطلب مقابلة، أو يرتب الأوراق، ينفض غبارا غير مرئي، وقد يدخل ليحملق لحظات ثم يخرج، إنه ابن رئيس حاشية الخدم في بيت والد الأستاذ، مع مجيء رونق قلل دخوله الى المكتب مع أن رونق لم تطلب منه ذلك، وعاملته بود، ان برنق العبيط لا يجري الا لحظة ظهور جعفر، يخشاه، وإذا رآه فجأة فإن الذعر يركبه، ويصرخ حتى يختفي، أو يركع مادا يديه كأنه يحوش ضربات متوقعة... رونق نفسها يدركها شعور بالقلق عند ظهوره، ولأن حاجبيه مقوسان، يعبران عن غضب دائم، فلم تدر أبداً حقيقة مشاعره....

زاوية برنق

في زمن تأسيس الدار ظهر برنق، انه ضخم، غليظ الشفتين، يبدو لاهثاً دائماً، يرتدي جلبابا فوق جلباب فوق جلباب، ومعطفا أصفر اللون من مخلفات رجال أمن الخطط، ولا يبدل ذلك صيفا أو شتاء، جاء من أحشاء الحواري والأزقة، حمل الأثقال، والمقاطف، ومواد البناء، وصب الخرسانة، وحمل صواني القهوة والشاي، يختفي فترات طويلة فلا يسأل عنه أحد، وعندما يظهر لا يهتم انسان بسؤاله عن الجهة التي قدم منها. يبدو أحيانا كأنه لم ينم منذ ليال، ويبدو أحياناً

مستثيا، ربما جاد بصراخ مفاجىء، اذا ضربه أحدهم على قفاه صاح هائجا «ملعون أبو الخطط» يتحرك دائما بالقرب من المدخل، اذ يلمح الأستاذ قادما يهرول زاعقا، ولحظة توقف العربة أمام المدخل يختفي، لكن الأمر يختلف مع المحررين اذ يتبع الواحد منهم متسائلا «هل قرب الأوان؟» ويجيبونه قائلين ان الوقت لم يعد بعيدا، ذلك ان حلمه الالتحاق كساعي بالدار، وان تصرف له حلة شتوية، وأخرى صيفية، في أيام الأعياد يجيىء حاملا زهوراً صفراء ويرجو البلشي توصيلها الى الاستاذ لتذكيره بخادمه برنق الذي لم يعين بعد، بعد مجيىء رونق اعتاد الجري أمام التاكسي، يمسك مقبض الباب حتى نزولها، لم تبد منه جزعا، وأحيانا تمد يدها في حقيبتها وتعطيه ورقة نقدية، يزعق «تعيش جلالة الملكة»، ويؤكد عدد من عمال المطبعة أن لديه ثروة مخبأة في أواني فخارية، وانه أقرض الأستاذ مبلغا ساهم به في تأسيس الدار، وأن الدكتور الطنبولي يعتبر وجوده ضمانا للاستقرار المالي، ويستشهد القائلون بزعيق برنق وقوله ان كل من في الدار هم رجاله، يرقبه البلشي دائما، يمنعه من تجاوز المدخل، ويقسم ان له صلة وثيقة بالعجم، وانه يعرف رموزهم، ويقرأ كتبهم، يرد آخرون بأن في ذلك مبالغة، وان برنق واحد من الضائعين الذين يملأون الخطط، وكل منهم ظهر في منطقة فارتبط بها، ولم

يفارقها، وعاش فيها يستجدي سكانها، أو يؤدي خدمات لهم مقابل قرش أو لقمة، ومثله كثيرين.. مع أنه لا يوجد ما يمت اليهم، او ما يمتون اليه في المكان الذي ظهروا فيه فجأة وارتبطوا به...

وقفة البلشي..

لم ير البلشي في الخطط الا واقفا، ما من انسان تردد هنا أو هناك الا ورصده بعينيه، وحفظ ملامحه، واذا دخل الدار فانه يطلع على بطاقته، لا يكتب أي بيانات في مواجهة الزائر، انما يستوعب عقله كل التفاصيل ثم يدونها، في البداية قام بعدة أعمال لسنوات طويلة ناءت بحملها بعد ذلك أجهزة بأكملها، كان يسأل كل زائر عن سبب مجيئه، أي شخص سيقابل؟ كم من الزمن سيقضي داخل الدار، كان يتابع خروج ودخول المحررين والموظفين والعمال، من خرج بمفرده؟ من خرج بصحبة من؟ يتلقى شكاوى الناس وأحيانا يرد، ويبلغ قرارات الفصل للذين طردوا ومنع دخولهم الى الدار، وقد ظل طوال عمره متمسكا بالمهمة الأخيرة، مُصِرّاً على القيام بها بنفسه، عرف عنه حبه الشديد للاحتفاظ بكل ما يمت اليه أو الى عمله، ما من ورقة خط فيها كلمة الا ويحتفظ بها، كذلك كافة الخطابات التي تلقاها، وكراريس طفولته، وتعليمات

الأستاذ المكتوبة التي يأمر الطنبولي بوضعها في لوحة الاعلانات التي تتصدر المدخل، يحتفظ أيضاً بعلب من الصفيح جمع فيها كل الشعر الذي تساقط من رأسه، أو لحيته، أو شاربه، بفعل الصلع او الحلاقة، يحتفظ بجواربه القديمة وملابسه الداخلية. وأحذيته وقمصانه، والحقائب التي تهرأت، وأطر النظارات الطبية التي ارتداها، كان ينوي عندما يشعر بدنو أجله القيام باحصائية نهائية يعلم منها، كم حذاء ارتدى او كم سروالا، وما مقدار وزن الشعر الذي انبته جسمه طوال حياته؟، في متابعته للعاملين كان يلم بعد نظرة واحدة بالحالة النفسية، يقارن بحالتهم عند دخولهم، ويفضي بهذا كله الى الأستاذ، ولكن برغم حدة ملاحظته فان سنوات عديدة مرت قبل ان يرصد زيارة تتكرر كل سبعة وسبعين يوما، يقوم بها شخص له ملامح غريبة، ملامح تشبه الصور التي تنشر أحيانا في الصحف لزعماء الأعداء ورجال حربهم، أو أسرارهم، انها الذقن المدببة، والعيون الضيقة، كان الأستاذ يطلب منه أن يسمح له بالصعود، ولا يؤخره..

لمحة سريعة في أخبار الأعداء

أعلم انه للخطط أربعة حدود: ثلاثة في البر، والرابعة في البحر. ثلاثة مع الأصدقاء، والرابعة مع الأعداء. الغربية

تتصل ببلاد الغرب وفي الماضي البعيد والوسيط كانت تعتبر امتدادا طبيعيا للخطط، ولم يكن المسافر يحتاج الى جواز سفر، أو اجتياز مخافر حدودية، أو بوابات جمركية، كذلك كان الأمر مع البلاد الجنوبية والاراضي الشمالية. أما البحر الكبير الذي يقع الى الشرق فكان عبوره يتم في الزمن القديم خلال شهر، وفي الزمن الحديث حوالي أسبوع، على امتداد تاريخ الخطط نشبت حروب عديدة، تسجل ذلك اللوحات الأثرية النادرة في المعابد الضخمة والمعابد المتطرفة في الصحراء الممتدة على جانبي الوادي، وهناك أقوال لبعض مهندسي المناجم عن لوحات منقوشة في الصخور الوعرة بمنطقة الخلاوي الصخرية، لكن هذه اللوحات لم تسجل حتى الآن، اذ أن منطقة الخلاوي وعرة جدا، وتزدحم بالثعابين والهوام، حتى قوات الجيش لم تكلف نفسها عناء استكشافها لوعورتها واستحالة اختراقها، وهكذا عدت ضمن الحزام الدفاعي للخطط جهة الشرق. جاء الأعداء منذ بداية القرن على دفعات الى امتداد الاراضي الشمالية ثم نمت قوتهم، واستفحل أمرهم، وهددوا الخطط نفسها منذ أربعين عاما، وأرسلوا طائراتهم للاغارة على الشوارع والأسوار، وتسبب ذلك في نشوب عدة حروب، جرت على فترات شبه متساوية، معدل الفترة سبع سنوات، وأصبح يوجد شهيد من أهالي الخطط بين كل سبعة أشخاص، وجريح بين كل أربعة، وتعلم الأطفال

منذ صغرهم كراهية الأعداء الذين وصفوا بأنهم أغراب، او أجانب، أو مرتزقة، وأنهم جاءوا من كل حدب وصوب، وجرت عادة الأمهات في كافة مستوياتهن الثقافية، على قص حواديت لأطفالهن تدور حول الأعداء الأغراب الذين جاءوا لخطف الحلوى من الصغار، ولحرمانهم من اللعب، ولتخويفهم ولإبعادهم عن الوالدين، وفي المدارس والجامعات لم يخل درس أو بحث أو رسالة علمية من اشارة الى الأعداء، ومحاولة فهم أحوالهم، وفي الاذاعة انشدت آلاف الاغنيات، وفي المحافل تليت القصائد، تندد بالأعداء، وتستثير المشاعر للانتقام لأرواح الشهداء، ومن حين الى آخر يعلن عن امساك جاسوس، أو عميل، أو أحد أفرادهم، يمكن القول انهم خلال القرن الأخير شكلوا الخطر الحقيقي على الخطط، بل الخطر الوحيد الداهم، ولا زال حتى الآن..

نهاية الشارع الأول

وهنا تساؤل، متى بدأ العاملون في الدار يستخدمون لقب الأستاذ عند مخاطبته، أو عند الحديث عنه؟ لا يمكن تحديد يوم أو شهر بعينه، يروي التنوخي حادثة ذات مغزى، اذ عمل في الدار صحفي اسمه غريب، وعرف عنه حبه التقرب من كبار الموظفين، اذا قابله انسان قال له بمناسبة او دون

مناسبة انه ماض لمقابلة وكيل الوزارة الفلاني، أو الوزير العلاني. وحدث مرة بعد شربه القهوة مع مدير بوزارة ري الخطط ان سأل المدير عن عادات كبار الكتاب في الجريدة، حاول غريب ان يبدو عالما، ملما، فنسب اليهم ما هو غير حقيقي وزاد فيما هو حقيقي، تحدث عن الاستاذ باستخفاف، كيف يستشيره عند كل خطوة، كيف يقول له : أنجدني يا غريب، انقذني يا غريب، عند عودته إلى الدار فوجىء بالبلشي يقترب منه وينحني ويطلب بصوته النحيل التوجه إلى مكتب الدكتور الطنبولي، أطال البلشي نطق الكلمات وفسر مخارج الحروف. وبدا مستمتعا بكل لفظ. اضطرب غريب، طلبت منه كريمة الانتظار، تركته أربع ساعات كاملة، لم تسمح له بملامسة كرسي، وعلى فترات متقاربة تنظر اليه، وتمصمص شفتيها، كاد يبول على نفسه خوفا واضطرابا، لم يستغرق لقاؤه بالدكتور الا نصف دقيقة.. سأله، هل تحدث عن الأستاذ مع مدير عام بوزارة الأشغال، هم بالكلام، صاح الدكتور : نعم أو لا؟ أومأ غريب، طلب منه المرور على الخزينة، والا يدخل الدار، من المعروف ان الأستاذ لم يصدر قرارا بتعيين انسان طوال الأربعينيات، لهذا خشي كل انسان على لقمة عيشه، كما خاف الجميع من غضبه الهادىء، ونظراته، وقدرته على جذب الآخرين الى فلكه بحلو حديثه

وقدرته الفائقة على ضرب المثل تلو المثل، ورواية الحكايات، والاستشهاد بالشعر القديم، والحديث، وأقوال بالانجليزية، وحكم باللاتينية، وفقرات فرنسية، ومع اتساع ثقافته عرف عنه كراهيته لأي صحفي أو موظف أو عامل بالدار لديه اهتمامات عامة، أو يقتني الكتب، انه شديد التأثير فيمن يحيطون به، وعند خروج الأستاذ بمقابلة فانه يوجه الأسئلة وكأن الأستاذ صاغها قبل نطقه بها، حتى كتاباتهم تأثرت بطريقة الأستاذ، لكن لم يرق أحدهم الى أسلوبه، انشغل الجميع به، وطاردهم حتى في أحلامهم، ولم يفكر أحدهم متى أطلق عليه لقب الأستاذ أو ما اسمه الكامل؟

نقطة تفتيش تابعة لادارة أمن الخطط

أعلم ان ادارة أمن الخطط من أقوى الجهات نفوذا، وأن تنظيماتها، وأقسامها تعد سرا من أسرار الخطط العليا، وأن تغييرا جوهريا لم يطرأ على رجالها المعروفين أو العلنيين مع أن العصر تبدل، والوضع تغير، خاصة بعد زوال العهد الملكي، وبدأ العهد الجمهوري، بل ان القوانين القديمة المنظمة للترقي، ولتعامل الادارة مع الأهالي، لم تتبدل، لم يتغير شيء فيما عدا الرواتب، التي زادت باستمرار، ان الجهد الرئيسي لادارة أمن الخطط يتلخص في مقاومة العجم

واشباههم، وفصائل المعارضة، أما مطاردة جواسيس الأعداء ومحاولة كشف أخبارهم فمن اختصاص قسم مستقل أطلق عليه قسم النشاط الخارجي، ويوجد قسم آخر مستقل أيضاً يختص بالشئون الجنائية، وقضايا الأمن الاجرائية، ان إدارة أمن الخطط مسئولة تماما عن مراقبة جميع شخصيات الخطط، ومطاردة تنظيمات العجم، والكشف عليهم، وتشويه أفكارهم، يوجد مقرها المركزي في مكان ما من الخطط، غير معروف ولكن توجد نقاط تفتيش في الشوارع والأسوار، والأزقة والحواري، وتقوم النقاط بتفتيش هذه المناطق باستمرار، ومراقبة المشتبه فيهم، والبحث عن ماضي أي شخصية جديدة تدخل الى الخطط أو يرد ذكرها، وعند نهاية الشارع الأول خضعت جميع الشخصيات التي ظهرت أو مرت الآن لعمليات تفتيش دقيقة، بعضها سري، والآخر علني، تم ذلك بالنسبة للجميع، حتى برنق وأمثاله من الضائعين، بل أن برنق لقي اهتماما خاصا، فيما عدا الأستاذ الذي لم يقترب منه انسان.. وعادة يوجه ضابط ادارة الأمن الذي يرتدي ملابس مدنية سؤالا واحدا لكل شخصية قبل عبورها الى الجزء التالي من الخطط.. عند نهاية الشارع كان السؤال:

لماذا تبدو قامة الانسان منتصبة دون غيره من سائر الحيوانات؟

قال الطنبولي لأن للانسان عمود فقري مستقيم، وقال جعفر وقالت كريمة انها لا يعرفان، وقال البلشي: حتى يمكنه النظر الى الأمام، وقال التنوخي لأنه يمشي على قدمين والحيوان يمشي على أربع، وقالت رونق حتى يمكن اتخاذ وضع الجماع الذي يتقابل فيه الوجه بالوجه بعكس الحيوان، وقال الجعيدي انها حكمة من الحكم العليا، وقال الامبابي ان الكمال في الوقوف، ولم يجب برنق أبداً، لكن بعد ان صرفه الضابط زعق.. ملعون أبو الخطط...

* * *

السور الثاني

في أوله أغمى على امرأة عجوز ترتدي فستانا قديما أسود..

وسرت اشاعة بين أصحاب الدكاكين الواقعة قرب الشارع الأول ان البلدية ستزيل هذا الجانب كله، استشرى سخط وضيق، لكن ردد البعض أقوالا مطمئنة، ان أقدم مقاهي الخطط يقع في زمام تلك المباني ورواده من مشاهير الخلق وكبارهم وأصحاب الحل والعقد في الخطط كلها. ولصاحب المقهى أحباب بينهم..

وتهدم جزء من خان قديم بني في القرن السادس عشر أول زمن الغزو العثماني ومع انهيار الجدار الشمالي ظهر جزع نخلة عتيقة يذكرها المعمرون من الحي القديم كأحد معالم طفولتهم، وكتب مدرس اللغة العربية بالمدرسة المجاورة خطابا الى جريدة الأنباء ينبه الى أهمية الأثر.

ونمت أشجار تم غرسها فوق إلتلال المطلة على أطراف

السور منذ ثلاثة أعوام، وقال الناس.. لينشأن في هذا المكان منظر جميل..

واستمر اللبان الوحيد يبيع اللبن لزبائنه طوال الليل، ويقدم الافطار للمسافرين قبل بداية النهار، ولم يغير طريقته الموروثة عن والده، تقديم سلطانية خزفية بها حليب مصفى، وطبق به خمس كعكات صغار، وكان بعض الزبائن يحاول اخفاء تهشيم الكعكة تحت اضراسه، وآخرون لا يبالون، وعدد لا بأس به يطلب اضافة القشدة..

وفيه صدر بيان من القيادة العليا للخطط يعلن عن وجود حشود للأعداء واختراق ثلاث طائرات معادية المجال الجوي..

وفي اليوم التالي بدأت الأنباء ثلاث حملات، الأولى تحذر الخلق من النمل الأبيض، الشره الى أخشاب البناء، أبدى المختصون في وزارة الزراعة دهشتهم لأن النمل الأبيض لم يظهر في الخطط منذ عدة سنوات، لكنهم لم يترددوا في الاجابة على أسئلة العناني، والجعيدي، وكاميليا السويفي، سأل مديرهم عن نشر صورته فوعده العناني خيرا، والحملة الثانية حول الأخطار المترتبة على تعري الأسلاك الكهربائية في الأماكن العامة، والثالثة قام بها الهلالي في صفحة الفن ضد كتاب القصص السينمائية، واتهمهم بالتقصير في ابراز الفرق بين العهد الملكي والعهد الجمهوري..

وفيه كتب التنوخي سلسلة مقالات عن مشاهداته في بلاد العجم، عنوانها الرئيسي... «الجحيم هناك»، ذكر انتشار الفقر، وضراوة البؤس، وخلو البيوت من دورات المياه، وامتداد الطوابير عدة كيلو مترات في انتظار الخبز، ونسيان الناس لمذاق اللحم... طالب التنوخي بضرورة التصدي للعجم الذين يرغبون في تحويل البلاد الى نظم تشبه نظم العجم...

وفيه طلب الأستاذ من الدكتور الطنبولي تسوية حساب فرح حافظ، وجاء قراره بعد تردد قصير، فرح حافظ لا تنقصه سمة واحدة مما يبحث عنه في طلبة الجامعة سواء بقسم الصحافة أو غيره، أو في كل من يراه، انه نمام مثالي، محب لإيذاء الآخرين الى درجة تثير الاعجاب وتجعله متفوقا على العناني في كرهه للناس، لا يحب لصاحبه أو أخيه ما يحبه لنفسه. بخيل، بالاضافة الى ذلك فإن كتابته لا تحتاج الى اعادة صياغة، له أسلوبه، لكن الشيء الحلو لا يكتمل، ما ضايق الأستاذ تلك الهواية الغريبة، وهي جمع التوقيعات، ورفع العرائض اليه هو، الى الاستاذ، خلال شهور قليلة قضاها، حرّر عشرات العرائض، وجمع توقيعات عدد كبير من العاملين، ان مضمون العرائض لا يزعج، عريضة يطالب فيها العاملون باستمرار عمل البوفيه ساعتين اضافيتين، عريضة هدفها إصلاح عدد من صنابير المياه التالفة بالدورات،

عريضة ضد الزملاء الذين يلقون أعقاب سجائرهم فوق الأرض، وقد نبه ضابط ادارة أمن الخطط الى فرح حافظ، واستحسن عدم استمراره في الخطط لأن جمع التوقيعات من علامات العجم، ولكن التنبيه جاء متأخراً، إذ أن الأستاذ كان قد أقصاه بالفعل..

وفيه رأى الاستاذ شابا طويلا الى حد غير عادي، عريض، متين الرقبة، كبير الرأس، سأل، فقالوا له انه مدرب المصارعة الحرة في النادي، يتمتع بقوة خارقة، يمكنه جر عربة باسنانه، لكنه لم يؤذ انسانا، ان قلبه طيب كالحمامة واسمه الوتيدي..

وفيه حام رجل يتحدث العربية، لكن ملامحه غريبة بالنسبة لمن رأوه يستفسر ويستقصي، كان يسأل عن رجل صيني الأصل، يسكن البيت المواجه، بالتحديد الشقة الأرضية، قيل له إن الشقة لم تعرف صينياً أو مغربياً، وأنه يسكنها شاب مستقيم الخلق، ومعه أمه، اسمه الوتيدي..

وفي الصباح ظهر جعفر الساعي، طرق الباب في السادسة، حتى أن أم الوتيدي فزعت ورددت: يا فتاح يا عليم، يا رزاق يا كريم، استر يا رب. قال جعفر للوتيدي، انه مطلوب لمقابلة صاحب ورئيس تحرير الأنباء..

أبدى الاستاذ ارتياحا، وقال ان البقايا الموجودة في نفس

الوتيدي يمكن ازالتها، مثل مقدرته على الاحساس بمضايقات الآخرين، وشهامته، وعدم ارتكابه المعاصي، تلك أمور لن تعوق اندماجه في اسرة الأنباء الصميمة، ونواة الخطط الجديدة، وأكد رأيه تقرير ادارة أمن الخطط، لم تبد اعتراضا على دخول الوتيدي الى الخطط، وأشارت الى رغبته العميقة في ضمان رزق مستقر، وهذا يجعل من الصعب انضمامه الى العجم يوما، أو الى فئة معارضة..

وفيه أتم خالد الرابعة عشر، أطال النظر الى ابنة الجيران سعاد، تبدو مختلفة عن الأخريات، انها نحيفة، خمرية اللون، واسعة العينين، ترتدي جورباً أبيض، حدث صاحبه حسن عنها، مشى معه عبر الحواري والعطوف، جلسا في مسجد قديم، استذكرا دروسهما في هدوء المسجد المعتم، تنتاب خالد أفكار مفاجئة فيعبر عنها بغتة، سيصبح يوما قادرا على مد العون الى المكروبين، يتمنى تحقيق الراحة لأبيه، بعد أن يتوظف، بعد أن يقبض اول مرتب، سيضعه كاملا بين يديه بل انه سيطلب منه أن يحيل نفسه الى المعاش، سيدخر نقودا ليفك رهن نصف الفدان الوحيد، أبوه يريد أن يتم تعليمه حتى الجامعة، لكنه سيلتحق بمدرسة متوسطة، ليحصل على وظيفة سريعة، انه يحب سعاد، سيبوح بحبه في لحظة ما، يتمنى لو انه امتلك آلة تصوير، يتمنى لو انه التقط

لها صورة خفية ثم يتطلع اليها كلما خلا الى نفسه ، يفكر في كتابة خطاب اليها ، لكنه لم يصغه بعد ، سيقول لها انه يحبها ، وانه يعرف مقدما انها لن تلتفت اليه ، ولن تهتم به ، لأن ملامحه قبيحة ، ولأنه منطوي ، لكنه يريد منها ان تسمح له بحبه لها فقط ، واذا شعرت بضيق يمكنها أن تجد فيه صديقا حقيقيا ، سيصغي اليها ، ويسدي اليها النصح ، وقلبه يتقطع ألما ، لأنه يعلم تماما انها تحب انسانا غيره ، إن حالما يفكر أيضا في خطة لقهر الاعداء ، وازاحة خطرهم عن الخطط ، وايقاع الهزيمة النهائية بهم ، واجلائهم عن الاراضي الشمالية ، واعادتها الى أصحابها : في لحظة مناسبة سيعلنها ، كان حسن يصغي ، ثم يقول : يا عم .. انت احلامك كثيرة .. لننته أولا من دروسنا ..

وفيه أسلم خالد كفه لعجوز يجلس أمام المدرسة ، قال العجوز ان عمرا طويلا يمتد أمامه ، وانه سيصاب بمرض يلازمه ، وانه سيتوحد يوما بالصخر ، وانه سيقاسي شدائدا ومحنا ، وانه سيعشق انثى قصيرة ، نحيلة ، أول اسمها كأول حروف الكلام ، أدرك خالد غضب ، كيف يتخيل هذا الرجل انه سيحب انثى أخرى ، سعاد في القلب وما عداها لا أثر له .

وفيه قال توفيق بك لضيفه الدكتور فوزي طبيب القلب

المشهور : دعني أطلب يد ابنك لابنتي ايثار ، ضحك الدكتور فوزي « أهكذا » تنقلب الآية؟ نحن الذين نتشرف بايثار ..

وفيه وقعت كائنة الجعيدي ، وتفصيل ذلك ، انه عاد في الخامسة الى بيته ، مشى على اطراف أصابعه ، متخيلا رد فعل المفاجأة على زوجته وابنته ثريا ، دفع باب حجرة النوم . ان ينس فلن ينسى ساقي امرأته تحيطان برجل ، مؤخرته عارية ، يعطي الظهر شعر كثيف رأسه مدفوس في صدرها ، نزل ثقل على رأسه . انفصلا . مرور كل جزء من ثانية يمنحها القدرة على التصرف في مواجهة جموده . سحبت ملاءة السرير ، لفت جسدها . بحركه جانبية التقطت سروالها ، بسرعة ارتدته ، زعقت انها لا ترغب في العيش معه . تابعها وهي تحرص الا تدير ظهرها له ، لم يدر متى ارتدى الرجل الغريب ملابسه ، ما شغله في هذه اللحظة . كيف سيحكي ذلك فيما بعد ، تخيل عطف مستمعيه بعد أن يقول : امرأتي هجرتني . خرج الرجل ، خرجت هي ، نزل صمت جارح ، تمهلت دقات قلبه ، احتوى بعينيه لون المقاعد ، والأواني الفضية في ركن الصالة ، تذكر اصرارها على شراء دولاب فضيات ، بعد أن جاءت ثريا ، حاش دموعه غصبا ، احتضنها ، قال ان أمها سافرت في رحلة مفاجئة ..

وفيه وصل المهندس ضرغام الى أعماق نائية من الصحراء

الغربية، بدا المكان مجمعا لصمت الدنيا، في الواحة تكاثف النخيل، لكن الخضرة ليست خالصة، ليست مرتوية، جذوع النخيل في اسوار البساتين، وأسقف البيوت، والمعابر الصغيرة فوق مسارب المياه الشحيحة، في العصر هاله الجلال السكوني وقف عند بداية رمال لا عرض لها ولا طول، ستتوالى أيامه هنا، سيسعى وراء المياه في مساراتها الجوفية، ان قلبه جسور على الصحراء..

قيل للاستاذ ان شابا عاشقا للصحراء سافر الى الأعماق، لديه مشروع متكامل لزراعة آلاف الأفدنة في الواحات النائية، سيعود ذلك على الناس بخير وفير، أخفى الاستاذ ضيقه، مثل هذه الروح تهدد الخطط الجديدة التي يسعى لاقامتها..

وخلا الاستاذ الى أحد زائريه من ذوي الملامح الغريبة، قال الزائر إن العشرات يرابطون في كل مكان، أمام المدارس، وحول مكاتب تسجيل المواليد، يتظاهرون بقراءة الكف، ومنهم من يجيد ذلك فعلا، ويقرأ طوالع النجوم، انهم يتفرسون، ويستقصون..

واستمر صاحب أقدم مقهى على جلوسه المعتاد، يدخن النرجيلة، يرعى الزبائن بعينيه، ويرقب بقلبه اسراب الحمام داخل الأقفاص، تصله أصوات خافتة، تفلت ضحكة، يرن

طبق، يحمد الله انه لا زال يعيش، يصغي الى السهارى والمعتصمين بالمقهى من وحشة الليل، وبُعْد الأصحاب، وهجر الأحبة، وطول الطريق، واستعصاء الاجابات، ثم يرنو بقلب محسور على اللذات، والأيام التي خانته، ولن ترجع أبدا، عند الفجر يصغي الى صوت المؤذن يرفع الى السماء ابتهالات القلوب المكلومة، التي لم تيأس بعد من الرجاء، الرانية الى جميل الوصال..

قد جئت بابك يا مجيبا من دعاكا
انت المعين، ومن لنا سواكا
اسعى وتسبقني اليك جوارحي
فالقلب يلقى الأمن دائما في لقاكا
ربي، عدت الى رحابك تائبا
ربي، يا رحيما في علاك..

وفيه جرت زفة المرابطين الصابرين، تجمع عدد منهم، تجار تحف عتيقة، وصور واطارات مفضضة، وطلبة يدرسون، وسكان أروقة، وتجار كتب قديمة، ومخطوطات نادرة، وصانعو عطور، وخبراء نبات، ومتخصصون في اصلاح الساعات الاثرية، ارتدوا أحسن ما لديهم، خرجوا الى بداية الطريق المؤدي عند نهايته الى الجبال التي تضم الخلاوي، أوغلوا حتى اختفت أضواء المدينة، تكاثرت النجوم، وبدا

ضباب ممتد الى مركز الكون، صمتوا سبع دقائق، تقدم كبيرهم، رفع يده اليسرى الى فمه، اليمنى ظلت ممسكة بمقود الجواد الذي اسرجوه، وزينوه، ولم يمتطه أحد، زعق: بسم الله يا صاحب الزمان، بسم الله أخرج، وقع الفساد وكثر الظلم، وهذا أوان خروجك، أظهر ليفرق الله بك بين الحق والباطل، كرر ذلك سبع مرات، ثم انتظر سبع دقائق، أرهف السمع ثم صاح. يا نفس طيبي.. يا نفس أبشري.. غير بعيد كل ما هو آت، بعد اليوم غد، وبعد السبت أحد، استداروا، والفرس مسرج، ركابه خال، في انتظار الغائب، سيقودهم رافعا بيارقه، عندئذ يأمن الخلق، يسبح كل كائن حي بحمد الله وشكره، حتى الحيتان في أعماق البحر، وينطق الحجر، تحتي ظالم فاقتلوه..

وفيه تساءل الاستاذ عن آخر أخبار العجم، قال العناني ان ما تم القبض عليه حتى الآن حوالي ألف، ولا زالت الحملة مستمرة. أما الزنازين فتضج من صراخهم لهول ما يلاقونه..

وتساءل الأستاذ عن أحوال المرابطين، قال العناني أنهم عادوا من طلعتهم أمس، كما سيعودون بعد ألف سنة، إدارة أمن الخطط لا توليهم اهتماماً.. تعرفهم جيداً..

وفيه تنهد خلق، وفاضت حسرات، ومات نفر قبل أن

تكافئهم الدنيا على ما بذلوه من مشاق، وجاءت موجات حر فتخفف الناس من ملابسهم، لكن البعض حذر من تقلبات الجو، قيلت عبارات ترحيب، وجمل وداع، وتصافحت أيدي، ووقع ما لا يحصى من المعاصي والفسوق، وكثر التربص، ونسيت في الخضم أحزان، وتزايد الأغراب في الخطط، ولم ينتبه انسان الى ذلك، وتقبل البعض أمورا ظنوا يوما أن اقتناعهم بها مستحيل، وجرى ماء كثير، وجفت عيون..»

* * *

الشارع الثاني، ويعرف بشارع الاجتماعات، وأوله أزقة متصلة..

.. يفضي العناني بما عنده لرونق: الجعيدي يشرب الشاي يوميا بمقهى يتردد عليه العجم، التنوخي يختفي لمدة ساعتين يومي الاثنين والخميس، الخضر عامل الليوتنتيب أقرض زميله جاد خمسة جنيهات، تبدي رونق اهتماما، هل من عادته إقراض أصحابه؟ يقول العناني انه يبدو شهما، تسأل رونق، هل اصطحب الجعيدي ابنته؟، يجيب العناني، انها لا تفارقه، يدعها بمفردها في الحديقة القريبة لكنه لا يغيب، تقول رونق.. وماذا بعد؟، يقول ان كاميليا السويفي جاءت اليوم ترتدي جاكت شمواه، إنها تظهر فيه لأول مرة، قنديل وصلته دعوة لحضور حفل استقبال بسفارة ايطاليا، لكنه لن يذهب لأنه يعتبر كافة المسيحيين كفارا، الوتيدي لا يفارق المقهى، البلشي ارتدى حذاء جديدا، يقول العناني انه سيقدم تحقيقا مفصلا عن مجموعة العجم التي ضبطت أخيراً، ينصرف العناني، انه يقدم ثلاثة تقارير على امتداد اليوم، انه لا يخفي

إعجابه برونق، أدق التفاصيل لا تغيب عنها، تدري بدبيب النمل في الدار، تمضي الى كل ركن، حتى المطبعة، تجيد الاصغاء والصبر على الاستماع الى الآخرين، ولأن كثيرين في حاجة الى من يصغي اليهم باهتمام، مجرد الاصغاء فقط، فقد قصدها المحررون، والموظفون، وسمحت للعمال بالجلوس اليها، والفضفضة، ما لا يعلمه العناني، ماذا تفعل رونق بكل ما تسمعه؟ انها لا تصغي فقط، ولكن تشارك محدثها بانفعالاتها، ومع ذلك فان العناني لا يخشى إنساناً في الدار مثلما يخشى رونق، ليس لأنها رفيقة الأستاذ، ومدبرة أموره، لكن هناك تعبير مفاجيء من القسوة يغطي ملامحها للمحة خاطفة، العناني يعرفه جيدا، انه التعبير الذي يتمدد على ملامح الجلادين لحظات الشنق، أو عند الاندماج التام في التعذيب، ومع ذلك تبدو أحياناً رقيقة، انسانية، خجولة، انها تحيره وتخيفه وتعجبه، يمضي الى الطنبولي لتوقيع تصريح التصوير، سأل عن امكانية اختصار الوقت، قال العناني ان الأمر ليس بيده، طلب الطنبولي الاقتصاد في عدد اللقطات لتوفير الأفلام والخام. قال العناني انها مسؤولية البيجرمي، أوشك على توقيع التصريح لكنه عاد يتأمله، استغرق إمضاؤه حوالي دقيقة ونصف، خطوط متشابكة، متداخلة، تتخللها أشكال غامضة، انه التوقيع المعتمد لصرف أي مليم من البنك. وبشهادة الخبراء فان تزويره من المستحيلات..

مؤتمر يعلن القبض على مجموعة من العجم..

تخف بهجة العناني التي بدأت مع بلوغه خبر اعتقال العجم، مع أن الخبر جاء بعد فترة مملة، لم يقبض خلالها على بريء، ولم يخرب بيت انسان، ولم تحدث جريمة قتل، حتى المشرحة لم تصلها جثث مجهولة، لم يشب حريق هائل، ولم تقع فضيحة، عكس ذلك ما جرى، اذ تزايد الحديث عن مشروعات جديدة في الخطط، وانشد المطربون مبشرين بمستقبل أفضل، ونشرت أخبار عن ظهور أول طائرة من مصانع الخطط، انه يصحب البيجرمي أقدم مصوري الدار، مصرح له بالعمل في دائرة أمن الخطط، طلب منه التقاط صور مقربة للعجم، ومن زوايا مختلفة، صور ليست للنشر، من يدري، ربما هرب أحدهم، ربما ساعدت أوضاع الوجه المختلفة في ايجاد مدخل أفضل للتعذيب، في الطريق إليهم فكر العناني، هل التقى بأحد منهم صدفة؟ اين يسكن كل منهم؟ هل انتزعوا من بين ذويهم؟ أم اعتقلوا أثناء مشيهم؟ سيحاول ان يعرف عناوينهم، ليرى اللهفة والقلق في عيون الزوجات أو الشقيقات أما قمة متعته فتلك التي تبدو في عيون الامهات، سيزيف خطابات من العجم الى ذويهم، ويدعي انه رسول خبر جاء سرا، من يدري، ربما أسعده الحظ بتسببه في خراب بيت أحدهم. عقد المؤتمر في مبنى عادي بزقاق متفرع

من الشارع، غير مسموح للصحفيين أو غيرهم بالذهاب الى المبنى الرئيسي للادارة المجهول موقعه، انها شقة عارية الجدران تماما، تمتلك الادارة شققا عديدة في أنحاء الخطط تستخدم لاغراض مختلفة، الأرض هنا غير متساوية، البلاط قديم، الجدران منتفخة بالرطوبة فوقها بقع حبر، وشخبطات، الضوء صفراوي شأن الأماكن التي تحاصر فيها حركة الخلق، وتطل اشواقهم الجائعة من العيون، وتتردد فيها أناتهم، يعرف العناني ان الادارة تجري بعض عمليات التعذيب الدقيقة في قلب المدن، في مباني ضخمة، ويخفى الصراخ بعزف الموسيقى، دخل أحد الجنود وقام بتوزيع ورق أبيض أمام كل محرر، قال أحد المندوبين مداعبا: هل توجد أجهزة تصوير خفية؟ قال البيجرمي: خل كلامنا خفيفا عليهم، دخل ضابط يرتدي ثيابا مدنية، جلد وجهه الحليق مشبع بالكولونيا، ليست المرة الأولى التي يرونه فيها، بعضهم حضر حفل زفافه، وكافح لنشر صورته في باب المجتمع، قال انه يرجو عدم نشر اسمه، وعدم تصويره، دخل خلفه رجلان وقفا صامتين، ايقن العناني انهما من ذوي المراكز الهامة في الادارة، وان الضابط الذي يتحدث اليهم في كل مؤتمر يعمل على هامش الادارة، وربما لا يعرف مقرها الرئيسي، بدأ الحديث، قال ان هذه المجموعة أشد بأسا، وشرح الخطوات التي تمت لتعقبهم، وهنا

سأل العناني وهو يعرف الاجابة مسبقا، انه نفس السؤال الذي يوجهه في كل مؤتمر: هل توفرت المعلومات لادارة أمن الخطط عنهم أولا بأول؟ قال الضابط :إن هذا تحقق منذ اللحظة الأولى، سأل مندوب الاذاعة محاولا ايجاد توازن لصالحه بعد استفسار العناني: وماذا عن التمويل؟ قال الضابط بسرعة: من الخارج طبعا! ثم قال انهم سيصورون المضبوطات، أما المعتقلين أنفسهم فستوزع عليهم صور التقطت بمعرفة الادارة، سأل العناني: هل هناك أسلحة؟ وهنا أشار أحد الرجلين الصامتين: لا داعي لهذا السؤال، ينظر العناني الى المضبوطات، صندوق مليء بالكتب: الأسس التاريخية، حضارة الخطط، الجريمة والعقاب، الزمن في العهد القديم، عنبر رقم ستة، بدأ توزيع الصور عليهم، بصق مندوب الاذاعة زاعقا: يا ملاعين، يا عملاء! أشار اليه أحد الصامتين مهدئا، يعرف العناني أحدهم، استاذ الفلسفة بجامعة الخطط الكبرى، قال البيجرمي:انه يتمنى لو ناقشهم، قال انه عليم بمبادىء العجم، درسها ليتقي شرها، لكن لم يرد أحد على البيجرمي، بعد انتهاء المؤتمر، تمنى العناني لو سمحوا له بحضور عمليات التعذيب كما يحضر عمليات الاعدام، الموت لا يستغرق الا دقائق، لكن الاحتضار البطيء ممتع، يود رؤية عريهم وما يتعرضون له من اذلال، كيف تفوته هذه العكّة؟

عناوين

العجم في المصيدة

استاذ من العجم يسب الدين

سقوط شبكة جديدة من عتاة العجم، أفرادها يدلون باعترافات مثيرة، أدلة تثبت اتصالهم بعواصم أجنبية، المضبوطات تضم وثائق هامة، وضع اليد على مخطط يستهدف إثارة القلاقل في الخطط

صورة في الصفحة الأولى للدكتور فهمي استاذ الفلسفة.

تعليق: زعيم المجموعة.. حاول نشر الأفكار المستوردة من خارج الخطط..

صورة لأربعة شبان..

تعليق: عجم.. ويرى الشرر في عيونهم..

فائدة

أعلم ان أول من صاغ عبارة «الأفكار المستوردة» هو الاستاذ نفسه، وعلى أثر ظهورها أبدت قيادات الخطط ارتياحا، ورددوها كثيراً، وأثنى رؤساء تحرير الصحف الأخرى عليه، وأكدوا صلاحيته وسهولة ترديده، واتصل بعضهم مهنئا الاستاذ على حسن عبارته، ودقة اختياره...

استاذ جعيدي.. لحظة من فضلك..

ماذا يريد منه البلشي؟ يقف في المدخل كالشؤم، يمد اليه مظروفا يحمل شعار الدار، دائرة زرقاء يتوسطها مصباح علاء الدين، ولكن بدون شعله، بعد تجاوز المدخل، فوق السلم فتح المظروف، لم يستطع صبراً..

«برجاء مقابلة الاستاذ التنوخي نائب رئيس التحرير للأهمية..»

ماذا جرى؟ هل نم عليه أحد؟ هل وشى به انسان؟. تضطرب امعاؤه، انه لا يذكر الاستاذ علنا الا بالخير، يتعمد الاشادة به أمام من ينقلون ويبلغون، يتلفت حوله، أخشى ما يخشاه ان تلمحه كاميليا السويفي، انه بحاجة الآن للحديث، الوتيدي بجوار النافذة العريضة، ربما استشف شيئا يخصه من خلال الحوار معه، يصيح الوتيدي

أهلا فارس الفرسان..

يا رجل حرام عليك.. لا فارس ولا غيره..

يلتفت الوتيدي فجأة الى الطريق. لماذا سكت فجأة؟ لماذا ولى بوجهه عنه، من المعروف ان كل إنسان عليه رقيب عتيد هنا.

.. هل قرأت مقال الأستاذ؟

.. ها.. قرأته وانت غارق في النوم..

.. تصور اني افتتح يومي، والله، قبل ان أبل ريقي، بقراءة الأستاذ، وبعد أن أعد الافطار للبنت وأصحبها الى المدرسة أعيد قراءته مرة أخرى وأنا في الترام.. المرة الأولى للمتعة.. والثانية لأتعلم واستفيد..

يتعمد الجحيدي الاشارة الى ابنته التي يدير شؤونها بعد أن هجرته أمها، ربما رقق ذلك قلوب الناس عليه، لكن الوتيدي لا يهتم، يستمر في النظر الى الخارج، لماذا؟ مع انه صافي القلب، هل بلغه ما يدعوه الى تجنبه، حذاؤه قذر، يجب الا يترك جوربه بدون غسيل، توشك رائحته ان تفوح، لو نما ذلك الى الاستاذ ستصير فضيحه، انه قادر على رصد الجورب المقطوع داخل الحذاء، في هذه اللحظة يتدفق احساس ساخر الى صدره، توشك ابتسامة تبدو على شفتيه، لكنه يحتاط، هنا ترصد الأفكار، والمشاعر، ينظر الى الساعة، في الثامنة والنصف ستظهر، تلوح، تبدو، انه يخشى رؤيتها بدون تمهيد كاف، ترى.. بأي فستان ستجيء، بمطلعها تتدثر روحه، ويغمس قلبه في الرضا والطمأنينة، بعد حذر علم أنها مطلقة، هي مطلقة وهو مهجور، الغريب ان زوجها كان ضابطا بالقسم الخاص بأمن الخطط والرجل الذي أغوى

امرأته يعمل جنديا في نفس القسم، الصدفة ترتب نقاط الالتقاء، وعندما تجيء الفرصة سيسكب رحيق قلبه، وسيجدها هفهافة تحتوي ما أصابه، عرف بدون أن يستفسر علنا ان الاستاذ لم يقربها، لكن ما يؤلمه، ما يجعل حول البلاء ثقيلة تبسطها مع الآخرين ما عداه هو، لهذا يعاتبها بصوت مرتفع عندما يخلو الى نفسه، بعد أن يأمن اختفاء كل رقيب، بعد ان يعد العشاء لثريا ابنته، بعد أن تنام، يخرج الى الصالة، تهدهده الرؤى، تشف المعاني وتفصح عن نفسها، يهمس طالبا منها أن تجيء، لكنها تجيبه بدلال: الا ترتوي أبدا، فيتساءل: وهل يرتوي القلب منك؟ تعاتبه: انت طماع، ثم يبدو الرجاء في صوته، كاميليا: عندما تدخلين خصيني بايماءة، يقول ان قلبه يتعثر عند رؤيتها، والعرق يغمره اذ يراها، وحبه لها يجعله ليس من بني الانسان، ترتجف الرؤى أمام عينيه، يهتز فنجان القهوة، يقف الوتيدي زاعقا:

« .. الاستاذ... »

امتداد حارة الحصار

ان الاستاذ يجيء في ميعاده، لا يتأخر ثانية، عند نزوله من السيارة يحبس كل من في الدار أنفاسه، حتى من لا يقع في دائرة رؤيته يقوم واقفا وكأنه سيمر به، يقف الوتيدي، يقف

الجعيدي ، يقف المحررون والسعاة ، ينبسط ظل غير مرئي في الأروقة وعند المنحنيات ، تخفت الأصوات ، كذلك ايقاع الخطى في الممرات ، حتى القابع في أنأى الحجرات يشعر بوجوده الخفي ، إنه هنا ، يتنفس ، يتصل ، يدير الشؤون ، الآن لا يشعر الجعيدي بأية رغبة في الحديث الى الوتيدي ، لكن .. لماذا يطلبه التنوخي؟ هل وصله ما يقوله لابنته في البيت؟ تسأله ثريا عن شغله ، فيقول ان التنوخي ضايقه ، عندئذ ترفع يديها الصغيرتين ، تدعو عليه ، هل تحدثت ثريا أمام زميلاتها؟ هل تحدث صاحبه مفتش الصحة؟ تجاوزت الساعة التاسعة ، يتجه الى مكتب التنوخي .. يقول الساعي :

الاستاذ التنوخي مشغول .. لكن لحظة واحدة ..

يعود ليقول أنه يطلب حضوره في العاشرة صباحا .

لكنه طلبني؟

يوشك الساعي ان يصيح :

عنده شغل مع المدام كاميليا .. هل أدخل لاقاطعها مرة ثانية؟

فائدة ، حول الاجتماعات وأنواعها ..

لافتة ..

« جميع المحررين مدعوون للاجتماع بالاستاذ ، التاسعة من صباح الغد .. »

اعلم ان ظهور مثل هذه اللافتة البيضاء الصغيرة يثير الانتباه ، ماذا سيناقش؟ تبدأ التخمينات ، تجري التأويلات ، لكن لا يصل أحد الى قرار القرار ، ويحاول العمال وموظفو الإدارة استقصاء المعلومات من المحررين ، من غير المسموح لهم حضور الاجتماعات ، من النادر أن يتخلف أحد عن الحضور ، حتى أولئك الذين لا يوقعون في دفاتر الحضور ، ومعظمهم من كبار الكتاب الذين يرسلون المقالات من بيوتهم ، يعد هذا أكبر الاجتماعات ، يقتصر في معظم الأحوال على حديث الاستاذ الذي يختلط فيه التاريخ بالحكاية بالرأي السياسي بالخبرة الصحفية بالنادرة الفكاهية. طوال حديثه لا تفارق وجهه ابتسامة ، حار الكثيرون في تفسيرها ، خصها التنوخي بالعديد من تقاريره الى ادارة أمن الخطط ، أكد أن ثمة معنى يختفي وراءها ، يكثر الاستاذ من ذكر الأمثال الشعبية ، يجيء كل قول في موضعه ، لا يحيد أو يميل ، أثناء حديثه يبدو وكأنه يخاطب كل انسان بشكل خاص مع انه يتحدث الى الجموع ، لنظراته زوايا عديدة ، واتجاهات مختلفة ، حتى ان شخصين مختلفين ، أحدهما في الركن الأيمن ، والثاني في الأيسر ، يخيل لكل منهما أن نظراته موجهة اليه بذاته ، تتلون عيناه ، وتتخذ زوايا عديدة ، أحيانا تبدو شرسة ، وقد تفيض رقة ، لكن في جميع الأحوال

لا قبل لانسان بالقدرة على تحملها، أو مبادلة التحديق بتحديق، يروى عن الطنبولي أن الاستاذ سدد البصر يوما الى محرر لم يعمر طويلا في الدار، كان شابا خجولا، بعد لحظات انتبه الى عيني الاستاذ، عندئذ لم يحتمل فبال على نفسه وسمع خرير البول فوق البلاط، للأستاذ نظرات لا يحتملها مخلوق، طلعته تبدو مهيبة في هذا الاجتماع، محببة، كما انه يبدو كفوءاً للادارة، قادراً على التأثير، مشعا، في هذا الاجتماع يمكن لأي محرر أن يراه، وأن يتحدث إليه مباشرة، يحاول البعض اختلاس ثواني أثناء خروجه للحديث اليه بقصد الايحاء ان ثمة أموراً خاصة تربطهم بالاستاذ، لكن عند دخوله لا يمكن لأحد الحديث اليه، مجيئه داهم، بلا مقدمات، خطواته تضرب الأرض حتى ليبدو انشط من ابن العشرين، السيجارة لا تفارق فمه، انه يدخن سجائر خاصة كتب عليها بحروف دقيقة «الأنباء»، تحتل السيجارة الجانب الأيمن من فمه، وعلى الرغم من التعبير الساخر الدائم على وجهه الا أن بعضهم لمح عليه ظلال همّ، تعقد اجتماعات أخرى: يوميٌّ يبدأ في التاسعة صباحا يضم محرري قسم الأخبار ويرأسه الدمياطي، وآخر يتم في التاسعة والنصف لمحرري القسم الرياضي، الوتيدي يتبع هذا القسم، يضم مندوبين في كافة الأندية، والتجمعات الشبابية، وله مراسلون

هواة منتشرون في النوادي الإقليمية، والتجمعات النائية، يوافونه أولا بأول بما يجري، من المعروف ان الاستاذ تربطه صلات وثيقة بالمهيمنين على النشاط الرياضي في الدنيا، كما انه عضو اللجنة الدولية لتنظيم الألعاب الأولمبية، وإليه يرجع الفضل في انشاء النشاط الكشفي في الخطط، وهو صاحب فكرة التركيز على كرة القدم دعائيا، القسم الرياضي يتبع الاستاذ نفسه، تعقد إجتماعاته برئاسة التنوخي، واذا تغيب يحل مكانه الطنبولي، وينتظر ذلك بلهفة لأنه يرغب من حين الى حين المشاركة في أعمال التحرير، الاجتماع الثالث يضم محرري الأقسام الفنية، ويختص بالفنانين، والسينما، والمسرح، واذاعة الخطط، وتليفزيون الخطط، يرأسه الهلالي، وهو عضو في لجان عديدة، مثل لجنة اقرار السيناريوهات، ولجنة اختيار ما يعرض من أفلام للسوق، ويقول الجميدي عنه سرا انه لا يجيد كتابة اسمه، وانه لم يفتح في حياته كتابا، وانه عمل مرددا في خلفية الاسطوانات المسجلة في الأربعينات، أي ان المطرب يغني، والفرقة تعزف، ويصيح هو من حين الى آخر: الله يا استاذ، يا سلام يا ست، وأثناء استماع الأستاذ لمطربي الخطط انتبه الى صوت المطيباتي، وابتسم، ثم بحث عنه، وألحقه بالأنباء، هناك اجتماعات أخرى ضيقة، تحاط بسرية، مثل اجتماعات القسم الخارجي، وقسم الاستماع

المجهز بأحدث الأجهزة التي ترصد الاذاعات كافة، والاشارات اللاسلكية، والموجات مجهولة المصدر والمنبعثة من أعماق الكون، ومنذ عامين سمح الاستاذ للعشري المحرر العلمي بالتردد على القسم والاصغاء الى هذه الأجهزة، هناك اجتماعات تتم عند وقوع حدث طارىء، واجتماعات الادارة، والمطابع، والاعلانات، لكن يظل هذا الاجتماع الكبير أهم حدث بالنسبة لسائر المحررين.

أول من توقف ليقرأ اللافتة كان الوتيدي، وعلى مقربة راح البلشي يرقب المحررين، والموظفين، وكل شخص توقف ليقرأ اللافتة، إنه يصغي جيداً الى كل تعليق...

عطفة المشهلاتي

هنا كافة المصابيح مضاءة، الوتيدي يتابع وصول المحررين، عندما لاحظ نقص المقاعد زعق مطالباً السعاة بمزيد من الحركة، يلتفت من حين الى آخر ويأمر برنق بالكف، زئير برنق يصل الى هنا، يتصل دقائق بدون سبب، الوتيدي قادر على هَتْ برنق، لا يصغي إلا إليه، ولو حاول انسان آخر اسكاته ربما ناله أذى. الوتيدي يشرف على إعداد الاجتماعات، ويمنع عمال البوفيه من التردد، ويتابع تغيير كوب الماء الذي يوضع أمام الاستاذ، اذا نقص يبادر الى تكملته

فورا، المحررون يسمونه «المشهلاتي»، عند قيامهم برحلة للترفيه ينظم ركوب المشتركين، يجلس بجوار السائق، يتابع بعينيه الجميع، ويسأل من وقت لآخر: هل يحتاج أحد الى شيء ما؟ ينبه الى الأماكن الخطرة التي يجب ألا يرتادها الأطفال، يرشد الأمهات الى أماكن صنابير المياه، الى موضع قضاء الحاجة، اذا تزوج أحد العاملين يقوم بترتيب كل شيء، يطبع بطاقات الدعوة، يحدد حجم الوجبات التي ستقدم الى المدعوين، يعدل الاصناف في اطار الامكانيات المتاحة، فيقترح الشاي بدلا من الكوكاكولا، أو اختصار عدد قطع الجاتوه، والاكثار من الكفتة، بدلا من قطع اللحم لأن الكفتة تعطي أكبر عدد من السندويتشات، في المآتم يتجه الى نفس متعهدي الفراشة، يتفق على عدد المقاعد واللمبات التي ستضيء السرادق، كما انه يتولى التفاهم مع الحانوتية، وحفاري القبور، ويتصدى لمحاولاتهم الحصول على أكبر قدر من النقود مستغلين اضطراب أهل الميت وكربهم، وعادة يبدأ المساومة قائلاً: «من الأحسن أن نقطع العرق ونسيح دمه» تضم مفكرته عناوين مقرئين، وراقصات، ومطربين، وندابات، وعدد من الترزية، والنجارين، ومتاجر الزجاج، وأعمال البياض، والنقش، وورش لاصلاح السيارات، وهو الذي تعاقد مع أحد تجار الزهور لتوريد باقة يومية من أندر

الأنواع الى الاستاذ، وتتولى رونق تنسيقها، ويشنع الجعيدي قائلا، ان هذا ميراث النادي الذي تعود فيه خدمة الأعضاء، ويؤكد ان الوتيدي أعد كل شيء للآخرين ولنفسه، حتى الطريق الذي سيسلكه الى العالم الآخر، وانه كتب كل ما يجب اتباعه بعد وفاته كنوعية الكفن وعدد طبقاته، والمسجد الذي سيصلى على جثمانه فيه، واسم الحانوتي الذي سيتولى تجهيزه، ويبدو ان الطنبولي سمع بذلك، فاستدعى الوتيدي، وسأله عن الخطوات المتبعة لتوصيل الميت الى الرقدة الأخيرة وبعد أن أصغى طلب من الوتيدي أن يستقصي له عن تكاليف بناء مقبرة متوسطة، ثم استدعاه مرة ثانية وأكد رغبته، فقال الوتيدي انه يعرف مقاولاً تخصص في بناء المقابر وينتظر عودته من سفر..

ساحة صغيرة..

يزعق الوتيدي
« الاستاذ.. »

تحتك أقدام بالأرض، ويسري حفيف، ثم ينزل صمت مع ظهوره، يميـل كتفه الأيمن، يحمل مظروفاً وكراسة خضراء،

عند جلوسه تظل قامته أطول من أي انسان في القاعة، يبتلع الجعيدي لعابه، هل خصه الاستاذ بنظرة، تتنازعه الرهبة من

مواجهته، والتأثر لوجوده في مكان واحد مع كاميليا، أومأت للتنوخي عند دخولها، التنوخي ابن فراش المدرسة، الذي جاء الى الدار حافي القدمين، لو علم انه حاول مغازلتها سينسخ مئات النسخ من عدد الأنباء الذي نشر فضيحته يوم ان زور الشهادة، التنوخي الحقير، السافل، الجاهل، الكلب، يحرص الجعيدي الا تتغير ملامحه أثناء ترديده السباب، ان كاميليا تعترف بينها وبين نفسها ان اثيل أجمل المحررات قواما، ترى هل خلت الى الاستاذ؟ رونق تدخل اليه البنات بنفسها، وتختارهن له، لم يتصل بها الأستاذ حتى الآن، يحرص التنوخي ان يبدو عالما بما سيقوله الأستاذ، يشب البعض على اطراف أصابعهم حرصا على مجال رؤية أفضل، يعقد الاستاذ يديه أمام صدره.

« هدى الحلاوي اختفت.. »

غير الهلالي وقفته متخذا وضع من يعلم بمدى ما سيلقى عليه من أعباء، العناني يدون الاسم، يهز البيجرمي رأسه، تسيطر على التنوخي حالة تأثر بعد سماعه اختفاء هدى، تمصمص كاميليا شفتيها لتلفت نظر الاستاذ:

« قد يبدو هذا خبرا عاديا بالنسبة للصحف الأخرى، لكن عندنا يختلف الأمر، تلك قاعدة اتبعوها من بعدي، ما يراه الآخرون تافها، نراه نحن مهماً، ما يسخر منه الكل:

نأخذه بجدية، وما يرونه الصحيح، نعتبره نحن عين الخطأ.. اختفاء هدى سيصبح حديث الخطط كلها، سننطلق بحثا عنها، الخطة سيرسمها التنوخي، اطيعوه فمن أطاعه أطاعني.. ومن تبعه تبعني...»

ردد الجعيدي بينه وبين نفسه «ستخرب الخطط باذن الله»، أضفى جدية على وجهه..

«القارىء مقبل علينا، يجب الا ندبر عنه، وعندنا أيضاً ما يمكن أن تباهوا به غيركم، تعرفون انه لم يقبض على أعجمي واحد من الدار، كافة الصحف الأخرى قدمت سجناء..» يرتفع صوت العناني..

«العجم يأكلون. ضربا مبرحا في المعتقل المركزي للخطط..»

ينظر اليه الأستاذ بقسوة..

«من أين لك الخبر؟».

يشمت الجعيدي، يدهش الوتيدي، يسخر التنوخي، يجيل الاستاذ البصر..

«هنا يجب ان تنظروا الى الأمور كما نراها، وليس كما يراها غيرنا، وليس كما تبدو عليه في الواقع، صونوا ألسنتكم من زلة كهذه، لن نردد ما يشاع عن تعذيب العجم، انما سنقدم

الدليل على حسن معاملتهم، سيقول العالم كله انهم معتقلون، سنؤكد انهم مساجين، انهم مساجين، حتى يصدقنا أهالي الخطط، وحتى يصدقنا العالم، يقول المثل «الوَنْ على الودان يفلق الحجر»، وأقول انه ما من شيء يبدو كما هو في هذه الدنيا، وعلينا أن نخرجه الى الوجود كما يبدو لنا، أبعد الأمور عن العقل يمكن بالجهد ان يصدقها أعقل العقلاء، كرروا العبارات المختصرة، المركزة، سيجيء وقت يردد فيه خصومكم ما صنعتموه انتم. انتبهوا الى قيمة أداتنا، الكلمة، يعرف العناني، ان إدارة أمن الخطط تشترط اصدار تصريحات خاصة في مجالين فقط، السلاح النّاري، والمطبعة، رجال الأمن ادركوا ذلك منذ زمن، الكلمة تساوي الطلقة، وانتم أجدر باستيعاب ذلك، المهم أن نعي ذواتنا، فلنا نظرتنا الخاصة وأسلوبنا الخاص، لو استيقظتم غدا ووجدتم الخطط يسودها العجم، أقول: كونوا أعاجم، بالظاهر، وليس بالباطن، باللسان وليس بالقلب، اذا ساد جانب مقابل، امضوا معه، المهم ان نظل نحن، انني أدخركم لأمور كبرى، كونوا أكفاء لها، حتى وإن لم تطلعوا عليها الآن.

تبدو ابتسامة على وجه العناني، يعرف ردود أفعال بعض من في القاعة تجاهه عندما كشر الاستاذ في وجهه، لكنهم أغبياء، بمن فيهم التنوخي، لن يعرفوا أبداً انه حوار متفق

عليه، انه واحد من صفوة تدرك ما يريده الاستاذ، يقف الوتيدي وراء الاستاذ، انه أضخم الحاضرين، يفرد صدره، تفوق قوته كل تصور، حتى الآن لم يقع حادث يستلزم اظهارها، لم تهاجم الأنباء بمتظاهرين، ولم تحتج مجموعة من العمال، ولم يوجه الاستاذ ضد شخص معين، ان الوتيدي يحلق بعينيه فوق الجميع، من السهل عليه الآن اكساب وجهه تعبيراً لا يتفق مع حقيقة ما يفكر فيه، يعرف ان كل انسان هنا يرصد رفة رمش الآخر، الاستاذ ينظر الى كل الحاضرين ما عداه، انه يقف خلفه، يجيء الى هذه الاجتماعات هادىء البال، لا يقلقه ما سيقال، ما يعنيه ألا تصدر قرارات بفصل بعض العاملين، يكره ان يضار انسان في أكل عيشه، لم يحدث منذ التحاقه بالأنباء إن وجه اليه سؤال أو حاول أحدهم استطلاع رأيه، انه مطمئن الى عدم توبيخه بسبب نقص انتاجه، هو أكثر العاملين تواجدا في الدار، الدمياطي يشعل سيجارا، لم يدفع مليما من ثمنه، أحضرته له نجلاء، أبوها مدير مصنع من المصانع الجديدة، يسافر الى الخارج، ربطة عنقه هدية من أثيل، ماذا يقول الاستاذ؟؟

«.. نعم، ستبنى المشروعات الجديدة، والخزان الكبير، لكن لا تنسوا ان ما نقيم له الصرح اليوم ربما خسفنا به الأرض غدا..».

يردد التنوخي: «قل رأيك الحقيقي، ترى ماذا تبطن يا استاذ، في كلامك رائحة ضد انجازات العهد الجمهوري..».

يقول الاستاذ:

«كل شيء يتبدل، دوام الحال من المحال..».

انه يقف فجأة، يعلو صوت البيجرمي:

«عندي ملاحظة..».

يقول العناني مداعبا:

«سيقول رأيه في احال..».

ان مرحا خفيا يسود، ثمة احساس بدنو الاجتماع من نهايته، يسأل الاستاذ..

«هل صحيح انك اصلحت القطار الذي سافرت فيه الى أسوان؟؟».

«فعلا.. أنا خدمت زمنا في القطارات..».

تضج القاعة بالضحك، ما من مهنة الا ويتقنها البيجرمي، تلتقي عينا الاستاذ بعيني الجميدي:

«اسمع.. مر على مكتبي.. لكن ليس الآن..».

لافتات معلقة في الشارع

اختفاء هدى الحلاوي. قصة هدى الحلاوي. ولدت باحدى الحواري القديمة كانت أمها تبيع الجاز، في الثالثة عشر

فارت انوثتها، تقدم كثيرون للزواج منها، لم يدفعها الفقر الى الاستسلام. أصرت على صعود السفح. وعت ان الفقير يمكن أن يصير غنيا . والمجهول بأستطاعته أن يصير مشهورا.. بدأت مع احدى العوالم، لمعت في الأفراح. عرفت طريقها الى الاذاعة، الى السينما، انه الحظ، انها الصدفة. آخر زيجاتها من الدكتور القاونجي. هل كانت تعاني في صمت برغم صورها الضاحكة؟ المصورون يشيدون بزوايا وجهها. المنتجون يقولون انها لم تهتم يوما بالمال. كانت حريصة على مواعيد البروفات. كانت محسنة. تقدم المساعدات خفية الى الاسر الفقيرة. ضباط أمن الخطط يؤكدون اهتمامهم، هل سافرت؟ الجوازات تقول لا. حيوا يقظة رجال الجوازات هل وقع لها حادث؟ المستشفيات تقول لا. كلبها بدأ يضمر، هل يموت الكلب اذا مات صاحبه بعيدا عنه؟ ما رأي العلم؟، أول انتحار بسبب هدى. طالب بجامعة الخطط يلقي بنفسه من الطابق العاشر. جائزة مالية ضخمة الى كل من يعثر على هدى الحلاوي.

متسع عند نهاية الشارع

هنا يتسع شارع الاجتماعات اتساعا طفيفا، قرب نهايته تقع نقطة تفتيش شخصيات الخطط، ان شكوكا عديدة تساور

رجال الادارة حول بعض الشخصيات المتواجدة، تفكر ادارة أمن الخطط في إقصائها حتى ولو أدى ذلك الى زلزلة الأحداث الرئيسية بالخطط، المهم الا يترك أعجمي واحد طليقا، لقد وصل اليهم خطاب من مجهول يشير الى الوتيدي ويصفه بأنه يحوي بذورا أعجمية، فجهامته تخفي رقة، وقوته الماثلة تخفي قلبا ضعيفا غير جسور على المكاره، وبعد جهود في التقصي والبحث، أثبتت التقارير ان الوتيدي أبعد شخصيات الخطط عن العجم، وانه يقع تحت سيطرة الاستاذ التامة، والاستاذ معروف بعدائه التاريخي للعجم، ان الريب تحيط بالجميدي، وذلك لشدة حركته، وكثرة تنقله بين انحاء الخطط، وقدرته الساخرة التي لا مثيل لها، والأخطر من ذلك كثرة اطلاعه ومعرفته العميقة بالأدب القديم، وقد نقلت هذه الريب الى الأستاذ ولم يعلق، ثمة صلات قوية تربطه بادارة أمن الخطط، انه عدو للعجم، وهم الجهاز الأمني المسئول عن تطهير الخطط، ان العجم يمكن أن يشكلوا عقبة خطيرة بالنسبة لما يضمره ويبطنه، من هنا فان الادارة تخدم نواياه بدون أن يدري انسان فيها، عند نهاية الشارع استعد ضابطان لإلقاء بعض الأسئلة على عدد من شخصيات الخطط، لكن حدثاً مفاجئاً وقع شغلهم وأثار دهشتهم، كان محوره ونق، ونظرا للمكانة التي تحتلها بالنسبة للشخصيات الهامة

والرئيسية في الخطط، فقد تقرر اجراء تحريات عاجلة، ولم يكن هناك بد من استجواب الشخصيات عند نقطة التفتيش، أوقف الضابط المسئول، الامبابي، بدأ وجهه مثقلا بالصمت.

« ماذا تعرف عن رونق؟ ».

« وما لي أنا وما لرونق، أنا عامل تليفونات لا حول له ولا قوة، اسألوا البلشي انه يرى الداخل والخارج.. ».

استدعي البلشي، ظن ان ثمة فرصة ستلوح، انه يقلد أصوات أشهر المطربين في الخطط، يردد الاغنيات في بيته، سجل تصفيقاً متواصلاً من حفلة ساهرة، ثم بدأ الغناء بصوته أثر التصفيق، لم يبح بسرّه إلاّ للهلالي، ربما ساعده في الوسط الفني... باغته الضابط..

« ماذا تعرف عن رونق؟ ».

قال بهدوء، وأدب، وانحناء..

« ما لي أنا وما لرونق؟ أنا أشبه بواب عمارة، مكاني في الطريق، اسألوا التنوخي، فهو صاحب الدالة الكبرى على الاستاذ.. ».

أحس التنوخي ان ثمة شيئاً جرى، ان سؤال الضابط ليس مقصودا به الاختبار التقليدي الذي يجري للكشف عن الشخصيات التي تأثرت بالعجم، مط شفتيه بدون اهتمام.

« ما لي أنا وما لرونق؟ انها من أهالي الطابق السابع، لا تخالط المحررين، اسألوا الطنبولي فهو صاحب الملفات.. ».

وجف قلب الطنبولي، ظن ان ثمة خطأ، او وشاية خبيثة، أو نية لاقصائه عن الخطط، هل يبعد قبل أن يلحق الضرر بعدد كافٍ من الناس.

«ماذا تعرف عن رونق؟ ».

« ما لي أنا وما لرونق، ان مرتبها تقبضه من الاستاذ، لا أوراق لها عندي، وتنافسني في الصرف من خزانة لا علاقة لها بحسابات الدار، اسألوا الاستاذ نفسه فهو صاحب الكلمة الكبرى، وهو الذي أسلم لرونق زمام ما لا يجب ان يسلم اذا كنتم لا تعلمون.. ».

ارتبك الضابط، ان التعليمات الخاصة تقضي بعدم استجواب الاستاذ، او التعرض له عند نهايات الشوارع، في مثل هذه الأحوال عليه الرجوع هاتفيا الى المقر المركزي، طلب منه أن ينفض يديه، وان يعتبر ان مهمته قد انتهت، اتصل أحدهم بالاستاذ، وأفضى اليه بما جرى، لقد ضبطت رونق في منزل يدار للدعارة، وافرج عنها لصلتها به، الموضوع انتهى بالنسبة لها، ولكنهم يخبرونه فقط، انهى الاستاذ المكالمة، وداخله فرح عظيم، لكن شغله أمر..

فائدة، فيها ما تيسر عن حكاية رونق..

أعلم انه لم يتح بعد معرفة كل شيء عن رونق، واذا لاح لاحدى شخصيات الخطط ثانوية أو رئيسية أنها تعرفها معرفة الكل او الجزء، ثق ان ذلك وهم، حتى الاستاذ، أدرك بعد علمه بالواقعة انه ما من انسان يمكن ان يحيط علما بانسان آخر، وبين أقرب الناس تظل مناطق مجهولة، مستعصية على الاستكشاف، أعلم انه ضاق بقدر ما فرح، ضاق لأن ثمة بديهيات تروح منه، وفرح لأنه لم يتصورها أبدا على هذا القدر من الصلاحية لما أضمره، ولما يقوم به أما ما شغله فهو خوفه من انتقال مرض منها، خاصة وانها الوحيدة التي يأتيها بانتظام، أعلم ان رونق لم يهدأ حالها، ما لم يتضح حتى الآن، ان من خصائصها الغريبة، وأمورها العجيبة، انه ما من شيء يطق في دماغها، الا وتقدم على تنفيذه فورا، وظهورها في الخطط ما هو الا نتيجة لنزوة، ما طرأ لها وما حققته يطول شرحه، من ذلك ماتراءى لها في لحظة خاصة انها ترغب في ان تصير بغيا، ان تمارس ذلك سرا، وأن تتعامل مع من يرهبونها، ومن يرغبونها، ومن لا يجرأون على التصريح، عرفت طريقها الى امرأة عجوز جاءت الى الخطط في زمن قديم من احدى دول أمريكا الجنوبية، اتقنت اللغة، ويبدو

انها عاشت حياة طويلة، مستقرة، عائلية، فيها زيارات، واحتفالات باعياد الميلاد، والزواج، والانجاب هذا ما تنبىء به صالة بيتها المزدحمة بصور لرجال وشبان وفتيات، أحدهم تتكرر صورته مرات، غزير الشعر، ويرتدي زيا عسكريا أجنبيا، ويضع عدة أوسمة ونياشين أثار وجهه انتباه رونق، وايقنت انه الجنرال الذي تتحدث عنه العجوز، والذي أحبها عندما كان برتبة ملازم، لكنها رفضته، ثم صار بطلا هناك، يدرس تاريخه في المدارس، فوق الجدار أيضا اعلام لدول عديدة، تقول العجوز انها زارتها، ولوحات مستوحاة من مصارعة الثيران، تجلس المرأة فوق مقعد عريض يمت الى طراز العصر الوسيط من الخطط، تنام أيضا فوقه، وتأكل فوق منضدة صغيرة ذات عجلات تدفعها خادمة صغيرة بكماء، قدمت رونق نفسها على انها زوجة لرجل على جانب كبير من الثراء، الا يبدو ذلك عليها؟ لكنه حرم من أعز ما يملكه رجل، ماذا تفعل؟ انها تريد ان تهدىء حالها في السر، ثم.. ثم انها تبحث عمن يناسبها وهذا لم تجده حتى الآن، فرحت العجوز بها فرحا عظيما، وطلبت منها أن تناديها.. ماما، وان تخاطبها.. يا ابنتي، عظم فرحها بعد أن قالت رونق انها لا تطمع في أي مبلغ مما سيدفع من أجلها، خصصت لها العجوز غرفة نومها التي لم تدخلها منذ أن قتل الربان زوجها، تدخل

رونق ثم تنتظر، تتطلع الى السرير الخشبي الضخم ذو القوائم المرتفعة، كل منها تنتهي برأس أسد خشبية اتقن صنعها، كان يحلو لها تأمل الانطباع الأول على وجوه الزبائن الذين عملت العجوز على اختيارهم، جمالها وعطرها وهدوءها مفاجيء، اصغت الى عبارات اعجاب، وحب، ونهنهات، وعرض عليها الزواج مرات، وبدت لكل منهم في صورة مختلفة، مرة على انها أحبت ابن عمها، ثم ضحك عليها وفارقها بعد أن حملت منه، وخافت أهلها، ومرة على أنها زوجة تاجر كبير يسافر كثيراً، ومرة على أنها زوجة عربي ثري له أحفاد، رأت ما لم تره داخل الحجرة القديمة، وبين عبق الأثاث القديم، رياضي يحلو له التجرد من ثيابه كاملة، ثم الوقوف أمامها، وثني ذراعه لابراز عضلاته، واستعراض صدره، وخصره، رجل طلب منها أن تتمنى أي شيء لأنها رقيقة، وحلوة، ومكنته من وضع لا توافق عليه امرأته، شاب يقبل يدها، وعجوز لا يفعل شيئا الا الجلوس بملابسه الكاملة ومس وجنتها بين الحين والآخر، يختلفون في البداية، لكنهم يتشابهون جميعا عند النهاية، الهمود، والسكون لفترة قد تقصر أو تطول، بعد ستة شهور من التردد على العجوز اعتقدت انها أكثر نساء الخطط مضاجعة للرجال، غير ان ذلك لم يستمر، اذ هوجم البيت، وضبطت عاريــة مع شاب لا يتجاوز العشرين كان

جوها أن تقعده فوق ركبتيها وتهدهده، وعندما طلب منها لضابط ابراز بطاقتها كانت مسرورة لأنها خدعت عددا كبيرا من شخصيات الخطط، ولم تفكر في العواقب...، أعلم ن هذا ما أمكن جمعه من حكاية رونق، وهنا ينتهي شارع الاجتماعات، ليبدأ ما يليه..

* * *

السور الثالث

.. في أوله استيقظت امرأة بدينة، زوجها، عسكري، بدت مرجوفة، مفزوعة.. تلفتت حولها قالت، اللهم اجعله خيرا..

واشتد الحر في غير أوانه..

وقدم التنوخي الى الادارة تقريرا يؤكد فيه تعمد الاستاذ اشغال الأهالي عن المشروعات الجديدة للعهد الجمهوري، وما أثير حول اختفاء هدى المحلاوي ليس الا بداية..

وكتب قنديل الأزهر مقالا حول رأي الفنانة المختفية في العجم، وكراهيتها لمختلف فرقهم، ولأفلامهم، وقصص كتابهم، لكن الاستاذ رفض نشره، وطلب الجدية في التصدي للعجم، الخصم وعر، ولم يمانع في نشر المقال بأية مجلة فنية أخرى..

وعلق الدخان بأماكن متفرقة من السماء..

واستمر الحال على ما هو عليه بخصوص الهجوم الذي تشنه الأنباء على العجم، ذكرت هروب بمائة ألف انسان من الجبال

تحت ضغط العجم، أما قاضي مدينة رانجون فأصدر قرارا بطرد ثلاثة صحفيين، وفي الكويت سجن أربعة لمجرد الشبهة، وفي جنوب أفريقيا طلبت امرأة الطلاق لأن زوجها يعتنق أفكارهم، نشرت مقالات توضح للقراء الطيبين أساليب العجم، وادعاءاتهم، انهم يريدون سيادة إلقيم الجميلة، وخلق عالم جديد، وانصاف الفقير من الغني، وكيف أن مبادئهم غريبة عن التربة الطيبة للخطط، والخصال الحميدة للناس فيها..

وأعلن عن استيراد عشرة آلاف خروف من اليونان، وسقطت أمطار غزيرة في تركيا، وعرض فيلم المليونير، وحدثت أعجوبة اذ ولد كتكوت بأربعة ارجل فتشاءم بعض الناس، ونزل رجل من تاكسي، التقط أنفاسه، تطلع الى أرجاء السور الثالث، قال.. أيام زمان أحسن!!

وقرأ العناني صفحة الوفيات، خط دوائر بقلمه الأحمر، نقل عناوين العزاء، كتب صيغة برقية لإرسالها إلى ثلاث عائلات، «نهنئكم بوفاة المرحوم».. ضحك، ضحك، تخيل ردود أفعال أسر المتوفين، انتشى، لو نما ذلك الى الأستاذ لكافأه..

وفوجىء الاستاذ بخاصية غريبة في الكولي رئيس قسم اعادة الصياغة، انه يهوى تكبد المشاق في سبيل أشياء ميسورة

تماما، تحت بيته بقال كبير لكنه يقود سيارته ليشتري الجبن الأبيض من بقال صغير في منطقة نائية، بالقرب منه خضري يمد المنطقة كلها، لكنه يذهب الى خضري يبعد عنه حوالي عشرين كيلو مترا، لا يتعامل مع تجار بعينهم، بل يختار الأبعد، حار الاستاذ، هل تخفي الخاصية أمراً غامضا، بعد زمن تبين ان الكولي من المخلصين المتمكنين، يمكنه صياغة أي خبر بالشكل المرغوب، أو قلبه، أو تعديله، الى جانب قدرته على تأليف الأخبار ونسبتها الى مصادر تبدو كأنها حقيقة، انه من أشد اعداء العجم، يعاديهم لأن رزقه مرتبط بالاستاذ، والأنباء، ضحك عندما تذكر الحاج الكولي للسفر الى اليونان.. ربما يشتري زيتوناً أسود..

وفيه قام رجل يرتدي حذاء بنيا، ترك فوق المنضدة كوباً به بقايا براندي، وطبق به قطعة جبن رومي صغيرة، وثلاث ورقات صغيرة، مكورة، متجعدة..

وقبل طفل صغير ضريح ولي..

واستيقظ الهلالي، أدار مؤشر الراديو، انتفض مفزوعا، علا صوت المذيع يقرأ تعليق الاذاعة البريطانية، انه حريص على عدم سماع اي اذاعة أجنبية، لا يقرأ في الصفحة الأولى الا افتتاحية الاستاذ، ليهتدي بها، وليردد معانيه، لا تعنيه الا أخبار الفنانين، واذا سمع عن اعتقال شخص، أو غضب

الاستاذ على شخص مخالف في الرأي، يقول لنفسه.. أحده.. من ينبش رأسي لن يجد أي شيء...

وفيه اقترب أبو سنة الساعي الخاص لمدير الأوبرا من المدخل، عندما لمحه مرزوق البلشي تشاءم من طلعته، انه قصير القامة، مستطيل الرأس، لا ينقطع الإفراز من عينيه، قال البلشي بجفاء.. ماذا تريد؟ قال زكريا في صوت سريع يأكل مخارج الألفاظ، هذه رسالة للأستاذ الهلالي.. قال البلشي.. هاتها..

وفيه توقف نحيل طويل، يرتدي طربوشا، يمسك عصا قصيرة، حملق في أرض خلاء، فوق جانب منها أعمدة خشبية وإطارات نوافذ قديمة ومقابض أبواب وألواح رخام، فوق جانب آخر درجات سلم منتزعة، لم يتبق شيء، دمعت عيناه، لم يبك عيشاً ولّى، أو نوافذ أطل منها يوماً، أو درجات حبا فوقها، إنما بكى زمنا لن يعود..

وصفر قطار الضواحي، فعكم الأسى امرأة لم يطرق النوم جفونها بعد، وتذكرت الغائب، النائي...

وتعاهد فتى وفتاة على الوفاء في حديقة عامة..

وتزايد دخول رجال لهم ملامح الأعداء الى الخطط، ولم يلحظ ذلك انسان..

وأعلن ان الدرس الأول في المدارس الابتدائية سيلقى عن الأراضي الشمالية المغتصبة، وأن الأطفال سيرددون قسما مضمونه انهم سيحررونها يوما من الأعداء..

وتذكرت بخيتة أم خالد واسماعيل قريتها في جنوب الخطط أثناء غسيلها الثياب، في جلستها وحيدة أمام الطشت، وبجوارها موقد الغاز فوقه صفيحة المياه المغلي وصابون الغسيل تغمض عينيها، تتذكر الطرق المؤدية الى البيت، والجسر، ورائحة شجر التين، وسريان السحالي، وحديث النساء الليلي، ورائحة جلود القرب فوق ظهور السقائين، وقواديس الساقية، وكثافة الذرة، وماكينة الطحين، وعفريت يدمي الناس بثار الدوم، وأمها التي سعت بين الأسواق تبيع الغلال، وجلوسها خلف الباب لتسنده في ليلة اشتدت فيها الرياح، يترقرق أسى في عينيها على ثروة الصبا المبددة.

.. وفيه طوى خالد الكتاب المدرسي، بداخله رواية اللغز الغامض، بطلها لوبين، لن يضايقه والده الا اذا لمح الغلاف الملون، خالد يفكر في والده، لو عنده القدرة ليأتي اليه بنقود تدفع عنه التعب والتياع النظرة عندما يطلع النهار وجيبه خاوٍ، أثناء مشيه ينظر الى الأرض، من يدري، ربما عثر فجأة على مائة جنيه، مائة جنيه ملفوفة، مضمومة، مصانة، سيضعها في جيبه، لن يصرف منها مليما، سيضعها أمام والده،

ثم ينصرف صامتا، يفك أبوه ديونه، يعود بالخضار واللحم، وتعلو في البيت طشطشة التقلية، يضحك، تضحك أمه، تتكرر هذه الأوقات الشحيحة، عندما يسهر أبوه الى أمه، يتحدثان، وينزل على البيت أمان، فتقود الغد مضمونة، يفكر خالد في عجوز ضريرة تبيع البسكويت والنبق أمام المدرسة، يفكر في وجوه غيّر من ملامحها العوز، وخطوات مرتبكة لأن الرزق ضنين، وحيرة امرأة تنظر الى الطماطم والكوسى ثم تحصي ما في منديلها من قروش، وتجري المقارنة، بعد سنوات سيرضي الفقراء، سيبدأ بالغلابة في الحارة، سيسرق من كل الأغنياء، يهب كل ما يحصل عليه للمعوزين، قد يجرح يوما أثناء مطاردة، لن يندم في لحظاته الأخيرة، سيذكره كثيرون، يقولون انه جاءنا باللقمة و«الهدمة» وأدخل الأولاد المدارس، يتوقف خالد، انه يبكي حزنا على نفسه، لأنه سيموت جريحا، ولا أحد بجواره، سيخاف رجال الأمن الاقتراب منه مع أن الروح فارقت جسده، أما سعاد فستقرأ خبر مصرعه، ستشمئز في البداية، لكنها عندما تعرف ما قام به من أجل الآخرين ستندم، ستسأل كيف ضيعته، لن تدرك انها أينعت في قلبه يوما، وعندما كان يراها تأخذه السعادة حتى ليرحل قلبه الى أعماق الكون، ويملؤه حماس لأمور مجهولة عليه انجازها، وبهجة غامضة، ويلوح طريق لا آخر له..

.. وفيه مضى والد خالد الى ولي صالح، طلب منه أن يعد لابنه الأكبر حجابا يقيه الشرور والغواية، لقد رأى معه كتابا ملون الغلاف، رواية تعلم الاجرام والفساد، ما يتمناه أن يتم الولد تعليمه حتى يلتحق بوظيفة يساعد نفسه بها، حتى لا يرى المر والهوان، الذي رآه هو في حياته، ان اسماعيل الصغير لا يرفع عينيه عن كتب المدرسة، لكن غرام ابنه بالروايات يقلقه.

وفيه توقفت عربة المدرسة، نزلت ايثار في هدوء، رزينة، مقتصدة الحركات، لا تثب كبقية التلميذات، يحلو للسائق متابعتها في المرآة العاكسة، يتمنى أن يرزق بابنة تشبهها، انها تفكر في مجدي، لا يبادلها الحديث الا نادرا انه أذكى الطلبة، المدرسون يؤثرونه على غيره، يترفع عن الفتيات، يتشاغل بقراءاته، يرقبهن من وراء نظارته ذات الاطار المعدني، عندما تصغي الى حديث عنه، تزداد صمتا، والده صديق والدها، وفي الكنيسة يتقابلان فيتصافحان بحرارة، انها ترى مجدي مشهورا، يقف وسط أضواء باهرة، انها تقف الى جانبه، وثمة مذيع يقول.. هذه هي المرأة التي شاركت العالم العبقري حياته..

.. وفيه صاح مكبر صوت معلناً أن الحاج القماش يحيي أهالي الخطط الكرام، ويزف إليهم البشرى..

.. وتطلع رجل يرتدي جلباباً الى مطعم، انه في حاجة الى ثلاثة قروش ليدخل، ثم يجلس الى منضدة، ويعدل من وضع الملاحة، ويطلب..

ورسا مركب محمل بقلل، قفز رحاب الى البر، البيوت عالية، والكوبري ضخم، والنساء حاسرات، عابرات، شهر قضاه مبحرا منذ أن أقلع من جنوب الخطط لن يتوغل الى الشوارع، سيرقب أطراف الضجيج، وفي الليل ينام في القاع، حتى تنقضي الأيام، وتستدير المقدمة وتنتفخ القلوع..

وأطلقت أعيرة نارية في المساء، قال بعضهم انها فرق مطاردة الكلاب الضالة في الخطط، وقال آخرون انه ابتهاج بعرس، وخمّن بعضهم، ربما أصيب انسان..

وعلا صراخ في الليل، ثم انقطع، فكأنه لم يكن..

وفيه أخفت أم خيريه تفتق جرح كاو في نفسها، وأظهرت السرور، سيصبح مكان ابنتها خاويا، سيختفي صوتها من البيت وتروح رائحتها، عندما طلبها التركي الأزهري الذي جاءت به منيرة الخاطبة كتمت ضيقا ولكنها لم تمانع، الجدع من رجال الدين، سيأخذها بما عليها من ثياب فقط، لن يكلفها مليما، أخيرا ستطمئن على ابنتها التي تجاوزت الرابعة والعشرين ولم تتزوج مع انها أفضل من مثيلاتها اللواتي تزوجن

وأنجبن، لكن الدنيا حظوظ، والانسان لا يأخذ أكثر من نصيبه، ونصيب خيرية ان تعيش في تركيا، بلاد بعيدة، لسان أهلها غريب، وخيرية ستكون غريبة، والغريب أعمى لو كان بصيراً، الغريب لا بد أن يكون أديبا، يلاغي هذا وينجو من ذاك، ستلد بعيدا عنها، ولن تقف الى جوارها ساعة المخاض، سيجيء أحفادها غرباء، الوجع مر، لكن العريس لقطة، البنت تكبر والحظ يفوتها يوما بعد يوم، استر يا ساتر، نترضت من فلانة وعلانة، اشترت قمصانا داخلية وروباً بيت وحذائين، لا بد أن تبدو مستورة في عيني أهله، لم نبق الا يومين وترحل خيرية. يومان، ما أكثر الأحزان بها، ما أثقلها، لكنها لن تبدي دمعة، هل من المعقول ان ذكر أمها دامعة.. يا عالم، متى يلتقي الحي بالحي؟

وفيه مرت عطيات الممرضة أمام المقهى، انها مرتوية، إنة، وقرر محمد أفندي الموظف بشركة الدخان حسم مور، وأن يمضي الليلة الى أمها، البنت عينها منه..

وفيه قام المعلم الياس من المقهى مصحوباً بالمعلم كرشو، هدي أفندي، لن يتأخروا كثيراً عن المهندس اللاوي، نترى المعلم الياس فخذ ضأن اشترى كرشو صينية حلويات، نترى زهدي عشر علب معسل ماركة المدفع، استقبلهم لاوي، انه جلد على عظم، يرتدي روباً قديماً تحته قميص

وبنطلون، بيته فسيح، من بيوت الخطط القديمة التي لم يشيد مثلها منذ قرن، بلاط ملون، منقوش وسقفه مزخرف بالخشب المشغول، وسط الصالة فسقية رخام، كل خميس تقام السهرة، انه يحب الصحبة حتى وان لم يعرف أفرادها، أحيانا يجيء غرباء لكنه لا يسأل، ما يبعث الحيوية في عينيه، وينتزعه من خموله، أي حديث عن الدخان، يتابع أخبار التمباك وأنواعه، يعد خلطة في البيت، تركيبتها مشهورة، مجهولة السر، عطرة الرائحة، معروفة بتعميرة الملاوي، يوصي المسافرين الى الحجاز، والى الهند، واليمن باحضار دخان الجراك، فواكه معطنة معجونة بزيوت طيبة الرائحة، جدران بيته مغطاة باعلانات قديمة عن أنواع اندثرت من السجائر، لديه عدد كبير من العلب الفارغة، لديه عدد من النرجيلات، بعضها من الكريستال العثماني المنمنم، المضلع، بعضها ايراني عليه رسوم من منطق الطير، والرباعيات، نقش السباع والتنين، لديه ملاقط فحم من النحاس المنقوش بالفضة، ومراقد نحاسية مطعمة بالفضة، ومباخر أثرية، انه يجلس صامتاً، يرعى ضيوفه بعينيه، فوق صينية كبيرة توضع لفائف الفطير، والجبن، والخس، والبرتقال، واللحم، والطعمية، الأكل متاح لكل راغب، وعندما يتوهج الفحم، وتعلو الأصوات بمناقشات سياسية، أو آراء دينية، أو وجهات

نظر اجتماعية، أو تتولد نكات، يختلط هذا كله بقرقرة المياه، عندئذ يبدأ الملاوي في النعاس، وعندما يبدأ انصراف الصحبة واحدا أثر الآخر، يقلق، ثم يستيقظ تماما عند خلو القاعة منهم، عندئذ يصيح مناديا صغرى بناته، له أربع: ثلاث طالبات أما كاميليا فصحفية، تزوجت وطلقت، يطلب اعداد فنجان قهوة، ثم يفارقه النعاس والنوم تماما..

وفيه سعل رجل سعالا متصلا، وتجددت خلايا غير التي ماتت، وذبلت أوراق كانت بالأمس خضراء.

وتنبأ عجوز بقرب القيامة، ونبه الى علامات الساعة، ومن ذلك سفور النساء، ونطق الجماد، وقسوة القلوب على القلوب..

واتصل التنوخي بادارة أمن الخطط، وقال ان الاستاذ يبدي انزعاجا من المشروعات الجديدة، خاصة بناء الخزان العظيم، ويقول ان العجم وراءه. وحد من نشر أخبار العمل فيه، وأبرز الأعطال..

وهتف برنق عندما رأى رونق: تعيش جلالة الملكة..

وفي الشارع صاحت امرأة تنادي شخصا غير مرئي، يقبع لف نافذة مسدودة بقضبان..

أنا رحت إليه وقال انه سيجيء

يعني الورق وصل؟؟

هو قال انه وصل.

واستدعى الدمياطي المحررة كاميليا الملاوي، أغلق الباب والرغبة في عينيه، مدت يدها لتخفي الركبتين، غير انها تعمدت أن تترك فتحة الصدر تشي وتوحي، قال ان ضغط العمل ثقيل، فكرت في قربه من الاستاذ، نفوذه في الدار انه يسهر ليصدر الطبعة الثانية، يمكنه ابراز اسم محرر واغفال آخر، ماذا سيطلب؟ سمعت ان رغباته متواضعة لكنها لا تنتهي، عندما يسافر محرر في مهمة يطلب منه أن يشتري له ثلاث سجائر، طلب من مندوب الأنباء في وزارة الصناعة أن يتحدث الى الوزير ليحصل على قاعدة خشبية لثلاجة، ومندوب الزراعة ليحصل على كيلو عسل نحل، قام.. انه يريد شيئا مختلفا، حام حولها، متظاهرا انه يفكر، عندما أصبح خلفها شعرت ان نظراته تعريها.. تأكلها..

وفيه حل صباح العيد، وفاضت الشمس فأبهجت وأحزنت وأنعشت، وخرج الجعيدي مع ابنته، غنى لها ولعب معها، وعندما نظر اليها خفق قلبه، البنت تفور بسرعة، جسمها أكبر من سنها..

وتناول حفظي افطاره مع امرأته وأولاده، كعك وبسكويت بالشيكولاتة في صحن من الكريستال لا

يظهر إلا في المناسبات، قرأ الصحف، وتطرق الى قمة شجرة تحاذي النافذة، ارتاح الى اللون الأخضر، ليس من المناسب خروجه في تلك الساعة المبكرة، أرجأ ذلك الى الضحى، اصغى الى امرأته أثناء حديثها بالفرنسية الى الأولاد، امتصها البيت ولم يتبق منها الا مصاصة جافة..

ونشرت الأنباء خبر اختفاء مهندس في الصحراء، وقالت انه كانت لديه بحوث ودراسات لو رأت النور لاخضرت الرمال..

وخلا الاستاذ الى نفسه، ضحك، قال بصوت شبه مسموع، أي شيء يمكن أن يحدث في هذه الدنيا، أي شيء..

وأصدر الاستاذ قرارا بتعيين الدكتور السواري طبيبا متفرغا، أرسل في طلبه، قال انه سمع عنه، أطلق في أثره العيون والارصاد، وما نقل عنه جعله راضيا، ان اقدامه على استخراج شهادات طبية لمن يطلبها، وتسهيله اجراء عمليات الاجهاض، وتركيب أغشية البكارة، وبيع المخدرات المستخدمة في الأدوية للمدمنين، ورفضه النزول ليلا لعلاج طفلة مصابة باسهال، هذه مؤهلات رشحته بجدارة، إن المرأة التي حاول الاعتداء عليها هو الذي أرسلها اليه للكشف عنده، قال انه سينشىء مركزا طبيا لعلاج العاملين، انه يريد تقريرا دوريا، دقيقا للكشف عن صحة كل رجل وامرأة بدءا

من الأمراض المتخلفة عن الطفولة وحتى الناتجة عن المهنة، وليكن المسواري مستعدا لتنفيذ كل ما يطلب منه..

وكثر الكلام عن الخزان الكبير، وصفه التنوخي بانه أعجوبة العصر، وقال الدمياطي انه أول الطريق لتحرير الأراضي الشمالية..

وأنهى العناني أخبار العجم المعتقلين، زادت جرعة التعذيب، الطعام ينمي الاحساس بالجوع، ويبقى الانسان متأرجحا عند الحد الفاصل بين الحياة والموت، وينادي على الرجال باسماء النساء، قهقه الاستاذ... لك مائة جنيه اذا عرفت الاسم الذي ينادي به الدكتور فهمي..، قال العناني انه يلح في حضور عمليات التعذيب كما يسمح له بحضور عمليات الاعدام، لكن الادارة تتكتم حول ما يجري وراء الأسوار، اسماء العجم لا تدون عند دخول السجن، لكن المشهد الجدير بالرؤية، مطاردة العجم عراة كما ولدوا في الخلاء..

وفيه أظهر المرابطون حزنا وغما لأن الأمد طويل وعلمه عند الله، والأماني قد تتحقق، بعد لحظات، أو بعد مئات السنين، في كل يوم يتجمع الندى فوق صخور مرتفعة، وزجاج نوافذ، وقضبان حديدية، وأسوار حدائق، وعلى أطراف الزهور المنسية، وما الندى إلا دموع الغيبة التي يذرفها الزمن

على ما يجري في الدنيا، يفيض شيخ المرابطين بأسى رقراق، لا يظهره حتى لا تضعف الجماعة، لكن الضيق يجثم فوقه أحيانا، في الخطط غرباء وأعداء، يحومون حول مركز خفي لم يدرك كنهه حتى الآن، ظهورهم هكذا يعني بدء الزمان المعوج، وان العقبة تلي العقبة في وجه من ستلوذ الطيور به، وتأمن الأسماك في الأعماق عند ظهوره، ويأنس الحمل الى احضان الذئب في عصره..

وفيه تساقطت ورود، لم يقطفها أحد..

وتبددت رؤى بمجرد اليقظة تاركة أصحابها في دهشة، وأنفاس واجفة..

وبدا كل آت قريب، وكل ماض بعيد..

* * *

الشارع الثالث، ويعرف بشارع الوشاية

.. في أوله برنق، يزعق محييا الوتيذي،
« والله انت حنين قوى يا بك وقلبك أبيض.. ».
« أنا بك يا ابن أم برنق؟.. ».

لكن الوتيذي لا يمضي مرحا كما بدا عند مداعبة برنق، ان حيرته تتزايد، والضيق يأخذ بخناقه، بالأمس فوجيء بالتنوخي يناديه، يصحبه الى مكتبه، يمد اليه علبة سجائره، لكن الوتيـذي يعتـذر، إنـه لا يدخن، تقلقـه إمارات الكرم، يود أن يعرف المطلوب منه، ولا ينتظر، يسأل التنوخي، هل ذهبت الى النادي؟ هل رأيت الاستاذ؟ هل صحبته أم تركته بمفرده؟ من هؤلاء الأغراب الذين صحبوه؟ ياه.. وهل بقيت رونق طوال المدة؟، ضاق الوتيذي، يعرف ان التنوخي أقرب الناس الى الاستاذ، هو صاحب الرأي النهائي عند التعيينات، وتقرير العلاوات، أو المكافآت التي تصرف على الموضوعات ذات النوعية الخاصة، ويختار المحررين للسفر، لكن نبرة الأسئلة مقلقة، انه مضطر الى الاجابة

بدقة، لا يمكنه عصيان التنوخي، ربما يضعونه في أختبار معين، رونق والاستاذ لم ينبهاه الى ضرورة عدم الاجابة، من المستحيل عليه أن يتصور ان التنوخي يبغي ضررا بالأستاذ، تماما كما يصعب عليه تصور أن صديقا يسرق صديقه، أو أن امرأة تخون زوجها، أو زوجا يخون امرأته، يسمع عن حوادث، لكنه يعتبر ذلك تشنيعا، ومبالغة، في بداية هذا الشارع سيطرت على التنوخي مشاعر عدوانية تجاه الوتيدي، ورآه أثناء انصرافه، لفت نظره قامته الضخمة، واطراقة رأسه، وخضوعه فانقلبت الكراهية الى عطف، ثم الى حب شديد، ورغبة في استبقائه، وطلب الصفح منه لأنه فكر في الحاق الضرر به، لكنه لم يفعل، وقال ان ما جرى بينهما يجب ان يظل سرا لا يدري به انسان..

زقاق ضيق جدا، وأوله فائدة..

أعلم ان ما جرى في الشوارع السابقة، والأسوار، وسائر انحاء الخطط، لا يمكن اعادة النظر فيه، أو تبديله، أو تغييره، لأنه جرى فعلا، وما جرى لا يمكن مداواته، أو التعديل فيه، فقط.. يمكن التمني، لكن هل يعيد التمني ما فات، هذا محال، فالزمن يمضي الى الأمام، وفي كل لحظة يغلق باباً هيهات لقوة ان تفتحه، أو تحاول النفاذ منه، ما حدث،

حدث، لذلك يبدو الوتيدي مهموما، تبدو له أمور الخطط غريبة، هل أخطأ؟ هل أجاب بما لا ينبغي؟ لو ان راوغ، لو انه أجاب بغير ما أجاب، في كل يوم يرى ما لا يفهمه، ويسمع ما يرفض تصديقه، ويمنع ما بداخله أن ينعكس على وجهه، يؤجل الانفراد بهمومه الى الليل، أمه لا تعرف رونق، ولم تر العناني، ولم تشعر بوطأة التنوخي، الا انها تصغي، تومىء تبدي دهشتها، حنقها، توافقه على ضرورة تدعيم نفسه بتواجده طوال الوقت، وآداء ما يكلف به، يمضي الليل والوتيدي يفضفض عن نفسه، لا يريد العودة الى النادي، لا يريد الخروج من الخطط، لا يريد التواري في الأماكن النائية، والبقاع المجهولة، لن يسمح لأحد أن يقصيه عن هذا الزقاق، أو الشارع، لو عاد الى النادي سيجري وراء الأطفال، سيطارد الفضوليين الذين يتجمعون خارج الأسوار لاختلاس النظر الى سيقان النساء أثناء لعب التنس، سيعود خلف الكرة عندما تجتاز حدود الملعب، يضطر الى الصمت عندما يرى شابا يهمس لفتاة في خلوة، ربما كان ابنا لعضو يحتل مركزا هاما، ينتظر الأعياد ليبتسم في وجوه السادة مطالبا في صمت بالعيدية، ويحفر ارهاق العصاري في الصيف خطوطا ويضفي عبوسا على جبينه، وتهن قوته التي حسدوه عليها، كان منسيا في النادي، قبل ظهوره في الخطط طلب منه عضو أن

يعمل باحدى صالات الرقص ليحفظ النظام بقواه الخارقة، لكنه راوغ حتى اعتذر، ليس من حق أمثاله الرفض الصريح القاطع، لو حدث أن وافق لانقلبت ايامه، لارتدى فانلة برقبة، وحمل قبضة حديدية وشرب الخمر وأحب هذه الراقصة وتسترا على تلك حتى تستنزف صحته، فيصير بواباً أو جامعا لأعقاب السجائر أو شماما أو مستحلبا للأفيون، في هذه الحالة لم يكن سيظهر في الخطط باسمه أو ملامحه، كان سيصبح واحدا من آلاف العابرين، عندما تحدث اليه الأستاذ ظن في البداية انه يسخر منه وانه سينهي الحوار بطلب عرض قواه البدنية، ودفع خمسة جنيهات مقابل جره لعربة باسنانه، لكنه فوجىء أن الاستاذ يعرف عنه ما لا تعرفه ادارة النادي، بدا كأن الحظ الخارق والنصيب النادر عرفا طريقها اليه، تسلمه العناني طلب منه متابعة جريمة قتل امرأة كودية زار، عندما وقف أمام الضابط نزلت عليه هيبة، ا يصدق نفسه، وعندما همس اليه المأمور برجاء الا ينسى الصورة أدركه خجل، الضابط يرجوه، ومنذ أيام كان يخشى حرس النادي، بعد عودته نقل ما سمعه الى الكولي رئيس قسم اعادة الصياغة، بعد نشر موضوعه الأول استدعاه الطنبولي هنأه، وقال انه يتابع نشاطه وعدم تعاليه على أي عمل يسند اليه، يريد منه ان يتداخل مع العمال، قضاء أكبر وقت معهم

لن يطلب منه أن ينقل ما يسمعه، كل دبة نمل تصل الى الأستاذ، لن يطلب منه تقريراً عن إنسان بعينه، كل ما يريده، أن يجالسهم، وأن يقوم بالواجب تجاههم، عرف الوتيدي طريقه الى مقهى العمال القريب، لم يعد غريباً عن الجلسة بقامته وصوته الغليظ، مع مرور الأيام شعر براحة في المقهى، ائتنس بالعمال، لكن ثمة ضيقاً لم يفارقه، يشعر أن شيئاً خفياً لا يراه في هذا الزقاق، لماذا اختاروه هو بالذات؟ هل سيتسبب في قطع رزق أحدهم؟ أمنوا له وأخشى ما يخشاه أن يلحق بهم الضرر، لماذا اختاروه هو بالذات؟ لكن مضت أيام ولم يستدعه الطنبولي، ولم تطلب منه معلومات، حتى خيل له أن الأمر أصبح منسياً، وتوقع أن يعاقبه الطنبولي لجلوسه الدائم بين العمال، لكن الضيق يعاوده، ثمة أمر خفي، كثيراً ما خطر له ذلك أثناء ضحكه فيتوقف فجأة ويشرد ويتمنى مجيء الليل، حيث يتمدد فوق الكنبة، وتقعد أمه فوق الأرض، كأنها تدرك كل شيء، أفضل مصغ إليه في هذه اللحظات يشعر أنه خلع أثواباً غير مرئية أجهد نفسه في ارتدائها، لا تصل إليه ضوضاء، ولا آلات، ولا يرى الابتسامات الغامضة، وإشارات الأيدي، والطنبولي الذي يذكره بحذر باعة الذهب، إنه يشعر أن ثمة أمراً مطلوباً منه تنفيذه، وأن دوراً معيناً لم يقم به بعد، لكن.. لم يفصح له إنسان..

زقاق الوشاية الصغرى..

من هنا يتطلع الجعيدي الى الأزقة المجاورة، والشوارع، والمنحنيات فاذا به يرى الوشاة مندسين، منتشرين، وشاة يعرفهم بالاسم، ويحرص على الحديث امامهم بما يحسن صورته عند الأستاذ أو كبار المسؤولين، آخرون يشك في انهم وشاة، ونفر لا يعرفهم، الوشاة بلا حصر، وكلهم في مأمن، لماذا لا يجرب حظه؟ لماذا لا يشي لعله يحظى بقرب، أو يخفف عنه، في احدى الحواري المتفرعة من شارع الاجتماعات طلب منه البلشي ان يقدم نفسه الى التنوخي، حتى الآن لم يلتق به، ولم يقابل الاستاذ، انهم لا يحبونه، اذن.. ليشي ربما ازداد اقترابا، انه يتجه الى رونق، يقف أمامها متوددا، صباح الخير يا ست الكل، كما تصور فان الواشي لا بد ان يكون خافت الصوت، لا بد أن ينحني، يود الافضاء بمعلومات هامة حول العناني، تبدي رونق دهشة، يؤكد ان لديه ما يجب قوله عن العناني، ان الحديث الأخير الذي اجراه مع كبير مهندسي مشروعات ري الخطط، اعلان مقبوض الثمن، يتوقف.. لا يدري الخطوة التالية، يظل وجهها صامتا، ماذا يفعل؟ هل ينصرف فورا؟ أم يبقى دقائق؟ أم يختلق موضوعا للحديث، ان ارتباكه يتزايد، خاصة انها لم تحاول قطع الصمت

واستمرت تحدق اليه، يقول ان كلمة الاستاذ اليوم رائعة، جعلت القلوب تخفق من أجل هدى الحلاوي، رد الله غربتها، عينا رونق كالزجاج، كأنه لم يتحدث، لا يقف في الحجرة، يتمنى ان تجاوبه، عندئذ يشكو لها مضايقات العناني، ومعاملة التنوخي الغريبة، وانفراده بكاميليا، لكنه يتراجع، يرفع يده بالتحية غير انها لا ترد، يتراجع بظهره، تتابعه ضامتة، يستدير وكأنه يولي هربا، أثناء مشيه حرص على الاحتفاظ بنفس التعبير على وجهه، ربما فوجىء باحدهم أمامه، عندما تأكد انه ما من انسان يرقبه اخرج لسانه مرات، وبصق، بصق على رونق، وام رونق، وعائلة رونق، لا بد أن يشنع، ان يشتم، خاف أن يبدو منه شيء، داخل هذا الزقاق، انه يسرع الخطى ليبحث عن الفولي مفتش الصحة ليحكي له ويفش غله.. لكن قبل وصوله الى نهاية الزقاق يستدعى فجأة لمقابلة الأستاذ.. يتراجع مضطرب الخطى، انها المرة الرابعة التي يقابله فيها على انفراد منذ مجيئه بتوصية من عضو المجلس الجمهوري ابن بلدته، في البداية تشاغل الأستاذ عنه، لماذا سمحت له رونق بالدخول عليه؟ الوقوف يضايقه كأنه معلق في فراغ، ولو خطا الى الأمام وجلس فوق المقعد الخالي ربما فوجىء برد فعل لا يتوقعه، يقولون انه ربما ضرب بعض من يغضب عليهم، لكن ما يرهبه الجميع ضيقه المكتوم بلا نذر

أو علامات، لا شيء يحد من سخطه، ولا وساطة تنهي مقته، يوماً ما ضرب اقرب الناس اليه، التنوخي نفسه، خلع حذاءه وانهال به عليه، يقولون ان التنوخي راح يتناول الحذاء كلما أفلت وينحني مقبلا الأرض، ويرجوه أن يهدأ خوفا عليه من عواقب الانفعال، وضيق النفس. اذا ضرب الاستاذ تطمئن النفس، لكن المرعب ان يضمر ولا يفصح. فجأة، يرفع الأستاذ رأسه، يسأل، هل لديك متاعب في الشغل؟ كيف حال ابنتك ثريا؟ اين تركتها اليوم؟ هل ترجع لتصحبها من المدرسة الى البيت؟ اذن انت تقيد نفسك بميعادين ثابتين يوميا؟ يرتبك الجعيدي. اذا احتاجه العمل خلال هذين الميعادين.. ماذا يفعل؟ يضطرب الجعيدي، لكن الاستاذ يسأل عن عمرها، عشر سنوات؟ انها صغيرة، يعود الى الأوراق وكأنه لم ينطق حرفا، يرتاح الجعيدي الى هدوء النبرات، لكن لماذا يهتم بابنته؟ يقول الاستاذ فجأة انها تذكره بأمها، تهوي دقات قلبه، يصفرُّ لونه، يشير الاستاذ بقلم رصاص.. يقول انه نقل معلومات الى رونق منذ نصف ساعة، الساعة العاشرة والنصف، من قال لك انني أحب الوشاية والواشين؟ معنى تفرغك لنقل المعلومات عن زملائك انك أسود القلب وانك لا تعمل، اذا اتبعت هذا السلوك سأبلغ أمرك الى من أوصاني بك، يهز الجعيدي رأسه هزات متلاحقة، بدا الاستاذ

وكأنه قد من صخر، جهم، قاس، ناري النظرات، فجأة راح هذا كله وقال برقة انه يرغب في حضور عيد ميلاد ثريا، خاف الجعيدي، لماذا الاهتمام بابنته؟ قبل خروجه من هذا الزقاق أدرك انه ما من انسان يستطيع ان يصير واشيا لأنه قرر ذلك، وأن المسموح لهم بالوشاية معروفون، معدودون، وإن الأمر أصعب بكثير مما تصور..

منحنى قصير، وفيه عاقبة الواشين..

في أوله يظهر العناني هائجا ينوي العراك، زعق طالبا السماح له بكلمة، يصيح الوتيدي «تكلم وخلصنا يا أخي»، ينتهز الجعيدي الفرصة، يملأ عينيه من كاميليا، كأنه يعرفها منذ الصبا البعيد، لكن العناني يجهض حلاوة اللحظة، يتساءل عن رأيهم في الواشي بزملائه، يرتعد الجعيدي، يتجنب نظرات العناني، يوقن الجميع ان حدثا مثيرا سيقع، يطالب الهلالي بتوضيح أكثر، يعلن الزعزاني المشرف على مراسلي الأقاليم بانه اذا لم يعلن الاسم فلا داعي، لكن العناني يقول غاضبا انه لن يصرح، سيكتفي بكشفه لنفسه، وأمام الآخرين، حتى وان لم يصرح باسمه.

خلاء غير مطروق..

أدرك الجعيدي كرب، هان حاله، أما أشد ما آلمه فحضور

كاميليا واستماعها الى زعيق العناني، لجأ الى هذه المنطقة النائية، غير المطروقة من الاستاذ أو عيونه، أثناء قطعه المسافة ردد صامتا هتافات ضد الأستاذ، لعن رونق، تمنى موت العناني، في الخلاء يلتقي بصديق، لا صلة له بالدار، مفتش صحة، سمين، يرتدي حلة كاملة ذات صديري وصندل بدون جورب حتى في أيام الشتاء، ويحمل حقيبة متوسطة الحجم، حقيبة سفر مع انه لا يسافر أبداً، تعرفا في مقهى صغير، انه المفتش المكلف باللف على المطاعم الموجودة بالشوارع للتأكد من مراعاة أصحابها لقواعد الصحة، باستطاعته إلحاق الضرر بأي مطعم، واغلاقه اذا كتب تقريرا يشير فيه الى وقوع مخالفات، يمكنه الأكل مجانا في أي وقت، ودعوة أي عدد من أصحابه، ولا يدخر أصحاب المحال وسعا في سبيل ارضاء شهيته، كذا أصحابه، وتلبية رغباته عندما ينتهي من الأكل ويصيح، لفوا لنا عشاء الأولاد في ورقة، ولا تنسوا السلاطات، بمجرد لقائه بالجعيدي يسأله عما يرغب في أكله، وعند دخولهما يشير اليه قائلا انه صحفي كبير بجريدة الأنباء، ولا يمل من تكرار ذلك حتى لو دخلا المكان نفسه عدة مرات في اليوم، كما ان أصحاب المطاعم يكررون استفسارهم عن الباب الذي يكتب فيه الأستاذ، فيقول الجعيدي انه صحفي في قسم الأخبار، ثم يهمس لصاحبه

هؤلاء أغبياء، ان الصحفي لا يحصل على باب ثابت الا بعد عمر طويل ومشوار صعب، يقول المفتش، دعك منهم، ما يهمنا الأكل، يصغي المفتش الى الجعيدي عن عجائب الزمان التي جعلت شخصا كالتنوخي يصبح نائبا لرئيس التحرير، والعناني الذي يهوى خراب البيوت، حتى السعاة يقال أنهم منتظمون في عصابات نشل، أما الزعزاني فيحمي عصابة تتولى سرقة القطارات المتجهة الى الوجه القبلي، هل هذا معقول؟ ان مفتش الصحة لا يعرف شخصا منهم، كما انه لا يقرأ الصحف، لكنه يصغي، ويهز رأسه، وقد يلعن أحدهم مشاركة منه للجعيدي، ولو ناله الارهاق، وبدا على وشك النوم، فان الجعيدي يثير انتباهه بذكر تفاصيل مقابلته لأحد الوزراء، تتسع عينا صاحبه، ويزدرد الطعام، ياه! هل رأيت وزيرا، هل صافحته بنفس هذه اليد التي تصافحني بها؟ وشربت القهوة أيضا؟ ثم يردد آه يا عم.. وصلت، أي والله وصلت.

في الخلاء شخصيات أخرى يمضي اليها الجعيدي، رجل تجاوز الستين، يعمل ربانا لاحدى السفن النهرية التي تنقل الركاب في أيام الاجازات والأعياد، والمواسم، يعرف أيضا صاحب مصبغة بلدية، وكاتب فندق قديم، وصاحب بوظة، ومقاولا تخصص في بناء المداخن، وتاجراً لاطارات الكاوتشوك، وبائعاً انفرد ببيع سيقان الدجاج وصاحب مصنع بسطرمة، كثيراً ما

يسعى اليهم جميعا في يوم واحد، خاصة عند وقوع مضايقة، أو
حادثة لم يستطع الرد عليها في حينها، في اليوم التالي لهروب
امرأته، لم يهدأ لمدة شهر، جاب الخلاء كله وشنع بغدر النساء
وقلة اصلهن، ونقص عقولهن، وأحيانا كان يبكي ويلطم لأن
ما فات لن يعود، ولأنها خانته مع غريب، ولأنها هجرت
ابنتها، تحدث حتى الى الذين لم يعرفهم أبدا، جيرانه العابرين
في الترامويات والمساجد، والمقاهي، كان يطلق آهة، أو لفظا
فاذا لاحظ انتباه الغريب، ينطلق عندئذ في حديث طويل
مهاجما المرأة وغدرها، كثيرا ما يشعر انه انتقم من الاستاذ أو
من العناني أو غيرهما، مع انه يعرف بعدم وصول أية كلمة مما
قاله، أحيانا يجد نفسه وحيدا كهذه الليلة، البرد قارس، ولا
بد من العودة الى البيت، عندئذ تقدم الى نقطة قصية،
وزعق، ملعون الأستاذ، ورونق، والعناني، والتنوخي، ملعون
النهار الذي رأيتهم فيه..

حارة رونق..

كثيرون يترددون على حواري رونق، وكثيرون يثيرون
فيها سخرية، الجعيدي يكبرها بخمس عشرة سنة، الشعيرات
البيضاء تتخلل رأسه، ملامحه طفولية عند محاولة الوشاية، كأنه
يفشي لأمه سر جارتها، تتفاوت اساليب الوشاة، بعضهم يلف

ويدور ثم يفضي بما يريد قوله كأن الأمر صدفة، وبعضهم يقول
ما عنده مباشرة، الأستاذ لا يدع شيئاً يفلت، كل من يظهر في
حواري رونق خصص له ملفا يحمل اسمه، والغرض الذي
جاء من أجله، حتى أولئك الذين يثق فيهم الأستاذ، في هذه
الحارة تشعر بضيق خفي مع ان الأمور استمرت على ما كانت
عليه مع الأستاذ بعد ضبطها في بيت العجوز، كل ما تغير انه
أصبح يرتدي غطاء واقيا، ما يضايقها انها ترى فيه ما لم تره
من قبل، انه لا يبوح لها، لحديثه ظاهر، وباطن، لم يذكر لها
كلمة عن المكان الذي أخفي فيه هدى الحلاوي، أثناء
استغراقها في البانيو لتزيل آثار رائحته القوية النفاذة والتي
تجذب القطتين حولها، وتجعلها يتحسانها ويحاولان لحسها، أو
أثناء تدليكها موضع عضته، أثناء انتظارها في شقتها الصغيرة
تتساءل، أي أمر شغله اليوم؟ تستعيد ملامحه ونظراته
وايماءاته، أو حركة أصابعه المليئة بالحيوية، واستغراقه في
قراءة صحف الصباح المنافسة واهتمامه بعدم وصول صحيفة
اقليمية تصدر في اطراف الخطط، شيء ما يخيفها منه، شيء
لا تضع يدها عليه، ربما شرود عينيه الزجاجيتين، توجه
أفكاره الى أهداف خفية، شعورها أحيانا انه محسوس وغير
محسوس، انه يحتل جزءاً من المكان وبرغم ذلك تخلو منه
الأزقة والحواري، والأسوار، والشوارع، كأنه ظل لشخص

آخر تجهله، تراه ويمكنها رؤية ما وراءه، كأنه شفاف لا يبين، تدرك ان له أكثر من وجود، كيانات متداخلة، لكنه لم يودعها جزءا منه، لم تلمس أي جانب منه، لم تقف عليه، ما تريده مطمور في مكان لا تعلمه، كثيرا ما تنظر الى الباب المؤدي اليه، وبالرغم من يقينها انه بالداخل، وانه لا مخرج آخر للحجرة الا أن ثمة يقينا ينتابها بعدم وجوده، تسأل نفسها، ماذا تريد منه بالضبط، خلال فترة قريبة أصبحت من أشد المقربين، كل ملفات العاملين السرية تحفظ بمعرفتها، والطنبولي يتصور ان لديه كل الأوراق، انها محور مواعيده، واتصالاته، كل من يلتقي به تعرفهم عدا هؤلاء الاغراب ذوي السحن الغامضة، ماذا تريد بالضبط؟ تمر عليها لحظات تود لو تدخل عليه، تصيح، تلقي مفاتيح المكتب، والدواليب، ومفتاح الشقة، تفر من الخطط، تفكر في مصارحته بخوفها الغامض منه، لكن.. كيف تنأى عنه وهي تعرفه ولا تعرفه؟ لأنها لا تمسك بكل خباياه لا زالت تدور في فلكه، لكن ما يعذبها انها تفهم جانباً منه، وبعد ان خرجت من القضية في صمت، واستقبلها بحرارة لم تبد دهشة، ولم تنحن على يده لتقبلها، انما استأنفت عملها بشكل عادي جدا، تماما كما أبدت تفهما عندما قال لها ان مضاجعته لبعض العاملات، وابقاء الأخريات في حالة انتظار، انما الغرض منه

احكام القبضة، وكسر العين، لا يعنيها تردد اثيل، أو علياء، أو سامية، تسخر منهن، من حججهن التافهة، تضمر لكل منهن كراهية مجردة، بقدر ما تحرص على اختيار نوعية الثياب التي تكشف أدق تفاصيل جسدها، بقدر ما تشمئز لرؤية تثنيهن وتمايلهن، وتخيلها امتلاء بطونهن بعد الزواج، والافرازات الشهرية، وامتلاء الصدور باللبن، وحركة شفاه الأطفال عند الرضاعة، تضيق بكل ما يتعلق بالاخصاب والانجاب والطبيخ والاثاث والزيارات وتبادل الهدايا، تتمنى رؤية كل منهن في لحظة هوان، ان يسارع الاستاذ الى اقتحامهن حتى تتفرس في ملامحهن عندما يدركهن الخوف من نمو الاجنة، قال العناني انه ما من شيء يخفى في الدار، أي محرر لا يجرؤ على مغازلة أنثى لم يقربها الأستاذ بعد، قال ان خطابا وصل الى كل من الفتيات الثلاث يقول كاتبه ان البداية ستكون للفتاة التي تحمل فوق فخذها الأيمن شامة مستديرة، حتى الآن لم يطلع شيء في دماغها، لكنها تفكر في عدة أمور، هل تنتحل صفة سائحة أجنبية وتسافر الى جنوب الخطط الغنية بالآثار، وهناك تتعرف بأحد رجال المنطقة، تعيش معه ثم تهجره فجأة؟ أم ترتدي هلاهيل الثياب وتتسول؟ هل تنضم الى العجم؟ هل تعشق طالبا، وتبكي على صدره، ثم.. ثم ماذا؟ لم تستقر بعد على نزوة، أثناء انصرافها

تقدم منها برنق، غليظ الرقبة، أحمر المشفرين، رفع يده بالتحية، حرك عينيه بسرعة، زعق «تعيش جلالة الملكة».. ولم تخف ابتسامة غامضة..

«.. قبو خفي، يتصل بأقبية أخرى..»

.. الانسان عالم صغير، والعالم انسان كبير، واللحظة زمن ممتد، والذرة كون فيه ما فيه، ما أسبنه لمن تقع عليه عيني نموذج لما سيجري لمن لا أعرفهم، الشرخ في نفوس المقربين نواة للخلل الذي سيقلب، سيغير، الجعيدي لم يسبب لي أذى، لكن وقع عليه اختياري لأضع روحه بين فكي المنجلة، يتمنى لو مسح الخطط بلسانه ليرضيني، لكن ليس ما يتمناه يدركه، نحن نحدد الوضع، والحركة، ومواطىء الأقدام، والمدى الذي يجب أن ينعكس عند الصدى، بدأ تقويضه منذ رحيل امرأته، عرفها الدمياطي وأدرك خباياها، في اللحظة المناسبة أوحى اليه بضرورة توجهه الى بيته، لو انها تجيد الكتابة لالحقتها بالأنباء، لجعلت مكتبها بجوار مكتبه، ليصبح العرض علنيا، انه موله الآن بكاميليا، يعتصم بابنته، وفي لحظة أخرى لن يجد عاصما، ربما جرى ذلك بعد حين، تقطر القطرة في موعدها، وكل شيء له أوان ومقدار، أعرف انه يقرأ، وهذا يزيد كراهيتي له، مكتبة الدار تضم كتبا لا مثيل

لها، لكنها جزء ميت في كل حي، معدة ليراها الزوار فنبهروا ويدهشوا، لكنها محرمة على من لم يمت الى الأنباء بصلة، لم أصدر قرارا علنيا، لكنه الحبل السري الذي يصلني بابناء الدار الحقيقيين، قد اتسامح مع خلاصة الخلاصة وحملة الأسرار، لكن بشروط، حتى لا تتفتح في الأفئدة سككا مجهولة، ودروبا لم تطرق، المكتبة هنا مصيدة لكشف من أراد التوغل في الدروب الوعرة، المعرفة تعني ربط الحاضر بالماضي بالمستقبل، ومبتغاي عزل الحاضر والنظر اليه مقطوعا عما سبقه أو ما سيلحقه، ما أتمناه ان يعرف الانسان ولا يعرف، ان يرى ولا يرى تمهيداً للعمي الأعظم، أدنو الى يوم تينع فيه اغراسي، فتختفي الشمس في وضح النهار بينما بريقها يؤلم العيون، الشرف يصبح سبة والمجد عاراً والفضيلة رذيلة والصدق أقصر الطرق الى الهلاك، يوم تختفي الحقيقة الساطعة، يصبح تضليل الملايين أسهل من تضليل طفل يحبو، يوم يعرف الآلاف أن ما يصفقون له سيلحق الأذى بهم، ومع ذلك يرقصون ويهللون، تتبدل القيم وتنقلب المثل ويتوه الماضي في المستقبل ويضل الحاضر عن الحاضر ويصبح الحماس لكل شيء بنفس الدرجة، والانتقال من النقيض الى النقيض بنفس بساطة رونق داعرتي العظمى، تختفي دعوات العدالة، والمساواة التي لا أساس لها،

أرى يوما تخلو فيه الخطط من نسخة كتاب، ويصير العثور على اسطوانة أشق من رؤية زهرة الجليد، تباد المكتبات وتمحى اللوحات، وتختفي القصائد والحكايات من الذاكرة، ليس ذلك عن ناظري ببعيد، الدعاة بلا حصر، والرسل منبثون في الخطط، لا شيء ينفصل عن شيء في الدار، سأطرد الجعيدي من الجعيدي والوتيدي من الوتيدي وأمهد ما تبقى من نتوءات الضمير، أروض من استعصى، أشغل العقول بمصير هدى الحلاوي وأمثالها، أو قصة أغنية جديدة، أو ما سيجري في مباريات الكرة، هناك وهناك، ليس ببعيد ذلك اليوم الذي يقتل فيه الاعجمي رفيقه الأعجمي، وهذا أشد وأنكى، يتلاشى ما يروح عن كل مساواة، أو اخاء، ترفرف رايات الاستغلال، تزدهر عصور العبودية، جندي مخلصون التنوخي يرسل التقرير تلو التقرير ضدي، ماذا أريد أكثر من ذلك؟ يرتدي القناع في أثر القناع، يأكل على كل الموائد، صالح لكل العصور، ترى.. هل أعيش حتى أراه مسؤولا عن الخطط أو عن جانب منها، يبيعه أو يؤجره لمن يشاء، في كل مكان يوجد تنوخي، بل من هو اخطر منه، الاعداء غاصبو الأرض الشمالية متواجدون في الخطط كالخميرة، لو ضبط أحدهم، لو ارتبط به شخص من الخطط سيعدمان بعد محاكمة سريعة، أرى يوما يجيء فيصبح فيه الاعداء هم

الأخوة والأحباب، ومن لا يصافحهم أو يعانقهم، يشنق، أو يعلق في مكان عام عبرة لمن اعتبر، لو أفضيت بذلك الى انسان لاتهمني بالجنون، لكني أرصد الشرخ المتسع رويدا. رويدا، حتى المرابطون بينهم من هو قريب مني، أعرف انهم قلقون الآن، لأنهم يعرفون بوجود الأعوان الخفـــــاة، ويستشعرون القلق، لكنهم لن يدركوا أبدا حقيقة الحجم، أو إتجاه الضربات، وحتى يحين الحين لن يدرك الكثيرون تفاصيل غايتي، ومعاقرتي للمنايا، وسفحي للقيم، ثم التمادي في التمادي، أبداً.. أبداً، لن يقدروا على سبر أغواري..

زاوية قرب نهاية الشارع..

.. خشي البعض ان ينتهي شارع الوشاية بدون ان يفضوا بما عندهم، اسرع الهلالي الى رونق، قال ان الزعزاني المشرف على مراسلي الأقاليم يتلقى هدايا منتظمة من المندوبين، سمن وعسل وجبن وأوز مذبوح، وهريسة، وأسماك، وانه أفحش في ذلك.. وجاء قنديل الأزهري لاهثا، قال انه نما الى علمه تفوه أحد عمال المطبعة واسمه الخضر بلفظ «المنطلقات» واللفظ من مجموعة حددها الاستاذ لكشف كل ذي ميول أعجمية، بادرت رونق الى ابلاغ الطنبولي المشرف على المطابع، أجرى

إتصالا بإدارة الأمن، لكنهم طمأنوه، وأكدوا أن الخضر لا تحوم حوله أية شبهات.

وجاء الدكتور السوافيري، وهو ليس من العاملين بالأنباء، انه استاذ بجامعة الخطط، ظهوره عابر، منظاره معدني قديم، يضم الى صدره حافظة جلدية بنية اللون، لسبب ما خيل لرونق انه ضعيف جنسيا، وإن علمتها التجربة الا تخدع بالمظهر، تطلب منه الجلوس، المقاعد بدون مسند حتى يشعر الضيف بالقلق، تعتذر لأن الاستاذ مشغول والشارع على وشك الانتهاء، يفتح الحافظة، يقول ان لديه كشفا بأسماء عدد من الطلبة لديهم ميول أعجمية، قائمة لا يرقى الشك اليها وبهذه المناسبة كتب مجموعة من المقالات، الأولى في الرد على الجانب الاقتصادي من فكر العجم وتتضمن أفكارا جديدة لم تطرق بعد، تنتاب رونق سخرية، تود لو شخرت، لو بصقت عليه، لو تجردت عارية فجأة أمامه، يثيرها حرصه على لقب الدكتور قبل اسمه، يقول ان هذه المقالات بذرة لكتاب كبير سوف ينسف به فكر العجم نسفا، لقد اكتشف ما عجز عنه علماء الفلسفة والاقتصاد في أوروبا، وأمريكا، ولأنه لا يكتفي بنظريات مجردة فقط فقد أحضر معه مقالين، الأول يتضمن حلولا لمشكلة الاسكان في الخطط، والثاني حول أفضل السبل لتخزين البطاطس، يمد يده بصورة صغيرة لنشرها مع المقال

يرجوها الا تنسى. لو بقي أمامها دقيقة واحدة لزعقت في وجهه.

بيان من إدارة أمن الخطط

.. أثناء إستعداد نقاط التفتيش لمراجعة أحوال جميع شخصيات الخطط كما هو متبع حرصا على اكتشاف أي أثر لأفكار العجم يمكن ان تكون قد تسربت في زحام الأحداث، أو من خلال ضيق بعض الشخصيات أو مرحها، أثناء الاستعداد لطرح الأسئلة أفادت مصادرنا بانه يجري الاعداد للدفع بأربع شخصيات جديدة الى الخطط، ثلاثة شبان، وامرأة، واتضح لنا انهم جميعا يعتنقون أفكار العجم، ولما كنا حريصين على حماية تقاليد الخطط، وتطور الأحداث فيها والصراعات، ونقاء شخصياتها، فقد بادرنا الى منعهم من التسلل الى الخطط، وتصدينا لأي حجج تقول ان هؤلاء كان تواجدهم ضروريا لتعميق الأحداث لقد كنا نتابع المحاولة منذ اللحظة الأولى لظهورهم، يا أهالي الخطط، إن قوات إدارة الأمن متيقظة لكل محاولة، وساهرة على حمايتكم من أفكار العجم، ومصائب العجم..

* * *

السور الرابع..

في أوله أفضى شيخ المرابطين بخلاصة الرؤى، قال ان ثمة شخصاً في الخطط ينوي ما ينوي، وان محصلة أعماله تؤدي الى تمديد غيبة صاحب الزمان، انه مجمع لخبث الدنيا، وشرور الآخرة، ولد في ساعة نحس، نفس الساعة التي طرد فيها آدم من الجنة، وقتل فيها هابيل، وألقي فيها ابراهيم الخليل الى النار، وألقي فيها يوسف الى غياهب الجب، والتي أهلك الله فيها قوم لوط وثمود وصالح، وصلب فيها المسيح، وهي الساعة التي غاب فيها الإمام عن الأبصار، وصاحب مثل هذا الطالع المذموم المشؤوم لا يرجى من زمن يحتويه أي خير، لهذا وجب الكشف عنه، وإفساد أمره..

وقرب الغروب خلت الساحات، والميادين، ونزلت وحشة، وصفرت رياح باردة، وتأهبت الخطط لليل شتوي مليء بالوحدة..

وأغمي على امرأة قصيرة، حول ساقيها خلخال فضي..

وفيه بدأ تنفيذ مشروع مدارس الاطفال التي تضم مرحلة

حضانة، ومرحلة ابتدائية، ستدرس المناهج الرسمية، ومناهج اخرى لم تطبع في كتب، تلقن معالم النفاق، وحب الذات، وأصول الخيانة..

واستأنفت الأنباء حملتها، فنشرت عنوانا رئيسيا: «العجم يتلقون التعليمات من خارج الخطط» وتلك أول مرة يستخدم فيها هذا التعبير الذي شاع فيما بعد..

ولاحظ الكولي ان حملة الهجوم أخف حدة، وقال سرا ان هذه رغبة قادة العهد الجمهوري لأنهم يتقربون الآن من الدول التي يسودها العجم لالتماس مساعدتهم في بناء الخزان الكبير، ورد الأستاذ على ذلك، قال في اجتماع عام. ان بناء الخزان لن يؤثر على موقفنا، ثم طالبهم ألا ينظروا الى الخزان كشيء باقٍ إلى الأبد.

ورفع التنوخي تقريرا يؤكد قلب الأستاذ الأمور الجادة الى أنباء مثيرة، خفيفة..

ورفع التنوخي تقريرا ثانيا يشير الى نوايا الأستاذ بخصوص سلسلة المدارس التي قرر انشاءها.

وفيه تهدمت اعشاش عصافير عندما ازيلت شجر قديمة..

وحمل الهواء ذرات تراب ناعم فقال الناس: جو غريب في غير أوانه..

والضحى والليل اذا سجى..

وتبعثرت نجوم في السماء النائية..

وفيه أصغى أبو ستة مذهولا الى التنوخي، قال التنوخي ان الاستاذ اختاره ليعمل محررا في الأنباء، قال: أنا! قال: نعم، قال: او ما علمت انني أعمل ساعيا في دار الأوبرا؟، اكنس الأرض، وأرش البلاط، وأجمع أعقاب السجائر قال التنوخي: نعم، قال: أو ما علمت انني أقل السعاة شأنا وأقلهم قدرا، وانني المسؤول عن نظافة دورات المياه؟ قال التنوخي: نعم، قال: أفما يعلم الأستاذ انني لا أجيد القراءة أو الكتابة، قال التنوخي، نعم.. لكنك ستتعلم.

وفيه تقدم البلشي من أبو ستة ساعي الأوبرا، صاح في وجهه، الا ان أبو ستة واصل مشيه، أمسك البلشي ياقته، تهته أبو ستة وجلجل في الكلام، لكن البلشي لم يصدق اذنيه، طلب منه الانتظار، قالت رونق ان أبو ستة بدأ تدريبه ويجب أن يسمح له بالدخول كأي انسان..

ورفع البيجرمي رأسه، رأى شابا غليظ الشفتين، قبيح الجبنة، عد يده بورقة، ظنه أحد طلاب الحاجات يبغي مساعدة، مد يده بقرش، لكن الشاب تهته، تطلع اليه

البيجرمي من فوق الى تحت، قال بدهشة، وازدراء: ما اسمك؟ قال: أنا أبو ستة..

وفيه فارق النوم عيني الدكتور صبري أحد غلاة العجم، فوق المعتقل صمت مجهد ثقيل، موجات متلاحقة تعبر ظهره، أجساد الزملاء متلاصقة، لا يمكن للفرد ان يستدير في رقدته، لا بد أن يقف، يلف، ثم يتمدد، النوافذ قرب السقف، الهواء البارد يندفع بلا راد أو مانع، صمت غريب، مؤقت، قد ينتهي في أية لحظة، الكبسات الليلية لا تبدأ الا بعد استغراقهم في النوم، ثم إراقة المياه فوق الأرض، حاول أن يرفع جسده، اذ يخلو الى نفسه ينفرد به الألم المؤجل من نوبات الضرب، في مواضع تلقى الضربات مات الجلد ونبتت عضلات، أنات، أحدهم يحض، حاول أن يغمض عينيه..

وفيه انتفخت اشرعة بالهواء، مضت مراكب الى الجنوب، ومراكب الى الشمال، الاشرعة منتفخة بنفس الهواء..

وارتدى العناني قفازا، أمسك برزمة منشورات تحمل اسم العجم، العجم المناضلين ضد الظلم، من أجل عالم مثالي، لا فقر فيه أو غنى، ولتحقيق ذلك يجب تكثيف النضال ضد العهد الجمهوري الذي ورث مساوىء العهد الملكي وأضاف اليها. هنا توقف العناني: المفروض أن تضاف عبارات أكثر حدة، مثل «مناشدة الخلايا السرية التأهب للحرق والنسف»،

لكن ليس له أن يسأل عما لم يحط به علما، في بداية النهار سيوزع الخطابات في صناديق البريد، ستصل الى موظفين كبار، وضباط، ورؤساء مناطق في الخطط، والى صحفيين، والى العناني نفسه..

وفيه مارس الجنس عدد لا بأس به من الخلق..

وفي حجرة فسيحة، أطرقت هدى لحظات، ثم رفعت وجهها، قال: «بصراحة.. نحن لا نليق ببعضنا..».

وقال الرجل المعمم للرجل الملتحي: أنت معك كل الأخبار، أخبار الحي والميت، لكن قل لي يا شيخ وحياتك، هل النخلة الفردانية في الناحية القبلية من البيت كما هي؟

وقال رجل في صحن الجامع: القديم اليوم كان بالأمس جديدا، وان الجديد اليوم سيغدو قديما ذات يوم..

وفيه عبر خالد ميداناً فسيحاً والوقت شفقي والسماء بها غيوم بنفسجية واهنة معلقة في الأعالي، وحركة ما قبل المغيب تقترب من ذروتها، ومجذوب مشغول عن الخلق بمناجاة السماء، ومئذنة المسجد تتأهب لولوج الليل الآتي، يراها ذات رشاقة أنثوية، من يدري.. ربما كان لهذه الأبنية لغة غامضة تتخاطب بها، تبدي الجدران رأيها بما يجري داخلها، وتتململ لكثرة ما جرى، ولطول وقفتها، فتنهار طواعية، من يدري؟ الا تتألم الأشجار من حز المنشار؟ وصوت الرياح، هل من

المعقول انه لا يعني شيئاً؟ ونظرات الحيوان، الا تضمر رأيا فيا تراه؟ الا تتألم الطرق لكثرة منحنياتها، وشدة الدهس فوقها، ربما تدري أمه بما لا يعلمه عندما تطلب منه الا يخبط الأرض بقدميه، فالأرض سبع طبقات، وكل طبقة مسكونة، ولكل منا شقيق بينهم..

وفيه دخن برنق مع عدد من العمال، نفث الدخان بشراهة، قال أحدهم انه صاحب مزاج، قال آخر، يضع سره في أعبط خلقه، لحق بهم الوتيدي، أبدوا ترحيبا به، مدوا اليه الجوزة لكنه اعتذر، انه لا يدخن أبدا واستشهد بالامبابي، وهنا سأل أحدهم برنق عن النساء، فقال انه ضاجع عدداً لا يحصى من المتزوجات في هذه الناحية، ضحكوا.. ان برنق يحلم. قال الوتيدي: ما رأيك في الزواج من أجل محروزة بالدار؟ تساءل برنق: من يعني؟ قال الوتيدي: الست رونق مثلا؟ أومأ برنق: سيحدث هذا.

.. ودخل العشري المحرر العلمي للأنباء، سأله الاستاذ عن أخبار الكون، قال ان نجوما ماتت، ونجوما تولد الآن، انه يطلب السماح بتنظيم حملة صحفية يدخل في اطارها عقد ندوة علمية.. يحضرها كبار علماء الفلك في الشرق والغرب، موضوعها ضرورة البحث عن مكان جديد لكوكب الأرض، ان ما يؤرقه نهاية الشمس الحتمية بعد خمسة آلاف

مليون عام، ستتمدد وتنفجر ثم تضمر بعد تلاشي كل التوابع، ويصبح كل من عاشوا ذرات في الفضاء تدخل في تركيب نجم جديد، أو تصير الى عدم، ستختفي الحياة قبل ذلك بكثير لأن البرد الأزرق سيدثر كل شيء، هل نترك الانسان يتلاشى؟ هل يضيع كل شيء؟ تساءل الاستاذ عن الحل؟ قال العشري إنه سيدعو الى تصور مبدئي، ان تصمم قطارات هائلة، تشد كوكب الأرض، تفكه من اسار الشمس، والمضي في أعماق الكون بحثا عن مدار ملائم حول نجم مناسب، هز الأستاذ رأسه، قال العشري انه يود تنبيه الناس، سأله الأستاذ عن مركز الكون؟ قال العشري انه لم يصل اليه بعد..

وفيه أخلي المنزل المكون من طابقين بعد أن أصبح آيلا للسقوط..

وحطت عصافير ثلاثة فوق الإيوان الشرقي للمسجد، وتردد صدى صوصوتهم كأنه آت من دنيا بعيدة غير مطروقة، أو أصداء عتيقة لرائحة عطر فاحت من رداء رجل دين مات منذ قرون..

وفيه أضيئت نوافذ عديدة مع نزول الليل، وظلت نوافذ مطفأة..

ونشرت الأنباء أخبارا عن سراديب متصلة اكتشفت أثناء عمليات حفر عادية ناحية الشارع الثالث، ذكرت آراء أساتذة وتفسيراتهم، وشغل هذا الناس، وعجز العمال الذين يعلمون في الحفر عن تلبية فضول الناس، ما هي الأصوات العجيبة؟ هل عثروا على بلاليص مليئة بالعملات الذهبية؟ هل ستتعرض البيوت القريبة للسقوط؟

وفيه وصل الى الأستاذ كشف دقيق يضم أسماء كافة المشتغلين بالتجارة في الآثار، وسرقتها وتهريبها، وتقليدها المتقن، قدر فترة زمنية للاتصال بهم، ثم ضم عدد غير قليل من اساتذة الآثار، ثم نشر وعي الاتجار وسرقة الآثار القديمة، قال الاستاذ لنفسه: ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تطرح فيه المومياءات في المزاد، وتفك أقدم المعابد وتصدر الى الخارج..

وفيه تطلع صاحب الفندق القديم المبني على الطراز الايطالي الى نوحة تولوز لوتريك، انها لوحة صغيرة، زيتية، فيها ثلاث نساء يجلسن في مقهى، وعلى وجوههن أسى، وتأمل، ومعنى، انها اللوحة الاصلية الوحيدة في كل الخطط لتولوز لوتريك، يضعها صاحب الفندق داخل اطار زجاجي في مدخل القاعة الرئيسية..

وحكى الحاج علي بأسى للمعزين كيف جاءت النهاية؟ قال ان شقيقه قام من الدكان، وصل الى البيت، لم يكن

مريضا، ولم يشك أي شيء من قبل، فتحت امرأته الباب، صاح أولاده فرحين، فجأة تكوم كالجوال، لم يرد منطق، وهنا استرد صاحب الأمانة امانته، قال ان شقيقه ترك ثلاثة أطفال صغار..

وفيه جاء الأخبار الى الأنباء بأن الدكتور الطنبولي أصيب بنوبة قلبية. لطمت كريمة وقطعت شعرها، وأصدر الاستاذ قرارا بان تتولى رونق مسؤولياته أثناء غيبته..

وفيه ضحك المعلم الياس عاليا..

وسألت المرأة التي مضى على زواجها عام: الا زلت تحبني؟ هز زوجها رأسه: طبعا، طبعا..

وطفش حفظي من بيته بعد تردد طال أمره، وسبق ذلك خناقات، وعندما قال لامرأته انه لا يطيق وجهها، ارتمت فوق الأرض، لطمت وجهها ورطنت بالفرنسية، ظنها تسبه، وجه اليها شتائم تمس الأم والأب، والجد الأول، والجد الثاني، بكت طويلا لأنه لم يسبق لأي انسان ان اهان والدها الذي مات برتبة لواء طبيب، بعد تاريخ طويل ومشرف في سلاح الخدمات الطبية، صاح حفظي ان والدها لا يعنيه، ان ما فسد لا يمكن إصلاحه، والخرق لا يمكن رتقه، وما تبعثر يستحيل لمه، سيرسل إليها كل ما تحتاج إليه، لاذ الوالدان بحجرتها،

بكى سمير، تشنج صفوت، سمعا أمها ترثي حياتها بالفرنسية، وسوء اختيار أشقائها ورغبتهم في الخلاص منها لأن بقاء البنت بدون زواج عار، لكن لا عار يشبه ما تعيشه الآن، زعق حفظي انه سيقوم بواجبه، لكنها لو تمادت فلن تحصل منه على مليم الا بواسطة المحكمة، وبعد ان ترى النجوم في عز الظهر. خرج حفظي يحمل حقيبة ملابسه، شم هواء الطريق، مشى خفيفا، طربا، وقال: يا أيام زمان ارجعي. رتب أموره من قبل، استأجر حجرة مفروشة فوق سطح احد البيوت وسط المدينة، اشترى راديو، ركب مصباحا قويا، ومصباحا خافتا، ومرآة في مواجهة السرير ليرى عريه وعري من سيضاجعهن، كانت امرأته تصر على اطفاء الضوء، وتغمض عينيها كأنها تقوم بمهمة شاقة، ولا تتثنى ولا تنحني ولا تتأوه ولا تغنج. في أول ليلة أكل بمفرده نصف كيلو كباب ورغيف وطبق سلاطة خضراء، اغتسل جيدا، فرد ذراعيه، لعب حاجبيه، تعرى، لم يرتد البيجامة أو ملابسه الداخلية، راح يتخذ أوضاعا مختلفة متأملاً نفسه في المرآة، حمد الله لأن الأوان لم يول بعد، والصحة لم تهن تماما، وما زالت بقية يمكن بها استعادة الأيام التي ولت..

وفيه توقف المنادي بين البيوت المطلة على الشارع الرابع.. زعق: بنت تاهت يا أولاد الحلال..

وقالت الممرضة: مبروك.. جاءك عريس..

وفيه عقد قران عطيات الممرضة على محمد أمين الموظف، تابعت الحارة الزفة، وتأكد الجيران ان الدخلة ستنتهي على الطريقة الافرنجية، بدت عطيات نضرة، شعرها يصل الى مشارف الردفين، لا تغيب الضحكة عن وجهها، كأنها استحمت بزيت اللوز، ثم سرت أخبار بظهور علامات الحمل، من جفاف ريق، ودوخه، واشتهاء أكل الملوحة، والبطيخ في غير أوانه..

واكتشف قنديل الازهري نسخة من كتاب أصل الأنواع لداروين بين كتب ابنه الأكبر حمدي، حملق مرعوبا، ارتعش لدقائق، تلفت حوله خشية أن يكون قد رآه انسان، كتاب أعجمي، مصيبة، سكب بترولا وأشعل نارا، لم يطمئن الا بعد تفحم الأوراق، ردد: استر يا كريم، ألطف يا ساتر. عندما جاء حمدي صفعه بلا مقدمات، كادت أمه ان تصرخ مستنجدة بالجيران، ارتمى قنديل الازهري مرهقا، معلنا انه لو رأى كتابا من كتب العجم مرة أخرى سيخنق ابنه بيديه. قال حمدي: إنه كتاب مباح، موجود في السوق. زعق قنديل بصوت مبحوح: المهم الا يكون موجودا هنا يا حمار، وأشار الى دماغ ابنه..

وسأل فلاح عجوز عن الطريق المؤدية الى الحي السابع..

وأبدى الأستاذ ضيقه لأن جعفر ذكر شدة تعلق الوتيدي بامه، وعمله الدائم على ارضائها..

ورقد خالد يصغي الى أنات الحارة وأصواتها الليلية، وايقاع تنفس شقيقه اسماعيل..

في القصر القديم أدارت ايثار بمؤشر الراديو..

وأغلق مجدي فوزي كتابا،

وقال بعض العجم: لا بد من الانتقال الى المقاومة الايجابية..

وصلى شيخ المرابطين ركعتين،

وكانت السماء صافية بالنهار، ولم يشعر الناس بالفروق الدقيقة بين يوم وآخر، ونهار، ونهار، وسافر كثيرون، وحل بمحطات الوصول كثيرون، واقترب البلشي من الوتيدي وطلب منه ان يعده بالغناء ليلة فرحه، قال الوتيدي: اذن سننتظر مائة سنة.

وفيه ايقن الأستاذ ان القطوف دانية، وإن لاحت صعاب..

* * *

شارعان متصلان، يعرف أحدهما بشارع الوتيدي

.. تبدو أثيل في أوله، قطعت حواري، وأزقة، وأسواراً، لكن عندما استدعتها رونق اضطربت، اللحظة المناسبة تقترب، كيف ستتجاوب مع نظراته؟ لم تره الا في الجامعة عندما جاء ليحاضر، اختارها لتعمل في الدار قبل تخرجها. منذ مجيئها تعمل بمكافأة، لم يصدر قرار بتعيينها حتى الآن، لم يظهر اسمها على صفحات الجريدة، أبدت امها امتعاضا، تود ظهور اسمها لتتباهى به على الجارات والقريبات، تنقبض اثيل اذ تذكر امها، كيف ستواجهها بعد أن يحدث ما يحدث؟ هل ستكشف تغيرا؟ يقال ان بعض اجزاء الجسم تستدير. تفتح رونق ذراعيها، انصرف جعفر، أرعب اثيل بنظراته وتحجره، تقول رونق ان الأستاذ راض تماما عن اثيل، لهذا حرص على لقائها قبل أية زميلة من دفعتها، اللقاء مهم جدا، والانطباع المتبقي لدى الأستاذ سيحدد امورا عديدة، طلب منها أن تقوم، أن تلف، أن تجلس، قالت ان القوام رائع، ثم

سألت، هل أصيبت اثيل بأي مرض غير عادي؟ للحظات لم تفهم اثيل، ثم هزت رأسها نفيا، تبدو وكأنها مقبلة على عملية جراحية، وتمر بغرفة التحضير، تتأمل قوائم المكتب القديم، يقال إن الأستاذ في البداية أحضر بعض قطع الأثاث من بيت عائلته، ويشير اليها العاملون الآن باحترام، فجأة تقوم رونق، تحتضن اثيل بقوة، تقبلها بشراهة، تمر بلسانها على وجنتيها، تتراجع، وجهها غامض، ترتعش اثيل، تقول رونق: ادخلي..

زقاق المفاجأة..

كل شيء غير مألوف في هذا الزقاق، أبدى الأستاذ ترحيبا بالوتيدي عندما طلب منه الجلوس ظل واقفا، انه يخجل لأن قامته أطول، وجسده أضخم، يحاول خفض عنقه، أصر الأستاذ على جلوسه، لامس حافة المقعد وبدا مستعدا للوقوف فور ظهور أية علامة توحي بأن وضعه غير مناسب.

هل تعرف أثيل؟

زميلتنا.. طبعا.

ألم تلحظ شيئاً؟. كيف؟، هل تهون المشاعر الى هذا الحد؟ اثيل تحبك، نعم، تحبك، تابع الأستاذ بسرعة، انه لا

يحب اهدار المشاعر الانسانية، اثيل انسانة ممتازة، اسرتها طيبة جدا.

في هذه اللحظة بدأ انهيار خفي داخل الوتيدي، انهيار يهدد أشياء طال ثباتها، في البداية كان الأستاذ عطوفا، لكن نظراته اكتست حدة مفاجئة، حاول استعادة ملامح اثيل، لم يستطع مع انه يراها يوميا، لا يذكر انها اهتمت به، انه بحاجة الى قبو لينفرد فيه، لكن الأقبية كلها في الخطط خصصت للأستاذ وحده، ثمة أيدي ثقيلة تدفعه الى اتجاه غامض، لا يدري ما المراد به؟

أثيل تعود الى بداية الشارع..

في هذه المرة تبدو رونق جافة، شرسة، تعمدت أن تتشاغل، قلبت الأوراق، ودليل التليفونات، رفعت عينيها فجأة، ثم تقدمت من أثيل، راحت تدس يدها في صدرها وأخص بطنها، رفعت ذراعها الى أعلى، ضحكت، تذكرت اثيل رائحة الأستاذ وجسده الأبيض الضخم في عريه كحوت يسبح في فراغ، تذكرت الرائحة التي صاحبت عبورها من دنيا الى دنيا، ظنت أن الأمر سيتكرر الآن، لكن الأستاذ سألها ببرود: اتعرفين الوتيدي؟

منحنى مفاجىء

بدأ البلشي وكأنه يزحف على أربع..

« ألم أقل لك، ألم أقل انني سأغني في فرحك قريبا.. »

نظر اليه الوتيدي دهشا،

هل تخفي علينا؟؟ لم أعرف والله إلا من اللوحة... ألم تقرأ؟؟

قرض الوتيدي شفته حتى كادت تدمى..

« يسر الوتيدي، وأثيل، دعوة كل الزملاء لحضور عقد قرانهما يوم الخميس القادم.. » قال البلشي، انه يذكره برغبته، ان يغني في فرحه..، ثم تساءل، اذا ظهرت الآنسة المصونة أثيل.. هل يخبرها بأي شيء؟

الشارع المجاور..

لا.. لن يحدث، لن يتم، لماذا يأمره بما لا يطيق؟ هل يريد منه ان يصلح ما ارتكبه هو؟ لا يصدق انها تحبه، اللافتة صفعته، دست سكينا في قلبه. لو أعلنت عن خطوبة لهان الأمر، لكنه عقد قران، زواج، لو خطوبة فقط لقبل، ثم ينهي كل شيء بعد شهر أو شهرين، لكنه باغته، لن يحدث هذا ولو أدى الأمر الى مفارقة هذا الشارع. بل الخطط بأكملها، أليس اختفاؤه يبدو مبررا الآن؟ لكن.. لكن الى

أين؟ لن يكتفي بفصله، لن يدعه في حاله، ربما سلط عليه من لا يقدر عليه، ربما جعل عودته الى النادي حلما، في لقائه أول مرة به تفتحت طاقات الأمل، لكن أي مجهول ينتظره لو حاول الفرار؟ لو خرج الى أحد الأسوار ربما فقد ملامحه، انه منفرد بأزقة وحواري الآن، وتدور حوله شخصيات، هل يغادر بغير رجعة ويختفي من الخطط والمباني والمساجد والزوايا؟ الأمر صعب، « الأنباء » الآن في دمه، انه يقول « جريدتنا »، يرقب النسخ المتبقية عند الباعة، يقارن بما تبقى من الصحف الأخرى، في المبنى يطفىء اللمبات التي تضيء في وضح النهار، اذا سمع خريرا يدخل دورة المياه ليغلق الصنبور، يدركه السرور أثناء تواجده بين زملائه فيرفع صوته « الوتيدي يحييكم »، يتذكر حاله عندما كان خارج الخطط بأكملها، كان يتهيب الاقتراب من الصحفيين اعضاء النادي، يحاول اقصاء الضجة عنهم وتوفير الهدوء لهم، يخيل اليه انه لو شاركهم جلستهم فلن يستوعب ما يقولونه، ثم يتغير الحال في الخطط ويصبح واحدا منهم، طلب منه التنوخي أخبار الأستاذ في النادي، ضاق في البداية ثم اقتنع نفسه ان ذلك لا يحوي ضررا، طلبوا منه أن يصاحب العمال، بدا له تعمد ذلك منفراً، لكنه هدأ عندما اقتنع بأنهم يقصدون حماية الدار، وحتى لا يتسلل أحد العجم، عبر

الخطط كلها لم ير الوتيدي أعجميا واحداً، لكنه الآن يؤمن بأن العجم شر مهول ينبغي اجتنابه، أحيانا يود لو رأى أحدهم، يتوقع أن يرى مخلوقاً مخيفاً، ربما له رأسين، أو سيقان الماعز، كل ما طلبوه أزعجه في البداية، لكن مع مضي الزمن لم يؤذ أحداً، ولم يضر انسانا، فهدأ منامه، أما هذه المرة فالأمر يختلف، ثم انه لا يعرفها، ولم تبد اهتماما به، ليحاول انهاء هذا الموقف بأقل الاضرار، لكن.. هل يقبل الأستاذ؟ ان لدغته والقبر، ربما لفق له قضية، العناني لن تنقصه الأسباب، عند وصول الوتيدي هذه النقطة من الشارع المجاور ناشد نفسه بضرورة التعقل، فليبق في الخطط مسافة أخرى بصحبة أثيل، حتى يقع ما لا يستطيع تحديده، يضع الأمور في نصابها، ويعيد الأشياء الى طبيعتها، أما الآن فليحاول أن يداوي الأمور الصعبة بالعقل، وان ينتظر ذلك المجهول الذي يخلصه، من يدري؟ ربما ماتت خلال هذين الاسبوعين ربما جرى أي شيء، لماذا يتعجل الأمور؟ اذن ليرجع بحذر الى شارعه.. ربما فسروا اختفاءه تفسيرا خاطئا وما أكثر المشككين والمضللين هنا، عند اقترابه من الشارع فوجىء بالعناني يصيح عليه:

يبدو انك تقعد على اذنيك عند اختلاطك بالعمال..

لماذا؟؟

الأستاذ قلب الدنيا عليك

تساءل مكروش النفس عما جرى؟

قال العناني ان ادارة أمن الخطط اعتقلت الأسطى الخضر عامل الليونتيب..

قبضوا على الخضر؟

أكد العناني ذلك، قال إنه من عتاة العجم، قال الوتيدي إن هذا مستحيل، انه يعرف الخضر كما يعرف نفسه، انه أكثر العمال شهامة، لم يبد منه ما يضايق انسانا لا داخل الخطط أو خارجها، قال العناني: انت اذن من العجم.. اذهب بسرعة الى الأستاذ، تلك سابقة لم تحدث أبدا في تاريخ الأنباء..

درب النكد

أين كنت؟

أوشك أن يذكر مرض أمه لكن لسانه لم يفلت الكلمات لما تتضمنه من فأل سيء، خاصة انها تشكو ضعف البصر وجفاف الريق وشدة الصداع، ضاق لأنه أوشك على اتخاذ أمه كحجة يبرر بها غيابه، لم يمهله الأستاذ، قال إنه كان يعتبره عينا على العمال، لكن يبدو انه وضع ثقته في غير محلها، يخاف الوتيدي حتى لترتعد مفاصله، يبدو انه سيطرد، هل عرف الأستاذ ما فكر فيه عندما لجأ الى الشارع الخامس؟ لو لمح الى موضوع

أثيل لقبل الزواج منها فورا حتى يرضيه، المهم أن تنتهي هذه اللحظة، لا يعرف كيف يجيب الأستاذ؟ بل انه مقتنع الآن بارتكابه خطأ ما، لم يدر ما هو، لكنه اخطأ وانتهى الأمر، يقول الأستاذ انه يحارب العجم في الخطط وخارج الخطط، ثم يفاجأ بأن أحدهم تسلل الى الدار، وأين.. بين العمال، لماذا؟ لأن أحد رجاله المخلصين أخطأ، لا تفوت الوتيدي الجملة الأخيرة وصفه بأنه أحد المخلصين، أهو عتاب اذن؟ أهو لفت نظر؟ انه لم يثبت بعد، وليس له ملف، ويقبض مرتبه من رونق أول كل شهر، بامكانه ان يطرده الآن، ان يضيعه، هو الذي لا يجيد حرفة أو مهنة، يطلب الأستاذ فجأة ان يكلمه عن الخضر.. ماذا يقول؟ يود أن يعرف ما سيرضي الأستاذ، لكن من أهم ما تعلمه هنا، من أهم ما شدد عليه العناني أثناء تدريبه ان ينقل شفاهية بلا زيادة، أو نقصان، أما الكتابة فأمر آخر، وفن يسأل عنه الكولي، المهم.. الدقة الصارمة في الرواية الشفهية، قال ان الخضر كان على خلق، يعرف الواجب، محبوب، له تأثير قوي، غريب على من يحيط به، أية خناقة هو الكفيل بفضها، الكل يسمعون كلامه مع انه ليس أكبرهم سنا، ولحظة دخوله المقهى تتحول العيون اليه ويتنافس الجالسون على استضافته، وفي احدى المرات تاه طفل لعامل في التجليد، كاد يجن، وغاب الوتيدي ثلاث

ساعات ثم عاد بالطفل، وقيل إنه لف الشوارع كلها، والأزقة، وسأل في نقاط التفتيش، ولم يهدأ حتى عاد بالطفل، قال الأستاذ: انت مخدوع فذلك هو أسلوبهم، لكن الوتيدي أكد أن الخضر كان يبدو طبيعيا، سلسا كالماء، وكان يوصف بانه يخفف الجراح المستعصية ثبت الأستاذ نظراته في اتجاه الوتيدي حتى تفصد عرقه وكاد يبول على نفسه، انه يريد من الوتيدي الانتباه جيدا، تنفس بهدوء، وانتظمت دقات قلبه، لا شك أنه أخطأ، الرجل صاحب فضل عليه، غير حياته، انه يلوم نفسه لأنه تسبب في مضايقته، يود ان يعتذر، لم يفتح الأستاذ موضوع أثيل، تنتهي المقابلة، تسأله رونق عن الأخبار فيقول ان من ظنه موسى طلع فرعون، تطلب منه ان ينتبه، تسأله عن أخباره الأخرى، يدرك انها تقصد اثيل فيقول بسرعة ان كل شيء سيتم خلال الأسبوع المقبل، انها مدعوة طبعا، تطلب منه ان يعتبرها كأخته، فيقول إنها أخت حقيقية، تسأله عن استعداده، يقول إن كل شيء يمكن تدبيره، تقول انه سيحتاج الى ملابس، الى نقود، يقول ان الإنسان لا يعاني في الحصول على تكاليف الزواج أو الموت، تلوح رونق، أمرت بتقديم سلفة قدرها ألف جنيه، ستقسط على ثلاثين عاما، يبدي تأثره، تقول ضاحكة انه لن يتعامل مع الطنبولي لمرضه، انما سيمر على كريمة لانهاء بعض الاجراءات،

في هذه اللحظة يظهر الأستاذ، يسأله، هل زرت الدكتور الطنبولي؟ أومأ الوتيدي مجيبا، قال الأستاذ، وهل سمعت عن أي زميل ذهب اليه؟ هز الوتيدي رأسه، تمتم، انه الواجب، استدار الأستاذ مبتعداً، وخاف الوتيدي مرة أخرى من لهجة الاتهام...

منحنى أثيل

فجأة، رآها أمامه، أراد ان يجنبها حرج اللحظات الأولى، والإرتباك المصاحب للبحث عن مفتتح للحديث، قال إنه انتظرها ولم تأت، اظهرت تجاوبا وفهما، حرص على الحديث بصوت مرتفع، انه لا يعرف الهمس، مكالماته التليفونية تسمع من مسافة، ربما انتظر الأستاذ نص الحوار بينهما، لأول مرة يلتقي بها، بخطيبته التي لا يعرف اسمها الكامل، يقترب منها البلشي، انه يمقت هيئته، تذكره بقرد مسلوخ، في انحنائه تهكم، عيناه تتجهان دائما الى أعلى لقصر قامته، في أشد أيام الحر يرتدي جاكته، وتحتها صديرى، يخيل للوتيدي ان قفصه الصدري لا يكسوه الجلد أو اللحم، قال البلشي ان الآنسة المصونة سألت عنه مرتين ولم يره حتى يخبره، ضغط اسنانه حتى لا يستشف البلشي ضيقه، في هذه اللحظة مر الكولي صاح: « هنيئا لك يا عم »، يجيب الوتيدي:

« عقبى لك يا عم ولو ان الزمن فاتك » قال الكولي: « أنا أشد منك »، قال الوتيدي إن الجواب يبدو من عنوانه، البلشي بينهما ينقل البصر مبتسما، أثيل كأنها لا تسمع حوار الكولي، والوتيدي، انصرفا، أخيرا اصبحا بمفردهما، شعر كأنه غمس في ماء دافىء، فوجىء بانتصاب عضوه، مما أحرجه، لكن بماذا قصد الكولي عندما هنأه؟ هل حاول التعريض به؟، هل عانق الأستاذ خصرها النحيل وتحسس ردفيها الممتلئين؟، الغريب ان هياجه تزايد عندما تخيل أثيل مع الأستاذ في أوضاع مختلفة، انتبه الى الصمت الثقيل بينهما، استعاد احاديث رواها البعض عن اللقاءات الأولى، لكنه لم يسمع عن موقف مشابه جمع بين اثنين في مثل ظروفهما، قال ان الخطط في حاجة الى كازينوهات عديدة، أومأت، قال انه يسمع من المعمرين عن مقاهي الخطط في العشرينيات وملاهيها، والمناظر والحدائق، واللون الأخضر الذي كان..، انه يحب الجلوس في النوادي، سكت، وتذكرت اثيل ما يقال عن عمله خادما وظهوره في صور قديمة التقطها البيجرمي له، يحمل الفوطة لأحد اللاعبين، أو يلتقط الكرة من وراء المرمى، أطرق الوتيدي، أخطأ عندما تحدث عن النادي، قال انه يحب الحدائق، قالت وهي تنظر اليه بثبات: لكنني لا أعرف شيئاً عنك..

صوت مجهول..

قال الإمبابي: أين انت.. انني أبحث عنك..
قال الوتيدي: كنت في طريقي الى الآنسة كريمة..
قال الإمبابي: رد على التليفون..

قال الصوت الذي لم يسمعه الوتيدي أبدا إنه صديق، تساءل، هل يعرف الوتيدي انه مجرد غطاء، الكثيرون يقولون انه طمع في علاوة، زعق الصوت: «انطق يا نطع». لم يستطع الوتيدي أن يرد، صوته مرتفع بطبيعته، ربما أثار فضيحة، لكن ما أدهشه انه أثناء مروره أمام غرفة التليفونات صاح عليه الامبابي، لماذا لا يخبره بالمكان الذي يجلس فيه، التنوخي قلب الدنيا بحثا عنه منذ دقائق، قال الوتيدي، لكنك حدثتني منذ لحظات، هز الامبابي رأسه: لم يحدث، نظر اليه الامبابي، وجهه محاط بالسماعات، هل تكذبني ما من انسان طلبك اليوم، لا من الخارج أو الداخل..

جزء من خلاء غير مطروق

.. يتصل هذا الجزء بالخلاء الموجود في الشارع الثالث، شارع الوشاية، جاء الجعيدي لأن أموراً وقعت ولا يمكنه التعليق

عليها همسا أو علنا، لكنه لم يلتق بصاحبه مفتش الصحة الذي أصيب بوعكة معوية على أثر تناوله أقة كاملة من البقلاوة المحشوة بالبندق واللوز أهداها إليه حلواني افتتح دكانه أخيرا، صحب الجعيدي رضوان أفندي كاتب أحد الفنادق القديمة، وهاو قديم لاصلاح الآلات الموسيقية، ويقال انه أفضل من يضبط أوتار البيانو، وكثير من الفرق العالمية ترسل اليه أجهزتها لاصلاحها، بعد توغلها في الخلاء قال الجعيدي ان الفاجر لا يزداد الا فجرا، خفض صوته، صحيح ان الخلاء غير مطروق ولن تظهر فيه أية شخصيات أخرى، لكن، من يدري؟ الحرص واجب، قال ان الرجل الفاجر اعتدى على بنت حلوة، وظريفة، استنكر رضوان ما يسمعه، وهل بنات الناس لعبة؟ قال الجعيدي ان الأمر عادي الى هنا لكن عين الفجور انه زوجها من محرر، تساءل رضوان، هل قبل النطع؟ قال الجعيدي ان النطع هذا في حجم فلق النخل، لكنه كالنملة أمام الأستاذ، بعد صمت شعر خلاله رضوان ان الجعيدي فضفض عن نفسه، قال ان فرقة كبيرة من استراليا أرسلت اليه بيانو لاصلاحه، يا ترى.. كم يطلب لاصلاحه؟

زقاق التحريض..

شك، حيرة، خجل، أسى على أيام لن تعود، تساؤل عما سيأتي به الغد، هذا ما أثقل الوتيدي الذي دخل الزقاق

لمقابلة التنوخي، وعندما قوبل بترحيب، وسؤال عن صحة اثيل انتابه كمد وضيق، خيل اليه ان التنوخي غمز بعينه، سأل نفسه عن مكان أثيل الآن؟ هل تنفرد بالأستاذ؟ هل هي في الطريق إليه؟، قال التنوخي ان البعض ينسى نفسه وأصله، هل تتصور ان الجعيدي يشنع بالأستاذ؟ أبدى الوتيدي دهشة، قال ان الجعيدي يشيد بالأستاذ دائما، قال التنوخي ان هذا في الدار فقط، لكن عند اختلاطه بالناس فانه يسب ويلعن.. بل انه يفتري على بعض العاملين الشرفاء، وهذا يؤثر على سمعة الجريدة، قال الوتيدي إن الرجل مخطىء لو فعل ذلك، أبدى التنوخي استنكاره، هل يشك فيما يقول، ثم.. هل هذا رد فعل مناسب لما سمعه؟ توقع ان ينطلق، ان يلقنه درسا، قال الوتيدي إنه لن يحتمل صفعة، اشار التنوخي، هذا ما يريده، يريد صفعة أو صفعتين وأكبر عدد من الاهانات، على مرأى من كاميليا بالذات، ليتذكر ان الاهانة لحقت أولا بالأستاذ، هل يغفر لانسان يشوه سمعة الاستاذ؟ قال الوتيدي انه على استعداد لعصره وتحطيم ضلوعه، ضحك التنوخي، المطلوب أقل من ذلك بكثير..

منحنى ..

وأوله تساؤل، هل كان الوتيدي عدوانيا؟ والاجابة ستأتي في موضعها، لكن الآن يدخل الوتيدي زاعقا باسم الجعيدي، لهجة منذرة، تنبىء بشر، أمسك بعنقه، رفعه بيد واحدة، حرك ساقيه، عيب.. عيب.. أنا أكبر منك، زعق الوتيدي، ان هذا الرجل يدس انفه فيما لا يعنيه، ويخوض في الأعراض، اتسعت عينا الجعيدي حتى استدارتا، لم يدر ما سيفعل به، حرك العناني يده، ألم ينذره من قبل؟ تدلت شفتاه، بدا خاليا من أية نية لدفع الأذى عنه، هرعت نظراته الى كل الوجوه، حتى كاميليا، يرفعه الوتيدي ثم يخفضه ثم يرفعه، تزايد حجمه ضآلة، وبدا كأنه الاهانة نفسها، ود الوتيدي لو انه أبدى رد فعل، لو قاومه، لكنه فوجىء بالجسد يتدلى لينا، طريا كخرقة، ماذا يفعل بالرجل وبنفسه؟ عملتها يا وتيدي؟ بينما وجهه يبدي تعبيرات مختلفة عما يدور داخله، لا يمكنه التراجع، كاد ضيقه ان يدفعه الى مزيد من القسوة لكنه حاش نفسه خرج مبتعدا عن الفضول والشماتة، قبل نهاية المنحنى فوجىء بأثيل، جادة غاضبة، كيف علمت بما وقع؟ قالت إن ما جرى مؤسف، ان الرجل لم يقل عنها ما يستحق، ان تصرفاً كهذا سيثير اشاعات حولها من لا شيء.. لم يعلق، شعر بالحاجة الى الانفراد بنفسه بسرعة..

مرحاض عمومي

.. الى هنا يستطيع اللجوء بسرعة الآن، أحكم اغلاق الباب، بسرعة فك ملامح وجهه، أرخى لتعبيراته العنان، هنا لن تناله العيون، ماذا فعل الجعيدي له؟ عينا الرجل المستسلمتان، الضعيفتان، المهانتان، آه لو يبكي، لو يخرج ويتجه الى نفس المنحنى السابق ويعتذر علنا له، لكنه ترفق به، لم يضربه كما طلب التنوخي، لكن الجرسة والفضيحة في عينيه، أصر التنوخي على حضور كاميليا، لا بد أن الرجل يضمر شيئاً تجاهها، مهما أبدى من همة في خدمة زملائه فلن ينسى ما جرى منه، لماذا يستجيب لكل ما يطلب منه؟ لماذا يرفض ثم ينثني ويتراجع عند المواجهة؟ ان غما ينفرد به، اسند ذراعيه الى الجدار، شد اذنيه حتى الألم، ضرب صدره، غاص باسنانه في شفته السفلى، شد شعر رأسه، تهدجت أنفاسه، انتظر خمس دقائق، ثم جذب مقبض صندوق الطرد ليوحي انه قضى حاجته، انتظر دقيقة وكأنه يرتدي ثيابه، فتح الباب، يخفق قلبه مرعوباً، يقف البلشي مبتسماً، يلحظ احمرار رقبته القاني، والفم المسفر عن ابتسامة كطنين الذباب، يقول البلشي ان قلبه حدثه انه في الداخل لهذا انتظر، انه يرجوه المرور على الآنسة كريمة..

زقاق ضيق يصعب الوصول اليه

في أوله قدر كبير من الكراهية في عيني كريمة، تبدو متجهمة منذ مرض الطنبولي وأحيانا تبدو فرحة، لم يدر انسان حقيقة مشاعرها، اجابها الوتيدي بانه سيتزوج بعد اسبوعين، انه يخجل عندما يفضي بالخبر الى احدى الزميلات كأنه كان المفروض ان يتزوج بمحدثته ثم أخلف وعده، يتذكر ما يقال عن كريمة، منذ أيام رفضت شاباً محترماً لأنه ليس خريج التجارة شعبة المحاسبات، تتحرك لديه رغبة في المداعبة ازاء حديثها، يقول إن الأمور هانت فلن تمضي أيام الا وسيجمعهما عش واحد، تسأله، هل أمنت على البيت؟، هناك اخطار عديدة، ربما انفجرت انبوبة البوتاجاز في وجه اثيل.. صحيح اذا حدث ذلك هل سيتزوج اخرى؟، لا يرد الوتيدي، تقول انها متشائمة من هذه الزيجة، تقف ممسكة دفترا، لو ان الدكتور الطنبولي هنا لما استطاع صرف مليم واحد، تقلب أوراقا، وملفات، ومظاريف، تنظر اليه، حدة، كراهية، ألف جنيه؟ مرة واحدة؟ ما ذنب الدار؟ لقد اخطأ الأستاذ في هذا القرار، كم من قرارات خاطئة بعد مرض الطنبولي، انه يوقع فقط لكنه لا يشعر بمدى الفراغ الذي يحدثه خروج مثل هذا المبلغ الى جيب من لا يستحق!

امتداد الشارع الرئيسي

مع قرب انتهاء الشارع أصبح الوتيدي يظهر عكس ما يبطن، ليس في الأزقة والحواري فقط، انما في غرفة نومه، يسألونه عن رأيه في الزواج، كأنه أول وآخر المتزوجين، يقول من وراء القلب انه نعمة من نعم الدنيا، سارت الأمور على عكس ما أراد، منذ أيام الخطوبة القصيرة أدرك انها لا تطيقه، قالت ان حجمه ضخم وملفت للنظر، طلبت ان يتحدث بصوت منخفض، في الأسبوع الأول تمنعت عليه، صارت تبكي وترتعش كلما هم بالاقتراب منها، في منتصف الليلة الثامنة دخل الحجرة ليجدها عارية تماما، رأسها تتوسد ذراعيها، قالت: تفضل، خاب المرة تلو المرة، لكن الطبيب قال إن ذلك طبيعي، والذين أطلقوا عليه شهر العسل ضحكوا على العرائس، بعد أول مرة تمدد صامتا ولم يدر ما يجب قوله، تذكر ما قاله زملاؤه عن غشاء البكارة أثناء دراسته الاعدادية، إفاضتهم عما يجب اتباعه حرصا على راحة العروس، الغريب انها لم ترتبك ولم تبك ولم تفه باسم الرجل الأول إنما أدارت ظهرها وشعر بأن عينيها مفتوحتين طال صمت، دخل دورة المياه، ماذا يجب ان يفعل؟ هل يخرج زاعقا؟ هل يستدعي امها ويشرح الأمر؟ أم يصارحها بضرورة انهاء حياتها؟ صاغ العبارات اللازمة لكل موقف

لكن كيف سيكون رد الفعل في الأنباء؟ لكنه لماذا يتجاهل التليفونات التي طاردته؟ والجو المريب في الدار؟ ترى.. كيف تم ذلك؟ أين؟ في أي غرفة داخل الخطط؟ أي ثوب كانت ترتدي؟ كيف تجردت من ثيابها؟ أي انفعالات تعاقبت على وجهها، هل ظلت جامدة كما حدث معه؟ فوجيء انه يحاول تخيل متعتها. هل يخبر امها؟ لكنه يكرهها، تضع الكحل طبقات، وأحمر الشفاه الفاقع، صباح كل يوم، لديها مفتاح الشقة، تدخل مباشرة، تسأل.. فطرتم؟ تستفسر عن أصناف الطعام التي ستقدم في الغذاء، تأمر بتغيير وضع المقاعد، تشير الى الأركان الخالية، تذكر بالاباجورة التي يجب ان توضع هنا، أو الصورة التي يجب أن تعلق هناك، ودولاب الفضية بالذات دولاب الفضية، كيف يفتح رجل بيتا بدون دولاب الفضية؟ ثم تقول: انت بخيل.. معك سلفة الأستاذ التي صرفها لك، ماذا تنتظر؟ ثم تخلو بأثيل وتهمس وتحرص على تحريك يديها لتسمعه وسوسة الأساور الذهبية، وكأنها تقول: « هات لزوجتك مثل هؤلاء »، إنه ينظر الى وجهه في المرآة المعلقة فوق الحوض، من الذي رتب هذا كله؟ ربما لم يأخذه الأستاذ من النادي الا ليزوجه بأثيل، فكر ان يدع الليلة تمر، ان يناقش الأمر مع نفسه غدا، عند عودته الى حجرة النوم قالت له، ارتد ما يستر جسدك، انني لا أطيق منظر

الجسم العاري ، أصغى الى تنفسها ، الى أصوات الليل البعيدة ، فكر في أمة التي أحكمت إغلاق الباب منذ ساعات ، انتابه أسى ، طوال عمره ينام فوق سرير ضيق لا يكاد يتسع لجسده الضخم ، لكنه لم يشعر بالوحدة كما شعر بها في ليالي رقاده بجوار أثيل ، في اليوم التالي أيقن ان الأوان الحاسم فات ، وانه كان من المفروض ان يصارحها في نفس اللحظة ، التقى بها عند الظهر ، بصحبتها كاميليا ، سألته عن ميعاد عودته ، قال إنه لا يدري ، جزعت واستفسرت عن المكان الذي سيأكل فيه ، تعجب من اهتمامها ، ورقتها ، وقال إنه اعتاد دهرا على أكل السندويتشات ، مالت الى الأمام وقالت بدلال ، إنها ستعد له وجبة شهية في المساء تعوض بها ما فاته طوال اليوم ، قالت كاميليا « يا بختك يا عم » ، فرح للحظات ، رقة لم يألفها ، ربما كان صمته هو الذي أدى بها الى ذلك ، ستعيش بقية عمرها تحفظ له الجميل ، جنبها حتى الشعور بالحرج ، في المساء اشترى صينية كنافة ، صفر وغنى وقرر ان يقبلها عند رؤيتها ، لكنها كانت نائمة ، طلبت منه الا يفتح النور ثم علا شخيرها ، كظم ضيقه ، في ساعات الليل المتأخرة يتودد ، تبدو ثلجية ، تفسح ما بين فخذيها وكأنها تتثائب ، ثم حدث ان قضت امها ليلة عندها ، في تلك الليلة سعت هي اليه ، ارتبك من المفاجأة حتى أوشكت خيبة الأيام الأولى ان تلحقه ، أبدت حرارة

زائدة ، قبلته ، مررت اناملها على عينيه وشفتيه ، أصرت على الاستحمام فور انتهائها ، مشت بخطوات مسموعة تبحث عن الفوطة ، عن الشبشب ، نام راضيا وحمل نفسه مسؤولية جودها ، لكن الأمور عادت كما كانت بعد انصراف أمها ، ادارت ظهرها وتركته أرقا ، مسهدا ، عندما زارا أمه همست ، انها تريده الآن ، ابتسم ليمرر الموضوع ، لا يتصور نفسه عاريا على بعد اشبار من أمه ، قالت مداعبة ، انها ستكون من أجمل المرات ، قل لها إننا مرهقين ونود التمدد قليلا ، اثناء خروجها الى الحدائق الكبيرة جلسا تحت شجرة ، خلف حشائش واغصان متشابكة قبلته بشراهة ، اضطر الى أن يبعدها عنه ، ليس هنا .. ليس هنا ، في أيام خطوبتها كان يستثار بشدة لمجرد جلوسها اليه ، الآن تتمنع عليه ، ترتدي أحيانا قمصان النوم المثيرة ثم تنأى عنه ، ظن نفسه يغفر لها ، وها هي تتعالى ، وتتفضل عليه ، أما كلام الناس فلا ينتهي ، الآن يبقى في الدار حتى الثانية صباحا ، نما اليه ان أحدهم تساءل عن الوقت الذي يقضيه مع أثيل ، حتى؟ لم يبال ، لم يستقص مصدر الكلام ، يقطع نهاية الشارع وهو يرثي لنفسه ، يفكر في زيارة أمه لكنه يخشى أن يسبب لها فزعا ، في باب البيت الآن متراس كبير ، وسلسلة تربط الباب بالجدار حتى ترى الطارق قبل ان تضطر الى فتح الباب كله ، أصبحت

عجوز وحيدة، تنتظر الموت وزيارات ابنها الوحيد التي تقل كلما طالت المسافات الزمنية، ان ما بينهما يهدده الوهن، أما ما ينتظره مع أثيل فلا يريحه، ولا يطمأنه، ينظر الى الشرفة، النوافذ مغلقة، هدوء، كثيرا ما تأمل الستائر المسدلة، والأضواء، وأصغى الى الضحكات، وتمنى البيت والاستقرار، لكنه لم يدر ان الجدران تخفي ما تخفي..

قبو خفي

.. يمضي الزمن فأسفر عن طويتي، ويقل اكتنامي، أقطع المسافات وهمتي في صعود، ونجم من يناوئني في خسوف، أخصب كل شر، أرعى الأذى، وما أردده خفية سيصبح على ألسنة الناس غدا، عندما يصبح العدو صديقا، والمحتل حليفا، تظهر البدع بلا خجل، يتبدل القوم، يتبدل الظاهر والباطن، ما يرى وما لا يرى، يسب آخرهم أولهم، ويسب أولهم آخرهم، يظهرون العذر، يجهرون بالمنكر، يضيعون الامانات يؤكدون الخيانات، يصبح الجواسيس الذين نشهر بهم الآن في عداد القديسين والشهداء، يسرفون في الفواحش ويتباهون بالمعصية، تنشأ الأوسمة لكل خسيسة، وترصد النياشين لمرتكبي الجليلة، ويمنع القاء البذرة في السبخة، تتوالد المعاصي، ويرحل المعروف فلا يأمر به أحد، ويفشو كل

منكر فلا ينهي عنه أحد الا عوقب، أرى خاصتي يبتهجون عند سماعهم أخبار الايذاء، فرحة العناني بتعذيب الخضر لا تقدر، العناني أخلص من فهم المراد، وأدرك الغايات، لكن ليس لديه سعة أفق التنوخي وتنوع شروره، يصلح العناني لتولي أمور الأمن في الخطط، له قسوة القتلة ودهاء اللصوص وحنكة الجلادين، متعته ان يخرب بيتا، التنوخي عماد الأنباء بعدي، معتنق كافة الاتجاهات، فاجر في نفاقه، صادق في كل نقيض يضاهي نقيضه، اذا أرادوا تغيير الأنباء بعدي فليهدموا الحجارة ان استطاعوا. انها منبثة داخل أرواح عديدة بلا حصر، زرعت مقاصدي خفية بين الناس، حيث أحكم قبضتي لا أمان لبشر، ما من مهرب أو تراجع عن قرار مفاجىء، ليس بالنسبة للعاملين في العلن، انما الساعون في الخفاء، سبعة يتصلون بي، كل منهم يتصل بسبعة، كل من السبعة يتصل بسبعة، كالعروق والشعيرات في الأنسجة، موجودة لكنها لا ترى، كحركة الخلايا، دائمة لكنها لا ترصد، يسقط حجر فوق رأس يتصادف مرور صاحبه، تزل قدم عند حفرة لم يرها البصر، يلتقي صديقان، فجأة في بلدة نائية، تلك الصدفة اللامرئية، ما بين الظل والأصل، يجب النفاذ الى القوانين الخفية والتحكم فيها، تحويل الزمن الى قوة، الى طاقة للاغتيال، توظيف المصادفة وليس خلقها، أستقصي

الأثر، أضم الفصول، وأظل بمنجى، كان الخضر انبغ عمال الليونتيب، كان شهما، يمد العون الى المحتاجين، محبا لطفليه، يتوق الى هدوء البيت، في صباح الجمعة يستيقظ متأخراً، ويصيح مع ولديه، يداعبهما، عرف عنه ذلك، وهنا أخطأ العناني اذ نسبه الى العجم، لأن الناس سيقولون، كان انساناً حقيقيا.. هل العجم مثله؟، ما يواجهه الخضر الآن لم يخطر على باله أبدا، ولم يتخيل انه سيجري له في حياته، من لا يعرفهم، من لم يلتق بهم، وجهوا اليه الأسئلة، صفعوه ونفخوا بطنه، واستفسروا منه عن أسماء لم يسمع بها، قد يكون تعذيباً مصدر راحة لشخص لم يره أبدا، كيف سيبدو الخضر بعد سنوات؟ كيف ستكون صورة أثيل في الضواحي؟ الى أي موضع في الخطط ستتجه ابنة الجعيدي؟ قد يبدو البعض بمنأى، لكن ما من انسان ببعيد، وما من حدث بمستحيل التنوخي يستقصي أخباري ويدس ضدي، والوتيدي يرتجف لأنه يشي بي، التنوخي على دربي، حتى وان أظهر انه ضدي يقول فلاسفة العجم ان كل شيء يتغير، هذا صحيح، وا اعلنت خلاف ذلك، لكن ما أعيه ان التغيير لا يتم تلقا تثبت الأوضاع بمقدار ما يبذل من جهد لتثبيتها ولكن ا الى الأبد، وتتغير الظروف بمقدار ما يبذل من جهد لتغيير الى الأفضل دائماً والنتيجة تدوم بمقدار ما أنفق من عرق

الوصول إليها، يقولون بحتمية العدل وانتصار الضعفاء والمعذبين وأقول أليس هذا إيمان بغيبية، لماذا لا يكون المحتم هو زوالهم، يشط بي الخيال أحياناً فأرى أقاويلهم مجهولة، لا تعرفهم السنوات التي لا تزال في رحم الغيب، ألم تندثر ثورة سبارتكوس؟ ألم يباع الزنج بعد تحررهم وإقامة دولة استمرت أربعة عشر عاماً؟ ألم تستمر ثورة بابك عشرين سنة؟ ألم يلمع عمر بن عبد العزيز كالبرق ثم رحل؟ يمضي الزمن في حلقات، والمهم.. من يغلق الدورة؟ يبدي أصحاب المصالح انزعاجهم من خطط العهد الجمهوري، بناء الصناعات وتشييد الخزان الكبير وتغليب العمال على أصحاب الأعمال، والاستيلاء على الأرض والأموال؟ أقول لماذا الانزعاج، لماذا لا يكون ذلك أول طريق ينأى بنا عن العجم تماما ويقطع دابرهم من الخطط؟ لنصبر ونرى ما سيصير اليه العهد الجمهوري، كل ما يقولونه نفسح له الصفحات ونغلق دونه القلوب، نسدد الوخزات المدببة في المواضع التي تغفل عنها العيون، حتى يلوح المقتل في موضع لا يخطر على بال بشر، لو خرجت الآن من قبوي وأعلنت ما أخفيه لرجمت وذبحت، وغاب أثري، وضاع خبري، لكنني أخفي وأتخفى، خططت بيدي أن الخزان الكبير معجزة العصر، لكن مقدار ما يبذل فيه من جهد لن يصل على حقيقته الى الناس، يوما ستبدو فوائده كوارث

ماحقة، وربما حوكم من فكر فيه، لن يتحمس الذين عاصروه، ولن يرد الذين شاركوا في اقامته، كم في الزمن من عجائب، وكم تبدل الأيام ما يظنه قصار النظر ثابتا، ويعتقد ضعاف البصر انه مستعص على التغيير والتبديل، نفس الحروف تشكل كلمات المديح والسباب، ما يراه البعض مستحيلا أراه ممكنا، ولست بمفردي، حلفائي مجهولون، يرتدون القبعات في مدن نائية، يجلسون في مباني زجاجية الواجهات في مكاتب أنيقة، يحملون حقائب لا تفتح الا لمن يملكها، أعضاء في مراكز علمية، وهيئات اقتصادية، صحفيون أعرفهم، وكتاب لم أرهم، ومفكرون يدرسون سبل الفرقة بين العجم، وضباط وجنود يرابطون على حدود الخطط الشمالية، لو بحت.. لو أخبرت عن عدو اليوم الذي أراه صديق الغد لولىّ أقرب الناس مني خوفا، ولازدادوا رعبا، لكنني أرقب بثاقب البصر زمناً آتياً، وأقول ان الأيام حبالى يلدن كل عجيب..

نقطة تفتيش..

عند هذا الحد من الخطط اقيمت نقطة تفتيش كبرى ضمت عددا أكبر من الضباط والجنود، ضباط وجنود يرتدون الزي الرسمي لادارة أمن الخطط، وآخرون يرتدون الملابس المدنية، كان السؤال المطروح على كافة الشخصيات..

ما هو المولود الأشد من أبيه؟

تفاوتت الاجابات، لكن تم حجز سبعة أشخاص تتفاوت أعمارهم، أجابوا بالمضمون التالي في صيغ مختلفة:

انه الحديد الذي ولد من الحجر..

لم يعرف مصيرهم، أو الجهة التي اقتيدوا اليها، وهل سيظهرون في الخطط أم لا؟ لكن قلة محدودة جدا ألمت بالسبب الذي احتشد من أجله رجال الادارة، اذ انهم تلقوا تقريرا في المقر المركزي الذي لا زال موضعه مجهولا في الخطط، أعد بعد استطلاعات دقيقة شارك في اعدادها أكفأ ضباط الادارة، وعدد لا يحصى من المصادر التي لا يرقى اليها الشك، وأجهزة أمن عالمية يقوم بينها وبين ادارة أمن الخطط تعاون وثيق، وعلى رأسها وكالة المخابرات المركزية، وروجع التقرير بواسطة أجهزة الكترونية متقدمة لم يعلن عنها، يقول التقرير ان طفلا ولد في شارع المفاجأة، وان هذا الطفل سيكون له شأن خطير في الخطط، وانه سيغير أمورا كثيرة طال ثباتها، وانه سيرفع الظلم الواقع في سائر أنحاء الخطط.

* * *

السور الخامس..

في أوله وجهت عدة نداءات الى آباء وامهات الأطفال الذين ولدوا في شارع المفاجأة، وذلك لتطعيمهم، ولتدوين بياناتهم..

وزعق رجل:

بنت تاهت يا أولاد الحلال..

وفي صالة المقهى القديم قال المعلم الياس إنه لا يرغب العودة الى البيت. قال كرشو: المعلم الياس يضيق صدره، هل هذا معقول؟ قال: قوموا بنا. قالوا: الى أين؟ الى أي مكان. يا رجل دعنا لحالنا، عندنا بيوت وحريم وعيال.. ابقوا معي، ياه.. المسألة فيما يبدو جد، اذن.. الى أين؟. الدكاكين تغلق، وعربات الكارو هاجعة بدون دواب، يجيء غناء من بعيد، غناء قديم، يصيح المعلم الياس.. يا سلام، ها هو الغناء الحقيقي، يضحكون، كل ما يقوله يثير لديهم الضحك لأنهم لا يتوقعون منه الا الدعابة، مشي بينهم ضخما، طول بعرض. بياض شاهق وشعر أسود غزير، لو أدرك عهود الفتوة لصال

وجال بلا مانع، قال شحاته أفندي لنفسه انه لم يذهب الى طبيب أبدا، في طفولته كان افطاره كوب من السمن البلدي وعشر بيضات، وعسل نحل جبلي، جاءت أكواب الشاي. وفي الواحدة صباحا قال إن الدنيا فيها الكثير مما يجب أن يراه الانسان، قبل أن يعلق المعلم كرشو ساخرا، ظهر رجل قصير، ملامحه صينية، يتحدث العربية، ويبيع نوعا من السبح دقيق الحبات، يعرفه أفراد الجماعة كصديق غامض للمعلم الياس. يومىء أحياناً ثم يمضي، أو يتوقف ناظرا اليه في صمت، الليلة لم يتوقف انما قال بصوت مرتفع أثناء مروره، قلبي مع المعلم، قال الياس: أمامي سفر طويل، تساءل شحاتة أفندي عن الحكاية؟ وقف الياس، قال انه سيركب حنطورا ويمضي الى النهر، لن يضغط على أحدهم للذهاب معه، قال شحاتة إنه سيصحبه، منذ العهد الملكي للخطط لم يعش هذه النزوات المفاجئة، قال كرشو انه لن يتخلف، ركبوا حنطورا يجره حصان هزيل، يقوده حوذي قصير، ضامر الاكتاف، لم تبد ملامحه في الليل، طلب المعلم الياس ان يلوحوا بأيديهم لأسلاك الترام الممتدة في الفراغ، صاح عند مرورهم أمام ادارة الإطفاء «حيوا رجال المطافىء لولاهم لاحترقت الخطط منذ زمن، ردد شحاتة، لا تخافي، لا تخافي، نحن رجال المطافىء، قال كرشو ان هذا النشيد كان يردده على مسمع

من امرأة تطهو على موقد غاز، في الميدان القريب من النهر توقفوا أمام دكان لبن، طلب المعلم الياس من البائع ان يأتيهم بما عنده، أكل كرشو زبدية. وأكل شحاتة طبق مهلبية، ثم علق قائلا انه لم يذق لبناً كهذا منذ العصر الملكي، قال كرشو، كف عن ذكر العصر الملكي والا سنجد أنفسنا في المعتقل، ما له العهد الجمهوري؟ قال صاحب الدكان، هل صحيح ان هناك مرض خفي في الخطط لهذا يصرون على تطعيم الأطفال، لم يرد عليه أحد، لاحظ شحاتة ان المعلم الياس يقطع الوقت وكأنه في انتظار شيء ما، توقف الحنطور عند النهر، في السماء غيوم مع ان الزمن صيف، بعد صمت دقيقتين، قال كرشو.. خلاص يا عم.. شفت النهر؟، قال الياس إنه سينزل لقضاء حاجته، بدأ نزول الضفة المنحدرة باتجاه مرسى قديم مهجور، تلاشى الجسد الضخم في العتمة، أصوات العربات تصل الى هذه النقطة كأنها صادرة من عالم آخر، أضفى الليل والنهر لون الحلم على سائر الموجودات، زعق شحاتة وزعق كرشو، يا الياس.. يا معلم الياس. لم يجبها. جاء جندي نحيل، طويل، شرحا له، أضاء مصباحا يدويا، استدار صامتا، لاحظا بدهشة انه يرتدي بنطلونا قصيرا، وحذاء بكعب مرتفع، زي غريب عن الخطط، اتجها لى الحنطور، لم يجدا الحنطور، هل ذهب المعلم به؟ هل دبر

مقلبا، بدأ الفجر يشقشق والليل يبهت ومعالم المدينة تولد من جديد.

وفيه التقط الزعزاني تفاصيل الحادثة من قسم البوليس الخاص بالسور الخامس، لغز اختفاء المعلم. هذا ما نشرته الأنباء..

بعد أيام سبعة نشر خبر العثور على جثة رجل يرتدي الملابس البلدية بالقرب من الضواحي..

نشر في اليوم التالي أنها لتاجر من جنوب الخطط، قتل سداداً لدين دم قديم..

وفيه صدم رجل كان يقود سيارة زرقاء اللون امرأة عجوزاً كانت تعبر الشارع. لم يتوقف، لم يستطع انسان التقاط رقمه، لم يعرف اسم المرأة، أو الجهة القادمة منها. كانت تقبض على كيس به عشر ليمونات، وخرقة قديمة ملفوفة بها أربع عملات معدنية صغيرة، راح خبرها وانتهى أمرها..

وفيه دب ذعر عظيم بين آباء وأمهات الأطفال الذين ولدوا في شارع المفاجأة، وبدأ أمرهم بتعرض بيوتهم لكبسات من ادارة أمن الخطط، بقصد حصر المواليد، وتدوين أوصافهم، والتقاط بصماتهم، ومراجعة شهادات تطعيمهم..

وفيه عظم الحدث، اذ ظهر الموت بين الأطفال الذين

ولدوا في شارع المفاجأة، وخلال فترة قدرها أسبوع، كانت الأعراض واحدة، من رجفة، ثم ارتفاع في درجة الحرارة. وانقلاب سواد العين الى بياض. ولم تشر الصحف الى الأمر بسطر واحد..

ثم سرت اشاعات غامضة ألقت الرعب المهول في القلوب، فحواها أن الطعم الذي حقن به الأطفال كان فاسدا..

وأطال شيخ عجوز ضرير التحديق الى طفل مريض، تعلقت به عيون والديه، الأب بستاني عجوز من أقصى جنوب الخطط، والأم التي وشمت ذقنها وجبهتها، قال الشيخ: ما اسمه؟ قال أبوه: سليمان. قال الشيخ: لفوه في خرق سود، واذا طلعت عليه شمس يوم الجمعة المقبل سيعيش. لكن يجب ان تنجوا به..

وفيه مات تاجر لعب أطفال بالشارع الخامس. أغلق دكانه، وترددت أقاويل عن ثروته لكن دهشة دهمت معارفه، اذ انه أوصى بما يملك لإطعام القطط والكلاب الضالة، وبذر حبوب القمح فوق قباب المساجد لإطعام العصافير المهاجرة في الشتاء، شق ذلك على سيدة تمت اليه بصلة رحم، شربت مبيداً حشريا، لكنهم انقذوها في اللحظات الأخيرة..

وفيه شددت ادارة أمن الخطط حملتها على العجم، وذلك

لظهور منشورات سرية تتهمَ المسؤولين في الادارة الصحية بالاهمال في فحص الأمصال الواقية والتي طُعِّم بها الأطفال المواليد..

واشتد الأمر في المعتقل، نوع العذاب، وأمطرت السماء كأفواه القرب، وبقيت نوافذ العنابر مفتوحة، متقابلة لا تدفع بردا ولا تحوش أذى، وجرى الضرب في أوقات متفرقة، علت أنات ألم، لكن لم تفلت صرخات الا فيما ندر، ولتكرار الضرب اعتادت الأجسام تجنب نزول العصي الغليظة على العينين أو الرأس، وهذا ما علمه رمزي للخضر الذي وصل أخيرا، لم يسبق لأحد معرفته، ظنوه في البداية مدسوسا عليهم، لكنه احتمل ما احتملوه، بل ان الضابط المناوب خصص له جنديين غلاظ القلب، أوسعاه ضربا مبرحا، وزعقا في وجهه، اذا لم تكن أعجميا فلماذا لا تسب العجم وتنفذ بجلدك، لكن الخضر عد ذلك منافيا لما طبع عليه، وسأله منصور عامل المطبعة القديم في الليل، لماذا لا يستنكر ويخلص روحه من الهول؟ قال الخضر: ولماذا لا تفعل أنت؟ قال: لأنني من العجم، قال الخضر: انني لم أكن أعجميا، ولكن لن يجبرني انسان على قول شيء غصبا.. ثم كيف انكر ما لا أعرفه؟. في مرة أخرى قال للدكتور صبري: لم أسمع عن العجم إلا كل منكر. لكنني أراهم أشداء. يحبون الخير

للناس. يتحملون في سبيل من لا يعرفونهم ومن لم يرونهم، قلوبهم جسورة على المشاق والآلام، ما هي حكاية العجم بالضبط؟

وفيه اجتمع الأستاذ برجل من أقصى جنوب الخطط، عرف عنه إتجاره الواسع في الآثار القديمة، ومعرفته بمواقع غنية لم تكتشف بعد..

وتماثل الدكتور الطنبولي للشفاء، نقص وزنه، وشحب لونه، وتقدد جلده، وبدا على وجهه تعبير غريب، ولم يزره أي انسان من الأنباء، وسر الأستاذ لذلك سرورا عظيما، لأن عدم الوفاء تغلغل وأينع، أما الخضر الذي عاده مرة واحدة فلم يعد حرا.. ومن الأمور الخفيفة، اللطيفة التي شاعت بالدار، ان كريمة سكرتيرة الطنبولي ستدخل دنيا أخيرا، وتفصيل ذلك، ان شابا حاصل على بكالوريوس تجارة تكلم في أمرها، لكن المشكلة انه متخصص في ادارة الأعمال، لهذا رفضت في البداية، ما تريده هو تخصص الحاسبات، لكن أمها لطمت، وتشنجت وضربت رأسها بالأرض، لو أفلت هذا العريس فلن تعرف طعم أي رجل، قيل ان الشاب انزعج لرفضها فتردد كثيرا على الدار، تحمل سخافات البلشي، ونظرات برنق، انتظر مرات عند الناصية، شوهدت كريمة تدلل، تتجاهله، تشيح عنه، غير انها قبلت في النهاية، بعد

أن اشترطت أثاثا من ثلاث حجرات، ومطبخاً حديثاً ونجفة من دورين في الصالون، ونجفة من الخزف في صالة الطعام، واضاءة غير مباشرة في غرفة النوم، وسجاداً غزير الوبر. لوحظ انها رققت حاجبيها، ونتفت شعر ذقنها، وصبغت شفتيها بالأحمر، لكنها لم تكف عن ترديد العبارات المزعجة والملاحظات الجارحة. وتنبأ البعض أنها بعد الدخلة ستهدأ وترق..

وكثر الكلام عن الخزان الكبير، وصفته الأنباء بانه أعظم أمجاد الخطط منذ تاريخنا القديم، كتب التنوخي انه أضخم انتصار للعهد الجمهوري، وانه أول الطريق الى تحرير الأراضي الشمالية. وانه قدر جيلنا..

واجتاز أبو ستة المدخل فنقره البلشي عينا، لاحظ الملابس الجديدة التي يرتديها، البنطلون الواسع، والحذاء البني الأنيق والساعة الجديدة. وبالرغم من العناية الواضحة في غسل وجهه، وتمشيط شعره الا أن الافراز بدا وكأنه يأبى مفارقة عينيه، ما غاظ البلشي تلك الأهمية البادية على ملامحه، وتجاهله له حتى انه لم يومىء..

وفيه قويت الاشاعات بأن العهد الجمهوري سيجري تنظيمات جديدة وجذرية في أوضاع الصحافة، وانه آن للأوضاع المستمرة منذ العهد الملكي أن تتغير..

وفي النصف بعد العاشرة طرق باب الجعيدي، ارتفع نبضه وغزر عرقه، استعاذ بالله من المفاجآت. من؟ فتوات مأجورون؟ ضباط مباحث؟ مندوب من الجريدة يستدعيه، صاحبه يستدعيه الى مطعم جديد لكن طارق الباب كان الوتيدي، ارتاع الجعيدي، كاد يغلق الباب خوفا، ومقتا، لكن خجلا منعه، كما أن ملامح الوتيدي المتعبة طمأنته، بدا انه لا ينوي الأذى، قبل جلوسه الى أحد كراسي الصالة العارية من أي غطاء، قال.. سامحني على ما ارتكبته في حقك..

وهب قنديل الأزهري من نومه، صاح هاتف عليه، صوته كأنه قادم من أعماق جب. قعد مرعوبا في فراشه محاذرا أن يوقظ امرأته، أو يخبرها بما زعق به الهاتف الذي يجيء إما محذرا أو منذرا ثم يمضي فلا يترك أثرا، أو صدى، اللهم أجعله خيرا، أخبره ان ابنه حمدي سيقاسي شدائد ومحنا..

وفيه طلع شمس يوم الجمعة، فنطق البستاني العجوز وامرأته بالشهادة، التنفس ضعيف والجسد بارد، لكن الروح لم تفارق الجسد، كان عليها الإقدام على العمل الصعب، الشيخ الضرير أمرها بان ينجياه من الهلاك، ماذا يفعلان وسليمان جاءهما بعد أربعين عاماً من العقم المتصل حتى ان حمل أمه عد من الخوارق، بعد انقطاع كل أمل، بعد استشارة

الشيخ الضرير لف سليمان في شال أسود قديم، وبعد دمع طويل جرى من عيون الأم والأب، حمله وسافر لمدة يومين في قطار بطيء الى أقصى جنوب الخطط، وفي اليوم الثالث وصل الى قريته الصغيرة الواقعة قرب سفح الجبل العظيم والذي يضم منطقة الخلاوي التي يضيع كل من يحاول اجتيازها، أو الزج بنفسه فيها، أسلم ابنه الى شقيقه وهو راعي ماعز يصغره بعامين، يعيش مع امرأته وابنتيه، وبعد سبعة أيام عاد البستاني العجوز الى امرأته، ذهبا الى الشيخ الضرير، فقال لهما ان سليمان في أمان عظيم.

وفيه فشا الموت المهول في مواليد الشارع الخامس، وعلا الصراخ من البيوت، واضطر حانوتي الخط الى الاستعانة بزملاء له من نواحي أخرى.

وفيه أوضحت المعلومات المتوفرة لدى ادارة أمن الخطط، أن كافة مواليد المكان والزمان المحددين فتك فيهم الفناء، وان الطعم أثمر، ولم يتبق إلا ثلاثة أطفال..

وفيه أوضحت المعلومات ان سائر المواليد قد أبيدوا عدا واحد..

وجرت كبسات مفاجئة، وتم تحقيق في أثر تحقيق مع الثكالى، واستدعي البستاني العجوز مرتين، فبكى، وأكد انه

دفن ابنه بيديه هاتين..

وأكدت الاحصاءات والعقول الالكترونية ان طفلا واحدا لا زال يعيش..

ولكن المسؤولين في الادارة تشككوا في ذلك، وأكدوا الهمة العالية في تنفيذ الخطة..

وفيه حصل العناني على عدة عناوين لبعض العجم المعتقلين، وأوصاف زوجاتهن. وما تيسر من معلومات عنهن، وسرّ الأستاذ لذلك..

وفيه حدقت رونق الى برنق وضحكت، فصاح ثلاث مرات: «تعيش جلالة الملكة»..

واحتضن الدمياطي كاميليا اللاوي، قالت بتراخ: وأنا يدك ايضا.

وخرج عنوان الأنباء بكلمة واحدة.. الخزان..

وحارت بخيته أم خالد، توجست ثم أدركها رعب لأن الموت فشا في الخطط، لكنه لم يدرك إلا المواليد، لم تسمع عن مرض مفزع أدرك من هو في مثل خالد، لكنه يرقد منذ يومين، ترتفع حرارته، وألم يعض مفاصله، ألطف يا كريم، يا كريم ألطف، بعد نومه مالت على أذنه اليمنى، تلت البسملة سبع مرات، وقرأت الفاتحة سبع مرات، وسورة «قل هو الله

أحد ». أحضرت ورقتين، قطعت أطرافها، سوتها على هيئة عروسة مصلوبة الذراعين، ثم أحضرت ابرة. تلت الفاتحة، دفعت الابرة، مرة في عين أم سهير، مرة في عين أم علام، مرة في عين لا تعرف صاحبتها، وفي الليل المتأخر، جاء حسين زوجها يبدو انه قضى يوما صعبا في محاولة لاقتراض نقود يكمل بها بقية أيام الشهر، بدا وجهه متعبا، وحول عينيه شقاء قديم، تصلب جسده، قال بصوت مدغوم، ماذا سيفعل؟! خشيت ان يستيقظ خالد، ربتت كتف زوجها، قالت انها مخطئة لأنها استقبلته بمثل هذا الخبر، لم يكن خالد مستغرقا في النوم حبس أنفاسه، أخشى ما يخافه ان يعلو صوت والده، يسمع الجيران وتتكرر الفضيحة، فكر، أبوه يكرهه، وإلا .. كيف يعرف انه مريض، ولا يكلف خاطره بالسؤال عنه؟ أدركته غصة، تخيل نفسه موغلا في المرض حتى النهاية. يقف أبوه باكيا، يؤكد ان الحالة كان من الممكن ان تعالج منذ البداية. لكن الأوان راح. حزن على نفسه حتى دمع عندما تخيل وقع نبأ وفاته على نادية. سعاد التي يحبها الآن ولا تدري، وحده شقيقه اسماعيل الذي سيصير بمفرده، المدرسو[illegible] واشادة استاذ اللغة العربية بأسلوبه في موضوعات الانشاء. في هذه اللحظة خرج الأب، سمع أمه تقول لنفسها انها لا تدري ما تفعل مع الأب القاسي الذي خلا قلبه من الرحمة. ثم قامت

لتجس حرارة خالد، حول وجهه متظاهرا بالنوم، تذكر ضيق أبيه، عندما يضرب صدره بقبضتيه، أو يشق جلبابه فتصرخ الأم لأنه لا يمتلك غيرها، منذ عام طلبت امه مصاريف المدرسة، صرخ معلنا ان الديون أرهقته، وان الناس يديرون وجوههم عندما يرونه، سكب الجاز فوق رأسه، صرخت الأم، هرعت اليه، قبلت رأسه، رجته أن يذكر اسم الله، ألا يصغي لوسوسة الشيطان، قالت انها ستميل على احدى جاراتها وتقترض منها، دفس رأسه بين ذراعيه، ردد حيرته وضيقه، يومها خاف خالد، وبكى اسماعيل، اعتاد زعيقه في لحظات الضيق، لكنهما لم يرياه مكسورا، عاجزا، ملّسا على رأسه، قبلّ خالد ما بين عينيه، قال انه يستطيع العمل بعد الظهر عند أي كواء أو بقال وان يواصل دراسته أيضا، كف عن نهنهته، وقف زاعقا فجأة، اذن.. هذا ما يريده، أن يخرج من المدرسة، لا.. سيواصل تعليمه حتى لو تسول، يكفي ما يراه هو، بعد خروجه من البيت توقف لحظات، دعا الله أن يريحه من هذه الدنيا، ما يمنعه من الانتحار خوفه من الموت كافرا، لكنه فكر في امرأته وولديه، لمن سيتركهما؟ انها بلا سند غيره، ندم، خاف ان تكون طاقة السماء مفتوحة لحظة دعائه، طلب من الله أن يعينه، ان يرزقه اللقمة والستر والقدرة على تربية الولدين وتجنيبهما المذلة والهوان، رأى

الحاج حنفي مقبلا، سلم عليه، قال ان هماً يمسك به، قال الحاج، لعله خيرا، قال ان ابنه خالد عنده حرارة، ورعشة، انه يخاف على الولد، ولا يدري ما يفعل...

وفيه أصغت ايثار الى حديث يدور بين زميلتيها حول مجدي رمزي، عن ذكائه، وقدراته، وفهمه لأمور السياسة ومجيئه يوميا بجريدة اللوموند، ابتسمت ايثار عندما قالت زميلتها انه يستطيع ذكر عاصمة أية دولة في العالم، اتسع صدرها، ورغبت في ظهور مجدي الآن لتبادله الحديث على مرأى منهن..

وبدت معالم شكوى على وجه الدكتور رمزي، قال مخاطبا توفيق بك، انه يتعجب لأن مجدي ابنه يقرأ كتب العجم.. تصور.. انه يتهمني بانني ضد العجم، ضحك توفيق بك، ربما أصبح اعجميا من وراء ظهورنا، لم تخف نبرة الاعجاب في صوت الدكتور رمزي، ولم لا؟ ألم تمتد سعة أفقه الى نظريات العجم، مع انهم اعداء من كان ثريا مثله.. لكنه يخاف على الولد. ابتسم توفيق بك. لو أصبحنا نحن من عتاة العجم فلا خوف علينا.

وفيه اتصلت رونق بالبلشي وطلبت السماح لسبعة أشخاص بالصعود، بدون التعرض لهم، قالت ان ثلاثة منهم صلع، وان آخرهم طويل، كبير الرأس..

وفيه نصبت خيمة ضخمة بداخلها نموذج للخزان العظيم، رسم على سقف الخيمة ابراج السماء الاثني عشر لسبب لم يوضحه أحد، تم صنع أحجام صغيرة من النموذج وزعت على المدارس، والادارات العامة والخاصة، والهيئات، وصنعت نماذج أقل حجما أهديت الى زوار الخطط الأجانب، والى السفارات.

وينتهي هذا السور الآن على خير، بعد أن قاسى الناس فيه شدائد ومحنا، واضطربت أمورهم، وتغيرت أحوالهم، خاصة عندما عمل الموت في مواليد الشارع الخامس فأفناهم عن آخرهم، عدا طفل واحد..

* * *

شارعان متصلان، يؤدي كل منهما الى الآخر، ويتضمنان فوائد جمة

من أي موضع فيهما يلوح الميدان الكبير، لو حجبته المباني للحظات فان الاحساس بوجوده يصبح قوياً، تتزايد حركة الشخصيات، وتقع أمور غريبة، فكل من يسعى في الخطط على وشك العبور الى مناطق مجهولة وأيام لا يدري إنسان ماذا سيجري فيها؟ عند هذا الحد من الخطط تتغير الظروف

وتتبدل الأحوال، أعلم ان الانسان في تغير دائم، وتحول ليس له آخر، فابن العشرين ليس هو، هو، عندما يصبح في الثلاثين، أو يتجاوز الخمسين، وسبحان المبدل، المغير، يخص من شاء بما شاء، سبحان منوع الصفات، والدلالات، ليس كل أسود عنبرا، وليس كل أخضر زمردا، ولا كل أبيض ماسا، هكذا تبدو رونق في الخطط، تتكسر خلالها الطباع والأمزجة كما يتكسر الضوء عبر منشور الزجاج، في أول هذا الشارع تتجه لتلتقي بسيدة لم ترها إلا في صور أعدت بواسطة ادارة الأمن، عرفت عاداتها، والكلمات التي يرددها زوجها، وترتيب الكتب في دواليبه، وعلامات جسده، المرأة التي ستواجهها جميلة، هادئة، تخطت الثلاثين، تقيم حاجزا من الصعب اختراقه عند حديثها الى الآخرين، تقيم مع ابنها الوحيد منذ اعتقال زوجها، عندما طلب الأستاذ ان تقابل هذه السيدة، وأن تنفجر باكية، وأن تسأل دامعة عن أخبار الدكتور صبري فهمي، ان تتردد قليلا قبل أن تتحدث عن ضيقها الذي دفعها الى زيارة آخر امرأة من المفروض ألا تعرف وجودها، لكن.. قاطعت الأستاذ: ان هذا يشبه فيلما ساذجا، انها تعرف الهدف، طلبت أوصافا دقيقة للدكتور، وصوراً ملتقطة له سرا، وترتيب الأثاث في بيته، ولون الستائر، واللوحات المعلقة، وصور مختلفة لزوجته، خاصة

صورة الفرح اذا وجدت، ان ما ستقوم به لا تقدر عليه إلا امرأة في مواجهة امرأة، ستقول ان الدكتور درس لها، لا تريد إلا الاطمئنان عليه، ستفلت منها عبارات غير مقصودة، ستسأل عن نظارته الطبية، هل أبقوها معه أم لا؟ تسأل عن تاريخ آخر كشف طبي.. ثم تتدارك قائلة، آه.. ثلاث سنوات، من الممكن ان يستخدم النظارة فترة أخرى، عبارة مختصرة، كانت روحه في مكتبته، ثم تتصل تليفونيا بعد اسبوع، عندما تقدم رونق على تقمص شخصية مخالفة يغمرها نشاط عظيم، تتعجل النهار، وتضيق بالليل، تقل ساعات نومها، من الأمور المجهولة في الخطط، ان شابا في العشرين هام بها، كان خجولا، ينتظرها عند ناصية الطريق، بعد أسابيع ابتسمت ثم أومأت ثم ردت تحيته الخائفة ثم قالت إنها ستنتظره في الساحة، مشيا بجوار النهر، وتوقفا عند الأماكن المعتمة، انشدها شعرا، كانت تبدي الاعجاب وتطلب اعادة بيت أو شطر بينما السخرية تضج في أعماقها، وصوتها الخفي يردد قبيح النعوت والألفاظ، عندما يضغط يدها، تطرق، تسدل جفنيها، تتشاغل بأصابعها، في المرة الأربعين لخروجها مد يده مودعاً، قالت: تعال معي، انني وحيدة الليلة، عندما دخل الشقة جلس في الركن متشاغلا بالنظر الى النجف، الى السجاد. فوق المكتب الصغير المطعم بالصدف لمح رسائله التي

كتبها، لم ينتبه اليها عندما ظهرت في باب الصالة، إلتفت، ثم بدأ يرتعش كفرخ مبلول، أحدث عريها المتجرد فيه أثرا غريبا، صاعقا، راح جسدها يضوي في النور الخافت، تحول ارتعاشه الى انتفاض، ثم خار خوارا غريبا، تجهمت فجأة، أمرته أن يغادر البيت، في الأيام التالية اعترضها في الشارع، تجاهلته، توسل اليها ان تمنحه الفرصة من جديد، بعد سبعين يوما من تعقبه لها توقفت، صرخت فجأة، حملق فضوليون، وتجمع مارة، أبرزت بطاقتها لجندي الأمن، صاح انه يعرفها، والدليل انه يعرف اسمها، اسمها وداد، انها تعمل موظفة بشركة طيران الخطط، دفعه الجندي الذي أمسك بياقته: يا كذاب، أنت تضايق سيدة محترمة لها وضعها في الخطط، لا يعرف الأستاذ حكايات أخرى عديدة، إنها تتوقف أمام مدخل البيت، ظلال تدثر المدخل، من الواضح ان البلاط غسل جيداً، كأن الأستاذ يراها من مكان خفي، لكنها أقصت الخواطر البعيدة، وان ترددت فكرة غريبة في ذهنها، لماذا لا تجرب الانضمام الى السجم؟ لم لا؟، أصغت الى صوت خطوات قادمة من الداخل، انها الآن رونق أخرى، مغايرة لأية صورة بدت عليها من قبل. تنظر اليها الخادمة، صمت نابع من الداخل، برود يوحي بخلو البيت من رجله، هذا لم تصفه التقارير..

« قولي للمدام.. صفية عزت الفنانة التشكيلية.. »

مسافة معتمة، أولها فائدة..

إعلم، والميدان الكبير يدنو، أن البصر والفكر يجب أن يتجها من حين لآخر الى من يتربع في الأعالي، المتوحد في ذاته، وصفاته، الغني عن الزوج والولد، لم ينفصل عنه أحد، ولا ينفصل عنه أحد، واحد، أحد فرد، صمد، تعالت أسماؤه، غني عن الثراء، لا يحتاج الى خلقه، وجميع الخلائق له محتاجون، وهب لكل منهم ما يقيم أود عائلته، لا ينسى مخلوقاً من عبيده حتى وان تذكره بالموت، هنا في هذه المسافة المعتمة امرأة عجوز تجاوزت السبعين تردد: انه لا ينسانا، لا ينسى عباده، انها واحدة من شخصيات الخطط التي لم تذكر إلا نادرا، لا ترى ما بين قدميها لضعف بصرها، تمشي منحنية كعلامة الاستفهام في سطور الكتابة، تشكو دائما جفاف الريق، وشدة الصداع، لكنها لم تذهب الى طبيب حتى لا تكلف ابنها مصاريف الكشف والدواء، تعيش معه منذ زواجه، تمشي على أطراف أصابعها حتى لا يشعر الخضر ابنها وامرأته بوجودها، وطوال النهار تجلس أمام باب البيت في الحارة الضيقة تتحرك مع الظلال، عند نهاية اليوم تستقر في الجانب المقابل، لا تفعل شيئاً في البيت إلا اذا طلبت امرأة

ابنها، ولكنها لا تفعل كل شيء، في مرة طلبت منها زينب ان تطبخ أرزا لكنها اعتذرت بتقدم عمرها وضعف بصرها، لماذا؟ حتى لا تشعر امرأة ابنها انها تعرف شيئاً هي لا تجيد طهيه، أعلم ان الأمور لا تمضي ابدا كما يتمنى الخلق، حتى وان بدت بسيطة عادية، سبحان من له التصرف وتوجيه الشئون، في أواسط العمر، وقرب خريفه، وعند نهاية شتائه يخيل لبني الانسان انه سيقضي السنوات الأخيرة في هدوء فإذا يقلق بعد اقتراب الموت، والمصير في أفول، والأيام في النازل، لكن ليس كذلك الحال، خاصة وان كل شيء الى زوال، خاصة الامنيات والرغبات والمشاريع والطموحات حتى الهين منها الذي يشبه رائحة الزهور، أو العبير الغامض المستعصي على التفسير والادراك، ألطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير في هذه الخطط، انتزعوا ابنها الخضر من حياتها، ومن حياة زوجته وطفليه، لجأت الى تلميذ في الاعدادية، أملت عليه رسالة الى قادة العهد الجمهوري تتضمن استرحاما لأن الخضر هو ابنها الوحيد، ولأنه العائل الوحيد أيضا، لكن لم يجبهم انسان، فالشفاعة لا ترجى إلا من حبيبه وصفيه، عليه أصدق السلام، ولكن هل يدرك الانسان في سنين ضعفه وهوانه على نفسه ذلك؟ بيع أثاث البيت قطعة وراء قطعة، وعندما حانت اللحظة التي يجب خروج

احداهن للرزق، رفضت أم الخضر خروج زينب، لأنها شابة والطمع فيها كثير، قالت العجوز إنها ستداري على شبابها، في الأيام الأولى سرحت في الأزقة المجاورة، باعت ليمون بنزهير، وفجلاً أخضر وحاولت اتخاذ مكان ثابت بجوار دكان يبيع السمك المقلي لكن رجلا فظا غليظ القلب يرتدي جلبابا، منعها، أعلم ان مصير الانسان يكون مرتبطا بآخرين لا يعرفهم، ولم يلتق بهم، ولم يخطر بباله رؤيتهم، كثيرون يتواجدون في هذه الخطط بشكل خفي لكنهم يؤثرون في شخصيات معروفة، الى هذا الجزء المعتم من الشارع جاء الاستاذ بنفسه ليرقب هذه العجوز التي تهدد نواياه، رأى قلوبا كثيرة تحن عليها، حتى ان كثيرين وضعوا في يدها قرشا أو قرشين، ولم يتوقفوا لسماع دعائها، رآها تضع سلة مليئة بالبيض، لم تعلم ان خروجها في مثل هذا العمر، وحمايتها لامرأة ابنها تعتبر تحديا لمن تجهله، فكر الاستاذ في إسناد المهمة الى العناني، لكن تنفيذها سيقترن بالسرور والرضى لأنها فرصة نادرة للأذى، لذلك استدعى الوتيدي الذي لا زالت فيه عروق تنبض ومناطق لم تعطب بعد، كلفه بالذهاب الى ضابط أمن برتبة رائد، ان ينتبه الى هذه العجوز وخطورتها، أن تخصص قوة من شرطة الخطط المحلية، المخصصة لاعتقال لباعة الجائلين، وأن يشهد بعينيه ما سيقومون به، وان يعود إليه ليصف ما جرى..

درب المذبوح..

قتيل، قتيل، ردد العناني فرحا، نسي اهتمامه بكاميليا، واهتمامها به، والاشاعات المتزايدة، يوما بعد يوم والقائلة بأن ثمة اجراءات قوية ستتخذ بالنسبة للصحف، وان الهدف من ذلك الحد من نفوذ الاستاذ في الخطط، خاصة بعد شبهات وشكوك، نسي العناني كل شيء، عندما تقع جريمة فانه ينسى اسمه كما يقولون، أول صحفي وصل الى مكان الجريمة هو، الجسد مغطى بملاءة بيضاء، تتبع خيوط الدم، لاحظ زجاجة روم نصف فارغة، وطبقاً من الخزف الأزرق به قطع جبن، وخيارة مملحة مقضومة، وورقة شفافة بها شرائح بسطرمة، وشماعة معلقة الى الجدار، وحذاء وجورباً مكوماً بجواره، فوق السرير صورة امرأة نصف عارية، حرص الا يلمس شيئا، لاحظ بروز نظارة اطارها فضي من تحت الملاءة، لا آثار للمقاومة، لم يحدث عراك، قال ضابط الأمن انه طعن مرة واحدة ثم ذبح على مهل، القاتل محترف، خبير بالجسم البشري، الضربة أخرست القلب، حاول العناني استعادة لحظة المباغتة، نظرة العينين، كيف نفذ الخنجر؟ أية صور تعاقبت على الذهن، سأل عن اسم القتيل، قال الضابط انه متزوج وله ولدين، قال العناني، من الواضح انه منى النفس بوعود كثيرة، ما اسمه؟ قال الضابط، انه موظف في الحكومة

منذ العصر الملكي، اسمه.. محمود حفظي..

سكة الاعتقال..

أستر يا رب.. اللهم اجعله خيرا، من سيجيء آخر الليل؟ من؟ جف ريق قنديل الأزهري، أما حمدي فبدا هادئاً، كأنه يعرف مقدما ما سيجري، تخيل هذه اللحظات منذ فترة، حتى لتبدو له الآن مألوفة، خالية من المفاجأة، كأنه عاشها مرات من قبل، كان الضابط شابا، يرتدي الملابس المدنية، كذلك الجنود الثلاثة، ارتعد قنديل عندما سمع أحدهم ينادي الضابط برتبته، لو انه يرتدي الملابس الرسمية لكان ظهوره أقل وطأة، اللباس المدني يضاعف الرهبة، ويوحي بمسئولية غامضة، أحاط مخبران بحمدي، دخل الضابط كل الحجرات شاهرا مسدسه، قلب المقاعد، وأدراج المكتب، والحقائب القديمة، فتش الكتب والأوراق، وكوم الصور جانبا، بعد أن تمالك قنديل نفسه تساءل عن الذنب الذي ارتكبه ابنه، أشار الى الوشاة، الى المكائد التي تدبر للأبرياء، انه أخلص الشخصيات في الخطط للنظام الجمهوري ومن قبل كان من ألد أعداء العهد الملكي، ولا يشك ان ابنه حمدي يختلف عنه، هنا طلب منه حمدي بهدوء الا يقرنه به، روع قنديل، كاد يلطم كالنساء لولا واعز من حياء، قال الضابط انه يقرأ كل

ما يكتبه الوالد ضد العجم، لكن يبدو انه يُخلق من ظهر العالم فاسد، عندما تقدم أحد الجنود بالقيد الحديدي وأحاط معصمي حمدي هتف ثلاث مرات بحياة العجم، فسقط قنديل منشيا عليه، ولم ير ابنه الوحيد لحظة خروجه القسري عن البيت..

درب المستقبلي..

.. أمور كثيرة تبدأ في هذه الخطط كتنبؤات، أو اشاعات، ثم يتأكد بعضها، وقد يخيب الآخر، وسبحان علام الغيوم، في هذا الدرب تأكد التنوخي من حقيقة ما تردد فبدأ يعد للأمر عدته، ويجهز نفسه لتقلب الظروف، أجرى اتصالات والتقى بعدة شخصيات أدرك بعدها ان التحولات واقعة لا محالة، جاء الى هذا الدرب وانزوى في ركن ضيق وطلب من عبد العاطي الساعي الا يسمح لأي انسان بالاقتراب منه لأنه سيكتب، انه يستخدم قلم حبر جاف، وأوراق متخلفة عن طباعة الجريدة، لا يشطب كلمة، لا يهتم بالاخطاء اللغوية، كتب ان مشروع الخزان الكبير من أعظم الانجازات التي عرفتها الخطط منذ فجر التاريخ، لا.. منذ ما قبل التاريخ، لا شك ان الاحفاد سيتأملون، ويتعجبون، وهذا هو البعد الحضاري.. المستقبلي في المشروع..، عند هذه

النقطة توقف، تلفت حوله حتى يثق من خلو هذا الجزء من الشارع، عندما اطمئن، قهقه بدون صوت، فتح فمه واهتز كأنه يضحك،.. البعد الحضاري، المستقبلي..: يا ابن النصابة، البعد الحضاري؟ يا ابن الحرامية؟ البعد المستقبلي؟، لعب حاجبيه، حرك شفتيه ساخرا من معلقي الاذاعة الذين سيرددونها بناء على تعليمات رسمية، لمدرسي التربية الذين ربما اقتبسوها عند الحديث عن الخزان، للمهندسين، للعمال الذين سيعجبون بما يكتب عنهم، لأنهم.. ها، ها، ها، لأنهم صانعو هذا البعد المستقبلي، يا تنوخي يا ابن الزانية، يتأمل قدرته على صياغة التعبيرات، والعناوين الرئيسة، وتلخيص خطب المسئولين في سطور،، انه يتفوق على الاستاذ نفسه، ها.. المستقبلي.. الحضاري، وماله؟ هل يخسر شيئا من جيبه؟ ليضيف كلمة. أخرى،.. العصري، تتصاعد حدة السخرية داخله، تسيطر عليه الآن حالة انفعالية عاودها الهزل، يتأمل كلماته على الورق، يعجب لأولئك الذين يدعون المعاناة في الكتابة، الذين يعيدون ما كتبوه مرة أو مرتين، يجتهدون وكأنهم يحاولون الحصول على لبن العصفور. معاناته الحقيقية في استكشاف اتجاه الريح، وكتابة ما يرضي هذا، وما يثلج صدر ذاك، وتفصيل كل شيء في الحجم المطلوب، يعجب لمن يقلبون الدنيا بسبب مقال أو خبر، كله كلام، كلام، أما ما

يردده الكتاب عن قيمة الكلمة وشرف الكلمة فهراء مقصود به رفع أجور الكتاب، أمانة الكلمة.. أية أمانة هذه؟ أمانة السر؟، سيحفظ الموظفون عباراته في لا وعيهم ويرددونها في المكاتب، والمقاهي، وكالات الأنباء تنقل ما يكتبه، تقول بعض الاذاعات الاجنبية.. «وأشادت الأنباء في مقال كتبه...» يا اولاد العبيطة انقلوا، رددوا، أجهدوا انفسكم في استنتاج ما بين السطور، لكن لن يخطر لكم هذا أبدا، مرة أخرى تلفت التنوخي حذرا، لا أحد يراه، لا أحد على مقربة، فك ازرار بنطلونه، مرر قضيبه على السطور مرة، ثم مرتين، وثلاث مرات..

عطفة القهوة..

لم يتعامل التنوخي مع البوفيه أبدا، لديه موقد كحول صغير وفناجين قهوة، وعلبة سكر، وبن، وكنكة من النحاس تخصه، وكنكة من الألمنيوم يعد فيها القهوة لضيوفه، انه يبتسم عادة لهم، يقول ببطء انه سيعد القهوة بنفسه، تلك هوايته، يسأل، هل يفضلها ضيفه حلوة؟ أم مضبوطة، أم سادة؟ ثم يتوارى عند المنحنى وفيه دورة المياه، يتبول في الكنكة المصنوعة من الألمنيوم، ثم يضيف البن، من قهوته شرب ضيوف من شخصيات الخطط، وأجانب عن الخطط

ووزراء، وسفراء، ومسئولون جاؤا الى الأنباء لتوثيق العلاقات بين السلطة التنفيذية والصحافة، رئة الخطط ولسانها، أبدى بعضهم دهشته لمذاق القهوة، سأل أحدهم عن سر الطعم النادر للبن، عضو بارز في برلمان الخطط حاول أن يعرف سر التحويجة التي لم يذق طعمها أبداً، كثيرون جاؤا إليه مدعين أنهم ما قصدوه إلا لشرب فنجان معه، خصص مفكرة دوّن فيها اسم كل من شرب قهوته، شخص واحد لم يجرؤ على التبول في جوفه حتى الآن، انه الاستاذ. ينبئه إحساسه انه يعرف ما يفعله، لكن اذا صح ما سمعه من أخبار فسيدعو الاستاذ الى فنجان، طوال المسافات السابقة لم يكف عن كتابة التقرير تلو التقرير، لا شك ان مجهوده موضع تقدير عند ادارة أمن الخطط صاحبة الحل والعقد، كثيرا ما أوقظ في الفجر ليرد على استفسار بخصوص نقطة غامضة، أو جانب استعصى على فهمهم، ما يضايقه ان قدرته على استطلاع الأمور في الخطط محدودة، يمسك الاستاذ بكل الخيوط، كل شخص في الدار يفضي اليه بما لديه أولا بأول. الوتيدي يتواجد باستمرار بين العمال لغرض مؤجل، كثير من مشاكل العمال لا تحل مع مدير المطبعة الا اذا توسط الوتيدي، تلك تعليمات الاستاذ، العناني لا يهدأ ولا يكف عن التجوال كل امرأة أو بنت تنقل وتخبر، للأستاذ وسائل خفية

وأخرى معلنة، أما التنوخي فيعتمد على نفسه، يلاحظ من يجلس الى من؟ من خرج مع من؟ يحاول أن يعرف من هؤلاء الغرباء الذين لا تسجل أية معلومات عنهم في دفتر البلشي، يجيئون الى الأستاذ، لكنه لم ينجح حتى الآن، انه يرصد تعبيرات الوجوه بنفسه، ما يضايقه، انه لا يلم بكل التفاصيل، لكن اذا وقعت التغييرات، اذا عصفوا بالأستاذ، لن يصبح أي شيء بعيدا عنه، لا الخزائن السرية، ولا رونق، ولا اسماء الغرباء...

قبو..

.. أولهم لا يعرف ثانيهم، وثانيهم لم ير ثالثهم، وثالثهم يجهل رابعهم، ورابعهم لم يلتق أبدا بخامسهم، وخامسهم لم يسمع قط بسادسهم وسابعهم لا صلة له بهم، تعاقبوا، جلس كل منهم فوق المقعد نفسه، لم يدر أحدهم شيئاً عن الآخرين، معجزة الخلق وحدت ثلاثة حتى يظن البلشي ان الشخص نفسه ينصرف ثم يعود، وتشابه الى حد ما ثلاثة، واختلف السابع لطوله المفرط، سبعة يلبون بالليل والنهار، رباطي بهم لا يفكه إلا الموت، خيوطي خفية، عناوينهم لدي والدلالات متينة، في السابع من كل شهر يصل ما اتفقنا عليه، سبعة إختار كل منهم سبعة، يجهلون بعضهم عدا واحد، ولكل من

النجباء سبعة نقباء يجهلون بعضهم عدا واحد، ولكل من النقباء سبعة مختارين، نفس تنظيم العجم، عرف عنهم قوة التنظيم وسريته، وتماسكه، أخذت عنهم ما عرفوا به، أقيم الظل في مواجهة الأصل حتى يطفئ الفرع، وتتشعب الجذور في الهواء، وتموت اذا تغلغلت في باطن الأرض، تختنق الأسماك في الماء، وتمرح في الفراغ، هكذا امتد الى كل من لا أعرفهم. أحتاط من كل أمر بأمر، أستقصي كل أثر بأثر، ادفع كل غائلة بغائلة، أحاذر تجنب ما يجب تجنبه حتى لا يعرف أي انسان مسعاي وأتجنب كل شيء، قلت لكل منهم: لا يهمني معرفة نجباءك أو نقباءك، ما يعنيني ألا يموت العصب، مارسوا ما حلا لكم من أعمال، إلتحقوا بما شئتم من وظائف، ادخلوا أرجاء الخطط، لكم الفرجة والنزهة والمتعة، اسكروا، لوطوا، اخدعوا الأبكار، ازنوا، اسرقوا، كلوا مال اليتيم، إنهشوا ذوي القربى، خونوا كل شيء، تجسسوا، أفسدوا في مشارق الأرض ومغاربها، اتلفوا خيرات البر والبحر، ارتكبوا الاثم، ليس هناك ما يدعى بوطن، هذا وهم خلق ليموت الناس من أجله، لكن.. لا تضيعوا خبري أو أثري، ليبرز كل منكم موهبته، لكن صونوا الجوهر، سيدرك عقابي المخالف حتى وان اعتصم بالخلاوي، مهما تحصن أو تدثر، ربما اختفيت فترة قد تطول أو تقصر، ربما عذبت،

ربما حاولوا تحسين صورتي وتجميل حقيقتي، لكن حبالي ممدودة، قد يبتلعني شارع من الشوارع الروامي، قد اغوص في بحر من البحور الطوامي، لكنني أتابعكم، ألاحقكم، حتى يتجسد كل شيء كما فكرت، وخططت، ضعوا نصب أعينكم العجم فهم ألد اعدائي، الأفراد والجماعات والدول، أرى ملامحكم منذرة بكل شر خصب، كونوا كما أراكم..

قال أطولهم:

قلبي لفراقك محزون..

قال الأستاذ:

لكنني باق معكم.. حتى وان لم تروني.

نهاية مفاجئة للشارعين..

.. اليوم لم يظهر الاستاذ، نزل صمت غريب على العمال، والموظفين، أما العناني فلم يهدأ، قال ان ثمة شيئاً غير عادي قد جرى، لكن المؤكد ان المقصود به الأستاذ نفسه..

باب مستحدث، يقع قرب السور السادس، ومنه يلوح الميدان الكبير

اليه جاء خمسة هم أول القادمين، بينهم مسئول مالي بجهاز الرقابة على أموال الخطط، ومدير، وشخص لم تعرف

وظيفته، وضابطين بادارة أمن الخطط، انحنى البلشي وضم راحتي يديه، لكنهم تجاهلوه، وبدأ توالي الاشاعات، قيل انه ألقي القبض على الاستاذ، وانه سيقدم الى محكمة أمن الخطط، وان تهما خطيرة موجهة اليه، وأن التنوخي سيتولى جميع المسئوليات، وقيل انه سيتم تعيين شخص من خارج الدار، وأكد البعض ان البيجرمي استدعي ليصور الاستاذ في السجن المركزي، وقيل ان قوائم تعد بأسماء بعض الصحفيين والموظفين والعمال لنقلهم الى وظائف أخرى بالخطط، وان التنوخي هو الذي يعد أسماء من تقرر نقلهم، وعند سريان هذه الاشاعة وصل الجعيدي مرعوبا، استقصى الاخبار فلم يسمع الا همسا بالنقل والفصل، دار حول البوابة وخوف مقيم داخله، ما يخشاه أن ينقل الى جهة نائية مع ابنته، عندئذ سيبدأ حياة مغايرة لما مضى، لم تهدأ المضايقات بدءاً من استفزازات التنوخي وحتى اعتداء الوتيدي، وأمام من؟ أمام كاميليا، كاميليا، كاميليا النقية، الطاهرة، كاميليا التي يحاولون تلويث سمعتها، تسلم عدة خطابات، ينبئه الكاتب المجهول عن مغامرة في كل خطاب، اليوم ضاجعها الدمياطي وكان لون سروالها أحمر، اليوم مع التنوخي وكان لونه أزرق، العناني، فوزي العشري، الهلالي، حتى الأزهري، لم يبق إلا برتق.. يريدون تشويهها في

نظره، لكن محاولاتهم لم تزده الا عشقاً، لم يصدق، حام حولها من بعيد خاصة بعد تعرضه للاهانة أمامها، ليرصد اللحظ، ويستنشق الشذا، والوقفة المفاجئة، واشارات الأنامل، عزاؤه، انه يراها يوميا، منها يستمد طاقته، وقدرته على المشي والحركة والضحك بصوت عال في الخلاء غير المعمور اذا ثقل سيحرم من رؤيتها، عليه ألا يسكت، انه أحد المضطهدين، ولن يستمر اضطهاده في كل العهود، الجميع يعرفون ان التنوخي يمقته، والعناني يكرهه، يتقاضى أقل المرتبات، ولم تدفع له الدار أي مبلغ الى التأمينات من أجله، لا بد أن يبلغ هذه اللجنة حقيقة وضعه، ليكتب اذن مذكرة، لكن ربما جرت عليه المتاعب، اذن ليؤجل هذه الخطوة، أما الآن فسيطوف هنا مضفيا الهموم على ملامحه، اذا سأله أحدهم سيبدي رغبة في عدم البوح، حتى اذا ألحوا دعا الى الله بألا يحل ما أصابه بأي شخص من بني الانسان، سيقول انه اكتشف اصابة قديمة بالقلب، وانه لن يعيش الا شهورا معدودة، سيحرص على المشي متمهلا، ويسأل عن امكانية السفر الى الخارج للعلاج، أو لاجراء عملية جراحية، ليس من المعقول ان توافق اللجنة على نقل مريض مثله، شعر باطمئنان الى حد ما..

ظهر البيجرمي المصور، قال انه كان يعرف ما جرى،

لكنه لم يقل لأي انسان حرصا على أوضاعه الخاصة في الخطط، لقد سمع حواراً بين اثنين من الوزراء أثناء تصويره لهما في حفل عشاء، فهم كل شيء، خاصة عندما تجهم أحدهما ولهذا دلالة، قال ان التعليمات لم تصدر إليه من أية جهة، لكنه يتوقع شيئاً ما.

سمع صوت رجل لم يتبين ملامحه أحد:
يا رب.. خفف الشدائد..

عند الجانب الآخر من الباب يقف الوتيدي، لا يدري ما يجب أن يقوم به، لكنه شعر أن الأمور لن تمضي كما كانت، وبرغم ما جرى له فان قلبه انقبض لأن الأستاذ في خطر، واذا صح ما يقال عن اعتقاله ومصادرة أمواله فانه سيعرف البهدلة لأول مرة، هو الذي عاش معصوما من الأذى تجمع عدد من العمال، سألوه عن حقيقة ما يشاع حول زيادة المرتبات، لكنه لم يستطع رداً، اعتذر بكلام لطيف، انزوى منفردا مع الليل، لم يبتعد عن البوابة، ليرقب ما يدور بمنأى عن العيون..

حول البوابة نشط العناني، غزر عرقه، وتزايد نبض قلبه، بيوت عديدة مهددة وهذا ظرف لا يتكرر كثيرا، ربما عذبوا الأستاذ نفسه، ردد عبارات، موحيا بان عددا

سيفصل، حدق في العتمة الى الملامح والقسمات.

على مهل اقترب الدكتور الطنبولي، أقرب الناس لا يستطيعون التعرف اليه لشدة ما لحقه من تغيير، نقص وزنه حتى أصبح جلدا على عظم، وتباطأت خطواته، أما وجهه فلحقه تغيير ما لم تدركه كريمة بسهولة، ملامحه وياللغرابة أصبحت أرق، لم يزعق منذ عودته، وأنهى العديد من الاجراءات المالية وكأنه يكتب خطابا لأحد اصدقائه، كما وقع العديد من الشيكات بدون تردد، حتى حير ذلك كريمة وأربكها، ثم ازداد انزعاجها عندما جاء الكولي يصرف مكافأة مقدارها عشرين جنيها، فطلب منه الطنبولي أن يجلس للحديث قليلا، ثم استدعى كريمة وطلب كوبين من الشاي، لم يعد لديها شك في أن الرجل جن، وان المرض الطويل أربك عقله، وحارت.. الى من تفضي بأمرها؟ لم تتعامل الا معه، فكرت في رونق، لكنها مختفية منذ أيام، ثم عزمت أمرها على مقابلة التنوخي، ان الطنبولي أكثر ودا الآن، بل انه يحرص على ارضاء كل من سبب لهم أذى، لا يلتقي بشخص الا بادره بالتحية، وقد يمد يده مصافحا، عند وصوله الى البوابة أيقن من اختفاء الأستاذ، لم يفكر في تنفيذ الخطوات التي طال الإعداد لها منذ سنوات، اخفاء الدفاتر، إحلال ملفات مكان ملفات. توجيه الأوامر الى مدير قسم التوزيع

بتخفيض النسخ المباعة وتقليل الكميات المصدرة الى الخارج، تقليل حصيلة الاعلانات، تكليف مدير المطابع بعدم العناية وزيادة الاخطاء المطبعية، ومنح أكبر عدد من العاملين اجازات مرضية من قبل الدكتور السواري، لم يتذكر الطنبولي شيئاً من هذا. ولم يلاحظ ان كريمة أمرت بتنفيذ كل هذه الخطوات قبل وصول اللجنة، ان ما يشغل الطنبولي الآن، بناء مقبرة له في الخطط، حصل بالفعل على قطعة أرض في المدافن الشرقية، وبقي ان يتفق مع أحد المقاولين المتخصصين ليبنيها، بعد بحث طويل اختار الكفن، اشترى كفنا شرعيا من ثلاث طبقات. طبقتان قطنيتان، والثالثة حريرية، أخلى مكانا في البيت، وضع فيه القماش بحيث يمكنه رؤيته في أية لحظة أو حركة، توقف أمام المرآة، أحاط نفسه بالقماش الطويل، هز رأسه ودمعت عيناه مرارا عندما تخيل رقدته الأخيرة..

عند ساعة متأخرة جاء عدد من كبار الكتاب الذين لا يظهرون إلا نادرا، لأنهم لا يوقعون في ساعة الحضور أو الانصراف، انما يرسلون مقالاتهم، أما مكافآتهم فتصلهم الى بيوتهم، لم تهدأ الحركة حول البوابة. ترددت اسئلة في صمت الليل الذي يمكن ان يردد صدى رنين الابرة. «هل أعدت الكشوف؟»، «هل سيفرج عن العجم؟». «هل سيتقدم

الاستاذ الى الحاكمة؟ ». « هل صحيح انه هرب الى الأراضي الشمالية وأذاع رسالة بصوته من راديو الأعداء؟ ».

تحت البوابة مباشرة جلس قارىء كف، قصير، ضيق العينين، دعا كل من مر به الى الكشف عن طالعه فثمة أحداث عظيمة ستقع. وأمور عجيبة يراها في رحم الغيب، الى الجهة الشرقية تجمع عدداً من المرابطين، حدقوا صامتين، عند الفجر شوهد التنوخي يعبر البوابة مسرعا، لم يتحدث الى مخلوق لمح العناني ارهاق الجعيدي وحيرته. قال ان الأنباء لن تصدر اذا نقل أو فصل. اضفى الجعيدي ألما على وجهه. أشار بيده:

.. كف عن مضايقتي يا عناني.. كان ذلك ممكناً أما الآن.. فلا.. لا أحتمل..

تساءل العناني ساخرا: ما السبب؟

قال الجعيدي انه سيخبره بحقيقة آثر الاحتفاظ بها سرا لكنه لن يخفيها عنه، صحيح ان العناني ضايقه كثيرا، لكنهما أكلا معا الخبز والملح، انه زميل عمر، عمره المهدد الآن، انه.. انه مصاب بالقلب..

في هذه اللحظة علا ضجيج، ارتفعت أصوات باعة صحف، علقت نسخ من الأنباء، حدقت العيون، وتنقلت الألسن، اسم الاستاذ غير موجود في المكان الذي ظل يشغله منذ أعوام طويلة، التنوخي يحتل مكانه، هدأت نفوس، واطمأنت خواطر الى حد ما، التنوخي ابن الدار، وليس غريبا.. بدأ انصراف الناس من حول البوابة، أسرع العناني، نما الى علمه خبر مثير لا بد أن ينقله الى التنوخي، قبضوا على ابن قنديل الأزهري لأنه أعجمي خطير، قنديل مختف عن العيون، انه يدعي المرض وعنده أمل ألا يعرف الخبر.

تساءل عدد من الشخصيات عن مكان الأستاذ ومصيره.. ولم يجب أحد..

فوجيء برنق، ها هي رونق تجتاز البوابة على مهل، شاهقة الجمال، بالغة الغموض، صاح.. عاشت جلالة الملكة..

نقطة تفتيش

شددت قوات أمن الخطط التفتيش بعد مخرج البوابة، تم تفتيش جميع الشخصيات بدقة ومراجعة أحوالها، وصدر تحذير قوي ينبه بضرورة الانتباه الى أي انسان به أي أثر من العجم..

* * *

السور السادس، ويجد الميدان الكبير من جهة واحدة

في أوله علا قدر التنوخي، سطع نجمه وراقت له الدنيا، أصبح رئيسا للتحرير ومنسقا عاما لأعمال الدار، وهذا منصب استحدث لأول مرة بعد اعتبار الصحف ملكية عامة في الخطط..

وفي الصباح الباكر توافد مندوبون عن محلات بيع الزهور، كانوا يحملون باقات مختلفة الأحجام وضعت في سلال ملونة وحليت بشرائط حريرية وداخل كل باقة بطاقة باسم المهنيء، أمر التنوخي بجمع البطاقات حتى يشكر اصحابها، وقال البلشي ان أول باقة وصلت من الدكتور عبد العظيم السوافيري وحوالي التاسعة جاء الدكتور بنفسه، لكن قيل له ان التنوخي في اجتماع هام، عندئذ ترك مظروفا لدى البلشي، وأوضح انه يتضمن مقالة عاجلة حول تنظيمات الصحافة الجديدة ومزاياها.. ولاحظ العاملون في الدار وجود عدد كبير من برقيات التهنئة الملونة أمام البلشي،

برقيات من رؤساء صحف لم يتغيروا، برقيات من مديري مكاتب وكالات الأنباء الأجنبية في الخطط، من مراسلي الأقاليم، ورؤساء أقسام العلاقات العامة بالمصالح والشركات، وأعضاء هيئة الاذاعة المرئية، والاذاعة المسموعة، والوزراء، والمحافظين، ورؤساء المناطـــق، والأعضـــاء المنتخبين، وأصحاب بعض المتاجر الخاصة، ومديري مدارس اللغات، ولم يكتف بعض نجوم الفن بارسال برقيات، انما جاؤا بأنفسهم، ولكن البلشي انحنى لهم واعتذر عن عدم السماح لهم بدخول الدار لأن الظروف دقيقة، حتى الهلالي محرر الفن لا يستطيع مقابلة أي شخص، وجاء آخرون يجهلهم البلشي، لكنه ردهم بلطف.. ولم يكف رنين التليفون في غرفة الامبابي الضيقة، أول اتصال جاء من الضاحية النائية حيث يقيم قادة العهد الجمهوري، كان أحد المسئولين هناك يستفسر عن رقم التليفون الخاص بالتنوخي، ثم اتصل تاجر دراجات بخارية، ثم موظف محال الى المعاش، ثم امرأة رفضت أن تذكر اسمها، ثم امرأة أخرى قالت انها ستتكلم عندما تخف مشاغله، ثم فتاة قالت انها ابنة شهيد سقط خلال الحرب الثالثة ضد أعداء الخطط، ثم مدير مكتب أحد الوزراء، طلب ابلاغ التنوخي تحيات وأمنيات السيد الوزير، ثم سفير الولايات المتحدة في الخطط،

سفير المملكة المتحدة، ثم سفير ايرلندا، ثم ممثل جبهة التحرير الافريقية بالخطط، ثم الناطق باسم هيئة المعونة الدولية، ثم العشري المحرر العلمي الذي اعتذر لأنه لن يستطيع الحضور بنفسه اليوم للمشاركة في الحدث الكبير لبقائه في المرصد، ثم نقيب الصحفيين بالخطط، ثم صاحب مصنع مكرونة، ثم رجل يتحدث لغة لم يستطع الامبابي أن يفهمها..

أغلق التنوخي حجرته، طلب ألا يحول اليه أي تليفون من أي شخص مهما علا قدره. تأكد من إحكام قفل الباب، دار في الحجرة دورتين، ثم لعب حاجبيه، أخرج لسانه، رفع يديه مرعشا الوسطى في كليهما، ثم تراجع بمؤخرته الى الخلف، ثم الى يمين، الى شمال، ملأه زهو مفاجيء، قطب عينيه، تقمص الموقف الذي سيخاطب فيه المحررين. صفع قفاه بيده، أدخل إصبعه في استه، أمامه صولات وجولات، بأي المحررات يبدأ؟ كتم الاستاذ على نفسه زمنا طويلا، رونق، لا بد من رونق، وغيرها، لا بد أن يختار ممثلة مرموقة ليرافقها، تخيل حديث الآخرين عنه، «التنوخي يرافق الآن..» من؟، هدى الحلاوي، لا بأس، كل من عرفهن الاستاذ، ثم السفر، آه من السفر، طبعا سيسافر مع قادة العهد الجمهوري في رحلاتهم، جميع الدعوات سيحتجزها لنفسه، من الآن لن يلمع إلا اسمه، سيكتب المقال الافتتاحي، ومقال في الصفحة

الأولى، والصفحة الثالثة، وعمود يومي في الصفحة السادسة، ومربع في الصفحة الأخيرة به خواطر خفيفة، ها.. كان الاستاذ يخلق نجوما، يكتب للآخرين، لكن التنوخي سيطفىء أي ضوء، ويل للموهوب، ويل لمن يجيد الكتابة، بل انه سيوقع التحقيقات التي يكتبها الآخرون، أما عن مقالات التأييد لقادة العهد الجمهوري، فلينهلوا منها حتى آخر الدهر، كف عن تحريك مؤخرته، أمسك القلم، يجب ان يكون شكل توقيعه غريبا، معقدا، يصعب تقليده، يوحي لكل ناظر أن صاحب هذا التوقيع مهم، وعر، رجل داهية، راح يجرب أشكالا مختلفة للامضاء.. بعد لحظات بدأ يلفظ بعض العبارات بصوت مسموع، يجب ان يرهبه الآخرين، ليقتصد في الألفاظ، لكن ليثقل المعاني بالغموض، حتى يبعث الخوف الى كل من يقف أمامه...

وفيه اشتد البرد ليومين متتاليين، وانذرت السماء بسيل غزير، لكن لم يسقط مطر، وفي اليوم الثالث سطعت الشمس، اختفت الغيوم كأنها لم تكن.. وفي الأماكن الخلوية بدا الأفق بعيدا، نائيا..

وراقب المحالون الى المعاش حركة الطريق من خلف زجاج المقهى.

وهدأت الأمور في الأنباء الى حد ما، ضعفت اشاعات

الفصل، والنقل، بل اتخذت اجراءات مطمئنة، تم تعيين الجميدي، واثيل، وكاميليا، وعدد من العمال، وقيل ان ذلك تم بتوجيهات عليا، اقترح الجميدي ارسال برقية تأييد الى قادة العهد الجمهوري، حاولت كريمة تعطيل أوراق التعيينات الجديدة. لكن الطنبولي نهرها، أمرها بقضاء حوائج الناس وعدم تعطيل أمورهم، لكن كريمة لم تهدأ، نزلت الى التنوخي، شرحت وأفاضت، أبرزت المخاطر ونبهت الى بعض الأخطار والى خبايا الموقف المالي الذي تلم بتفاصيله أكثر من الطنبولي، الطنبولي الذي لم يعد الطنبولي، نصف وقته يقضيه في تناول الأدوية. والنصف الآخر يتفقد فيه المقبرة، اصغى اليها التنوخي، ابتسم فجأة، طلب منها أن تعتبر نفسها منذ الآن سكرتيرته ومديرة مكتبه..

وكثر القيل والقال بالنسبة لمصير الاستاذ، أكد بعضهم انه غادر الخطط الى الخارج بالاتفاق مع قادة العهد الجمهوري. وهمس آخرون بانه معتقل في مكان ما من الخطط، وان عناصر قضية خطيرة تكتمل الآن ضده، وان من يحاول البحث عنه أو الاستفسار عن مصيره أو الاتصال به سيلقى عقاباً، وعلى الرغم من ان بعضهم جهر بسببه إلا انهم لم يستطيعوا تفادي خواء حل بداخلهم، ومن هؤلاء العناني الذي قال في الصالة الرئيسية ان الجريدة مستواها الآن أفضل، وان

الاستاذ جثم على الأنباء عشرات السنين كالرصد، وقال الكوني إنه أخفى أموراً كثيرة لكن آن له أن يظهرها، أما الدمياطي فأخفى انزعاجا من تعيين التنوخي، لكنه لم يظهره، بل حرص على مقابلته عدة مرات في اليوم الواحد، واستطلاع رأيه في كل كبيرة وصغيرة، وسب الأستاذ علنا، فقال ان الدار أوشكت في السنوات الأخيرة على الافلاس، ظن البعض ان التنوخي غير راض عن الحملة ضد الأستاذ، خاصة وانه لم يشارك، ولم يذكر الأستاذ من قريب أو بعيد، وفكر الوتيدي ان يمضي اليه وان يقبله لأنه الوحيد الذي صان الجميل لكن الوتيدي فوجىء بالتنوخي يقول في اجتماع عام عقد بنادي الدار، ان الاستاذ وضع ذكاءه، وما تعلمه في غير موضعه، وانه كان مثلا سيئا في المواربة، والمكايدة والخبث، والمخاتلة، واحتقاره لكل الناس، خاصة قادة العهد الجمهوري، كان قلبه مع العهد الملكي للخطط..

وفيه سلم التنوخي الى ادارة أمن الخطط كراسة بخط الأستاذ، تتضمن أفكارا حول التردد، التردد وضرور القضاء عليه، التردد عند قبض رشوة، التردد عند الخيانة التردد قبل البوح بالسر الدفين، التردد الذي يسبق السرقة تردد الأنثى قبل أن تبيع جسدها لأول مرة، وتضمن الكراسة ملاحظات حول النفاق وأنواعه، ومزاياه، وأظها

وحجبه، وسمات المنافق الأصيل..

وأصدر التنوخي تعليماته الى الهلالي لكي يهتم بأخبار هدى الهلاوي وصورها...

وفيه علت صرخة حادة، ممدودة في جوف الليل، أصغى عسكري الدورية، لكن لم يتكرر ذلك...

وتوقف خواجة عجوز يبيع الجنبري المسلوق، وشرائح الجبن الرومي لزبائن آخر الليل في خمارة قديمة. اعتاد الرواد رؤيته منذ أربعين عاما لم ينقطع ليلة واحدة، بدا وكأنه يستند الى شيء خفي، سقط فوق الأرض دفعوه، ربتوا بأيديهم على وجهه، نفخوا في أذنيه..

وفيه جاء الدكتور عبد العظيم السوافيري غاضبا، طلب مقابلة التنوخي لكن كريمة صدته بجفاء، تساءل عما اذا كان من الممكن أن يكتب مذكرة قصيرة، كتب الى الأستاذ الكبير والكريم رئيس التحرير، يود أن ينبه فقط الى خطأ جسيم ارتكب في حقه عند نشر مقاله الأخير حول نظم الصحافة الجديدة، لقد نشر اسمه مجردا من حرف، «د»، الذي يسبقه عادة، وسبب له ذلك حرجا شديدا في الأوساط العلمية التي ينتمي اليها، ذلك انه جاهد عشر سنوات حتى حصل على درجة الدكتوراه مما حق له أن يسبق اسمه بحرف

«د» تخفيفا لكلمة الدكتور، انه يرجو تعديل الوضع بنشر تصحيح يقال فيه سقط سهوا، أو نشر مقاله التالي عن فرق العجم والفروق بينها...

واستدعي أبو ستة الى مكتب التنوخي، أبدى ترحيبا عاليا، وأصر على جلوس أبو ستة أولا، سأل عن أحواله، عن المتاعب التي يلقاها، قال انه لا يشكو إلا من قسم التصوير، اذ يأبى بعضهم الخروج معه بحجة ان منظره غير مشرف، مع انه اشترى أحذية متينة، وملابس جديدة، أما البيجرمي، البيجرمي اللعين، فانه يتعمد مد عشرة قروش اليه كلما دخل عليه ثم.. يتدارك الأمر مسرعا، يقول انه ظنه أحد الفقراء الذين يجيئون لطلب الحسنة، أبدى التنوخي انفعالا، وغضبا، وأعلن ان البيجرمي سيخرج معه بنفسه في كل مرة، وانه سيصدر تعليماته بذلك. وعندما استدار الى المكتب غمرته حالة قرف شديد لأبو ستة، وإشمئزاز من حركة فمه عند الكلام خاصة مع إغماضه لاحدى عينيه واتساع الأخرى. وتزايد الافراز، لكنه لحظة ان عاد الى مواجهته أصبح وديعا، يشعر بميل الى مصاحبته والافضاء اليه بالأسرار والنوايا، اقترب منه، سأله، هل صحيح ان أحد أقاربه يعمل في ادارة أمن الخطط؟ وانه يحتل منصبا كبيرا؟. ارتجفت عينا أبو ستة وتزايد افرازها، قال التنوخي إنه يعفيه من

الاجابة نظراً لسرية الموضوع..

وفيه انحنى البلشي وأسرع يخطو تجاه المصعد ليفتح الباب. لكن أبو ستة نحاه جانبا وطلب منه أن يلزم مكانه..

واستدعي الجعيدي لمقابلة التنوخي، قال ان ما سمعه عن مرضه بالقلب آلمه وضايقه، أحنى الجعيدي رأسه، قال انها مشيئة الله، طلب منه أن يذهب الى العيادة فورا، الدكتور السواري في انتظاره، ستتحمل الدار تكاليف العلاج، حتى لو أدى الأمر الى سفره، أبدى الجعيدي امتنانا، قال انه يعالج، وان الأمر لا يستحق الازعاج أو تكليف الدار..، رفع التنوخي يده.. لا.. صحة العاملين فوق كل شيء..

وفيه تابع الجعيدي ملامح الدكتور السواري بقلق، هل سيكتب مذكرة ضده؟ هل سيعاقبه التنوخي لادعائه المرض؟ عقد الدكتور يديه أمام صدره، مط شفتيه، قال ان الأمر تأجل طويلا، فز الجعيدي مرعوبا، ماذا؟، كرر الدكتور بهدوء حزين: لقد تأخرت أكثر مما يجب..

وفيه زعق المؤذن:

ألطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير..

والتقى التنوخي برونق بعد عودتها الى الدار، لم يسألها عن الجهة التي اختفت فيها، ولم يعاتبها، لكنه قال ان الدار

كلها ملك لها، ويمكنها أن تستمر في عملها مديرة لمكتبه، أو اختيار أي عمل آخر، قال انه يعرف مدى حزنها، لكن لو عرفت ما يعرفه فلن تحزن لحظة واحدة على الأستاذ، ان ما ارتكبه هذا الرجل في حق الخطط يفوق أي تصور، ولكن لا داعي الآن.. المهم أن تشعر رونق الجميلة بالراحة، قالت متجاهلة كل ما قاله انها جاءت لتستعيد بعض أوراقها الخاصة، وانها لا تفكر في التردد يوميا، قال منفعلا انها تستطيع البقاء في البيت وارسال مقالة مترجمة، أو تحقيق منقول عن أية صحيفة عالمية، قالت بهدوء أنها لم تفكر بعد فيما يجب ان يكون. أطرق، افتعل الارتباك، قال ان لديه ما يود أن يبوح به، لديه ما كتمه، ما لم يجرؤ على النطق به، لكن الى متى..

وفيه زعق برنق:

تعيش جلالة الملكة..

بدا لها ضخما، متين الرقبة، صاح برنق متسائلا، م يحين الأوان؟ متى يعين ساعيا في الدار؟ متى تصرف له حلة في الصيف؟ وحلة في الشتاء؟ فكرت رونق في الاستاذ، في برنق، في التنوخي، ابتسمت لمح برنق الابتسامة.. زعق:

تعيش جلالة الملكة..

وفيه ظهر برنق في ساعة مبكرة، على غير عادته بدا

نحيفا، مغسول الجلد، فرد يديه، هلل:

وصلنا.. وصلنا والحمد لله..

واستعاد خالد حلما غريبا، رأى نفسه في مكان خلوي، أرضه من صخر، ناء عن الدنيا كلها، وفوقه، في الفراغ وقف اثنان، ملامحهما غريبة، كانا يوجهان الحديث الى جهة ما في الفضاء الفسيح:

انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة..

لم يجبها أحد، كررا:

انا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة..

طارده الحلم، رآه مرتين في ليلة واحدة، كان قلقا، أسرع الخطى، يخشى غضب أبيه برغم ظهور نتيجة شهادة التجارة المتوسطة منذ أسابيع وبخاصة بتفوق، لكنه لم يعمل حتى الآن، بعد انتهاء الدراسة وتخرجه شعر كأن أرضا سحبت من تحته، لن يستيقظ في نفس الميعاد، لن يذهب الى المدرسة، لن يلتقي بأصحابه، ربما التحق بوظيفة ما، لكن المؤكد ان عهدا بأكمله قد ولىّ، في كل يوم يجلس الى بائع الكتب العجوز، يقرأ منذ الظهيرة وحتى نزول الليل، ينتظر حتى مجيء الرجل الذي يحمل سلما طويلا ليشعل المصابيح، ثم يستمر في القراءة، في الاجازات الصيفية الماضية كان يطلب

إلحاقه بأي عمل، لكن أبوه يقف غاضبا، يتهمه بانه لا يرغب في التعليم، وانه كسول، ولن ينجح أبدا، بعد صمت يقول انه لا يريد له البهدلة، يتمنى أن يراه مع اسماعيل وقد حصلا على شهادات عالية، باع ما وراءه وما أمامه حتى يصل بهما الى ما وصلا اليه، يرق صوته، يغمره تأثر حتى انه يقبّل خالد واسماعيل، تحتج امها بدلال، ليترك الولدين لمذاكرتها، كثيرا ما قال بدون مقدمات، شوف يا خالد يا بني، من لم يجرب الوظائف الصغيرة لن يعرف الذل أيضا، قبل دخول خالد مدرسة التجارة المتوسطة طلب منه أن يضع المصحف على عينيه، وأن يقسم على استمراره في الدراسة حتى يحصل على مؤهل عال... على أية حال لن يطول الوقت، بعض زملائه التحقوا بوظائف، سيساعد أباه، ويشتري ما يشاء من كتب، ودولاباً قديماً صغيراً يصف فيه ما كتبه..

وفيه تطلعت ايثار الى مجدي رمزي، لم تخف ولها أثناء جلوسها في الحديقة، سيسافر الليلة الى باريس بمفرده، يوما ما ستسافر معه، عند ذهابه لتسلم الجائزة.. أية جائزة.. ستقف بجواره فخورة..

وكتب عرائض كثيرة، رفعت الى جهات متفرقة..

واشتعلت حرائق على أوقات متباعدة..

وقتل أربعة من العجم في أوقات متفرقة داخل المعتقل

وهبت رياح سريعة، ورياح متوسطة، ورياح لم تتجاوز سرعتها ميلا واحدا فلم تهز قمم الأشجار.. وأقسم احد العمال انه رأى رونق مع برنق في سيارة واحدة، قال مستمعوه ان هذا تخريف مبين..

ورن التليفون في بيت الدكتور فهمي صبري:

أنا صفية عزت الفنانة التشكيلية.

ردت الزوجة بأنها لا تذكر صاحبة الصوت، ثم قالت بحزم:

لا.. ليس عندي اخبار عن الدكتور..

وتأمل الوتيدي طفله الذي لم يتعد عمره دقائق، أمسكت الممرضة أنفه، عاط عياطاً نحيلا، أدركت الوتيدي حيرة، لم يدر ما يفعل!!

وفيه شعرت سميحة ان كرامتها جريحة، أضمرت غيظا، استعادت أيامها القصيرة التي تلت زواجها بشكري، تعبها من أجل تكوين البيت، ادخار القرش فوق القرش، حماسه المفاجىء وشراءه هدية بكل ما يملكه لحظتها، تحتج، لكن احتجاجها يخفي فرحا، وعندما طرقوا الباب في الفجر ودخلوا بدون أية مقدمات دهشت لأنه بدا وكأنه يتوقع ذلك، وأخيرا تكتشف انه أخفى عنها علاقته بامرأة أفرنجية، تعيش في ايطاليا، جاؤا بخطاباته التي وصلته الى عنوان

عمله، تذكره الايطالية بالساعات السعيدة التي أمضياها معا
متى حدث ذلك؟ تعرف شكري منذ خمس سنوات، كل م
قاله انه أحب بنات الجيران من طرف بعيد، لم يقل انه سافر
الى الخارج، متى تعرف اليها، وأين؟ أشار الضابط الذي
يرتدي الملابس المدنية، الى طوابع البريد الأجنبية، بدا
وسيما، مهذبا، قال انهم ترددوا قبل اطلاعها على الخطابات،
لكن اتصال زوجها بهذه الفتاة الأجنبية يزيد موقفه تعقيدا..

وفيه أمر التنوخي بعدم ذكر الاستاذ في مكاتب الدار،
أو المطابع، أو أروقتها، وكلف الوتيدي بمتابعة ذلك، وأصدر
قرارا بازالة اسم الاستاذ من صدر الصفحة الأولى باعتبار
مؤسسا للأنباء.

وفيه قال شيخ المرابطين انه سيتحدث اليهم عن سيدنا
الخضر، أمل الأمل، ومن انقطعت بهم السبل، ومن اضاعته
الطريق، وأضنتهم الوحدة، قال ان سيدنا الخضر مشى في
أحد الأسواق، فلقيه انسان، قال له تصدق علي، قال سيدنا
الخضر: ما معي شيء إلا أن تأخذ بيدي، وتدخلني السوق
فتبيعني، فأخذ الخضر وأدخله السوق فباعه بأربعمائة درهم
لبث عند المشتري اياما لا يستعمله في شيء، قال له: استعملني
فقال انك شيخ كبير وأكره ان أشق عليك، قال: لا يشق
علي، قال: قم فانقل هذه الحجارة من هنا الى ههنا، وكانت

الحجارة لا يمكن لستة أنفار نقلها في يوم كامل، فنقلها في ساعة
واحدة. ثم ان الرجل طلب منه ان يضرب له لبنا لقصره فاذا
بسيدنا الخضر قد شيد القصر في مدة وجيزة، فسأله الرجل
متعجبا. من انت؟ قال: أنا المملوك الذي اشتريته. قال:
سألتك بالله ان تخبرني من انت؟ فقال ان مثل هذا القسم
أوقعه في العبودية. أنا الخضر، سألني سائل بوجه ربي ان
اعطيه فأمكنته من نفسي فباعني، فبكى الرجل، وانكب
عليه ليقبله، وأعطاه أربعمائة دينار. فأوحي الله اليه، قد
أنجيتك من الرق، وأعطاك الرجل مكان كل درهم دينارا.
لتعلم ان لا يخسر أحد من معاملتي..

وعند القرية النائية، قرب الخلاوي، اقترب سليمان
الصغير من الراعي العجوز، كان يظنه أبيه، قال: يا ابتاه، ما
أرمي شيئاً بحجر الا قتلته، قال الراعي، أبشر يا بني لن
يغلبك أحد، عاد سليمان الى الراعي العجوز، يا أبتاه، لقد
دخلت بين الجبال فوجدت وحشا. لم أخف منه، وقفت
أمامه، وعرفت ما ينوي قوله لي. قال الراعي العجوز: ابشر
يا بني ستعرف كل حيوانات الخلاوي ولن يؤذيك أحدها، عاد
سليمان الى الراعي العجوز، يا ابتاه، رأيت سوقا داخل
الخلاوي، فيه مالذ وطاب، لكنني البائع الوحيد والمشتري

الوحيد. قال الراعي العجوز، ابشر يا بني سيكون عمار الخلاوي على يديك..

* * *

الميدان الكبير

.. وتصب فيه كل الشوارع، وتلوح منه كل الأسوار، واليه تتجه كافة الخطى، ومنه تبدأ الطرق والمدقات والممرات الى المشارف ثم الضواحي، والمناطق البعيدة، والأحياء العامرة المأهولة، والخلاوي الخربة المجهولة. مدخله واحد ومخرجه واحد، ولا بد لكل شخصيات الخطط من اجتيازه، أول شخصية عبرته جريا، برنق العبيط، بدأ يعدو الا انه توقف في منتصفه تقريبا، فرد يديه، رفع ساقا وخفض الأخرى، زعق معلنا انه نام مع رونق، ضاجعها أربع مرات في ليلة واحدة بعد أن نقعته في الحمام ساعة كاملة، أغرقته بالعطور، ثم قبلت كل جزء في جسده، وقالت له مع طلوع النهار انه الوحيد، الرجل الحقيقي ولا منافس له. في هذه اللحظة اقترب من برنق أربعة عمال، صاحوا به ان يكف، صفعه أحدهم على قفاه، مد آخر عصا طويلة نخس بها ضلوعه. انتفض هائجا، دار على نفسه مادا ذراعيه الى كافة الاتجاهات، لكنه لم يصب أحدهم لبعدهم عنه. صرخ

«ستتزوجني يا أولاد الكلب...»، وصل زعيق برنتق الى سمع الجعيدي، لو عرف بأمر كهذا داخل الشوارع والأسوار لهرع من فوره الى الخلاء غير المطروق، يقص ما سمعه ويفضفض عن نفسه، خاصة ان رونق آذته، وفضحته بعد رفضها الاصغاء اليه في شارع الوشاية، لكن الأمر يختلف هنا منذ فترة يتبع تعليمات الدكتور السواري، لا يعرض نفس للانفعال، ولا يبذل مجهودا فوق طاقته، لا يجري ولا ينهض فجأة، ان خوفا يستبد به، انه يخشى موت السكتة، يصغي في الليل الى دقات قلبه محاولا اكتشاف الخلل، تمنى لو انه يختلق الكذبة التي أصبحت حقيقة، أراد ان يحمي نفسه من النقل أو الفصل، لكن الأمر تحول الى مصيبة، أشد ما يخافه مصير ابنته بعده. البنت تفور بسرعة، من يرها يقدر عمرها بعشرين سنة، وهي لم تتجاوز الرابعة عشر، اكتملت انوثتها وكل شهر قمري تنزل الى الصيدلية لتشتري قطنا طبيا، و تخفيه أثناء صعودها السلم، حتى انه لفت نظرها الى ذلك فوجىء بها تقول له ان كل النساء يحدث لهن ذلك ولا يود ان تغيب عن عينيه لحظة، خاصة في هذا الميدان الفسيح المظلل بغيوم ثقال، والمعرض للهواء البارد الذي يثير دوامات صغيرة من التراب والورق القديم وبقايا الأشياء الغامضة، انه لا يتركها في البيت بمفردها، يصحبها دائما، وعندما يمضي ليشتري

شيئا ما ويتركها مضطربا في حديقة النقابة. يحذرها من كلام الشبان المعسول، وعبارات الغزل، ويلمح الى أساليب الاستدراج المختلفة، اشد ما يثير اضطرابه تصوره لها عارية مع أحدهم، انها لم تغب عن باله، ما يضايقه منها صمتها الدائم، انها تمشي بجواره في الميدان، لا تهتم بالنظر الى برنتق الذي راح يعدو متجها الى الضواحي، ينظر اليها متسائلا، هل سمعت ما تفوه به هذا العبيط، يخشى الا يجدها بجواره في لحظة ما، يروعه ان تظهر عليها علامات حمل مفاجىء، يجذبها اليه، يخاف مشيها تحت أسلاك الترام الكهربائية، ربما تسقط فوقها فجأة، يحرص على تجنب المشي فوق الكباري. خوفا من انهيارها، أو إصابته بدوار يسقط بعده في الماء، يحذر صوت الخطى في الليل، خاصة بعدان حذره العناني من اهتمام ادارة امن الخطط به، واستفسار بعض الضباط عنه، صحيح.. ألم ينظر اليه أبو ستة بعينيه الموجتين، وصلته بادارة الأمن معروفة، في الصباح يقوم من النوم، يهدأ عندما يرى الأشياء، سمع عن كثيرين استيقظوا وفوجئوا بظلام دامس، وظنوا أن النوافذ مغلقة، ثم صرخوا رعبا، طوال النهار يتحسس أجزاء جسده ليكتشف أي ورم قد يحدث في وقت مبكر، انه يتكىء على ذراع ابنته الآن، على وجهه أسى، حتى قدرته على السخرية وهنت، الأمان مفتقد، ظن ان الأمور ستصير

الى الأفضل بعد اختفاء الاستاذ. لكن أيامه تبدو الآن حلم
بالنسبة لغلاسة التنوخي، وسوء خلقه، وصغره، وحطة شأنه
الكلب، عندما سمع ان الكولي أصدر كتابا صغيرا جمع فيه
مختارات من الشعر القديم هاج، ولم يهدأ، كيف يصدر أحد
المحررين كتابا وهو ليس له كتب بعد. أحال الكولي الى
التحقيق بتهمة الاهمال في العمل والانشغال بأمور خارجية
وأعلن انه لن يهدأ حتى يكف الكولي عن تأليف الكتب، أو
يفصل فصلا نهائيا، أقدم على ما لم يكن الأستاذ يفكر فيه
انهاء عقود الكتاب الكبار في الخطط، قال في اجتماع عام ان
عصر المقالات المدبجة انتهى، وان الصحافة هي صحافة الخبر
فقط، وقال ان الاستاذ ارتكب جريمة في حق العاملين لأن
هؤلاء الكتاب كلفوا الدار أموالا طائلة، ان الجعيدي يعلم
الآن معرفته بالشعر أو الأمثال، أو الأدب، لا يدري ما
ينتظره في المشارف، أو الضواحي، ماذا سيجري بعد عبوره
الميدان الكبير، هل سيختفي تماما من الخطط، أو سيظهر
لفترات محدودة، لا يلفت النظر، وربما بعث الضيق والملل
أما ما سيجري بعد يوم أو سنة لابنته، فهذا لب همه
وشاغله. انه يلمح أفرادا عديدين يقفون في أنحاء الميدان
الكبير، تبدو على ملامحهم سمات السرية والجدية، أنهم
الخطط، انهم يدققون في ملامح العابرين، ويراجعون ملفا

بعض الشخصيات، واحتمالات تطورها في المشارف ثم
الضواحي، بعضهم يحمل أجهزة لاسلكي صغيرة يتحدثون
همسا فيها، يتزايد العابرون، تقف كريمة المرجله فجأة،
تتشاغل عن خطيبها الذي بدا واضحا انه يبثها عبارات
الغرام، أو شكوى أو نجوى، انه طويل القامة، مفرود
الصدر، مضيء الوجه، كثيف الحاجبين، أسود العينين،
التفت اليه، خلعت الدبلة الذهبية، قالت بحزم إن العلاقة لا
يمكن أن تستمر، علا صوتها الخشن، ارتعشت يدها، تساءل
الشاب عن السبب، قالت إنهما لا يليقان ببعضهما، كاد يبكي
وهو يرجوها أن تمنحه فرصة، فرصة فقط، لفت صوتها نظر
بعض العابرين برغم انشغال كل منهم بنفسه، قالت ان ما
أمرت به بمجلس الموبيليا يجب أن ينفذ، أومأ، طلبت منه ان
يقسم، أقسم، عندئذ اعادت الدبلة الى اصبعها، استمرت،
تتقدمه بخطوتين، لمح الدكتور الطنبولي انه يمشي على مهل،
لم تلفت نظره مع انها ظلت أقرب الناس اليه طوال أعوام
عديدة؟ قليلون من عرفوا قدرتها على انتزاع أي توقيع منه،
يراها المجتمعون حوله الآن ككيان منفصل، وكأنهم لم يعرفوها، بل ان
ما جرى في الشوارع والأسوار قبل مرضه يبدو له الآن
مستعصيا على الفهم، يلوح نائيا، بعيدا، مضبب وكأنه لم
يكن، لماذا عطل أمور الناس؟ لماذا أقامه الشح فيما لا يخصه؟

وإلا آلت الأمور، كان من الممكن أن يعيش حياته بشكل أفضل، لم يسافر مرة واحدة خارج الخطط، لم ير الدنيا، لو يمكنه العودة الآن الى بداية الشوارع، حتى الأستاذ اختفى قبل عبوره الميدان. انتهى من بناء مقبرته، أنفق نصف مدخراته عليها، شيد المقاول حجرتين صغيرتين تحت الأرض، واحدة للرجال والأخرى للحريم، انه مقطوع من شجرة، لم يتزوج، ولا أقارب له، أوصى بأن يدفن بعض الموتى الذين لا يمتلكون مدافن، لا يريد أن يبقى وحيدا، ليشاركه رقدته الأبدية من لم يعرفهم في حياته، ومن لم يرهم، تردد كثيرا بمفرده بعد إتمام أعمال البناء، دخل حجرة الرجال، تمدد فوق الرمال الجافة، اصغى الى الصمت العجيب، الصمت الذي لا منام له، والبرودة، وتوقف الدورة، اللطف باللطيف، ما أهم الاجراءات لكي ينفق النصف الآخر من مدخراته على شمعة لمبة صغيرة تضيء المدخل، كما فرش المقدمة بالطوب، وبعض تناوي الريحان ليظلله النبات الأخضر، انه يتوقف الآن، لم يوغل بعد في الميدان، ماذا تبقى له في الخطط؟ الناس منشغلون عن بعضهم، يلتزمون الصمت، لا يتشاغل كل منهم عن أحبائه، عن صحبه، لا يدري لماذا ينتظره في المشارف أو الضواحي، إنه يقينا ينمو داخله، كل ما يجري عارض زائل، لا بد أن يختفي، أن استمراره بلا جدوى، أتم مهمته

في الخطط، يعيقه الخواء والمرض عن الاستمرار، لا يريد أن يصبح من الزوائد، أو عالة على الأحداث، ما يريده الآن الرقاد، رقاد يطول، ينحرف مساره، ولبطء خطاه لم يلحظ رجال الأمن في البداية تغير مساره، أوقفوه، في صوت ضعيف قال ان المسافات تطول، ولا جدوى منه، وانه يفضل أن يتنحى بنفسه قبل أن يسقط ولن يجد من يحمله. أجرى أحدهم اتصالا، بعد دقيقة أومأ أحدهم له، وعلى مهل راح الطنبولي ينأى عن الميدان. عن الخطط.

تتزايد الحركة بالميدان، تبدو وجوه عديدة لعمال وموظفين، وجوه أخرى لا يعرف أصحابها، رجال ونساء من مختلف الأعمار، بينهم مشى جعفر الساعي متجهماً، لقد دفعوه دفعاً الى عبور الميدان، لم يشأ مغادرة مكانه في آخر الشوارع، رفض تماما أن يعمل في خدمة التنوخي، قال إن اليد التي امتدت بالقهوة الى الاستاذ لن تمد الى أي شخص آخر مهما علا قدره، لم يتقدم باتجاه الميدان الا بعد ان لاحت له امكانية عمل في جهة أخرى، ويقال إن رونق سيمت في سبيل ذلك. اختفى الأستاذ، لكن نفسه في كل مكان، يثق جعفر انه سيظهر فجأة في مكان ما من الخطط، عندئذ يبادله النظر في صمت، ويتبعه، انه الوحيد الذي رافق الأستاذ منذ طفولته حتى اختفائه، يعرف

ان الوفاء يزعج الأستاذ، خاصة اذا جاء من ساع بسيط
يقف في مواجهة نذل كالتنوخي، الاخلاص من الأمور التي
سدد اليها حرابه، لكن جعفر مستثنى. يقترب منه الآن ثلا
من راكبي الجمال، بدا ظهورهم غريبا، صاح أحد رجا
الأمن، لماذا يتجهون الى المشارف ثم الضواحي ولم يبد أثر
في الشوارع والأسوار. جاء صوت غامض في الجهاز الص
يقول ان هذا غير صحيح.. سبق ظهورهم عند السور الثا
انهم يسعون في أثر البعض، وعند نقطة معينة من المشار
سيتوغلون في درب غير مطروق يؤدي الى البحر الأعظم،
سماء الميدان عبرت اسراب متتالية من الطائرات المقاتلة
وطائرات الاستطلاع بعيدة المدى، وعلى الرغم من ع
اهتمام أحد حتى الأطفال لانشغال الكل بالمصير، الا ان ر
الأمن السريين رددوا بصوت مرتفع، انها طائرات سلاح
الخطط تقوم بدوريات مفاجئة لحماية العابرين من الأعدا
تكثف الحركة، يظهر ذوي الملامح الغريبة، لم يلفت ظهور
أحد، تمشي هدى الحلاوي متمهلة، فارهة، غزيرة الانو
تفيض بالرغبة، ترتدي فستانا يحدد الملامح والخبايا، لـ
هذا لم يلفت نظر أحد وغاظها ذلك. لكنها تمنت الا
أحد الصحفيين العاملين بالأنباء، بأدلها التنوخي، الحب أر
شهور كاملة، أكل وشرب ورقص عاريا كما ولدته امه وقبل

لا يصح تقبيله في بيتها، اشترت له من روما، من باريس، من
كان، ولندن، من الممكن أن تقبل أي شيء عدا الذي
رأته بعينيها عندما استيقظت في الفجر لتجد مكانه خاليا،
لتفاجأ به يبث الخادمة هيامه، يقول لها ان باطن قدميها
أنظف من سقف حلق سيدتها المصابة برض سري، لم تشهر به
خوفا منه، من قدرته على تشويهها، بعد انقطاعه عنها،
فوجئت بأخبارها تنشر يوميا، واسمها يذكر بمناسبة وبدون
مناسبة، لكنها خافته أكثر، لم تفكر في طلبه أو استئناف
علاقتها به، أشد ما تخشاه ان تلمحه هنا، تعرف جرأته
وبجاحته. لكن التنوخي كان يعبر الميدان في هذه اللحظة من
نقطة بعيدة تقترب من أطراف السور السادس، ملامحه
تغيرت، انه أكثر امتلاء، حضوره يوحي بالأهمية وانه
مسؤول، انضم الى أولئك الذين يحتلون المناصب والمراكز،
الياقة حول رقبته نظيفة، حتى الشارع السادس كان يستحم
مرتين في اليوم، ويدعك جلده بالصابون واللوف الخشن، لكن
القميص يتسخ بعد نصف ساعة، حيره ذلك وعجب لأولئك
الذين يرتدون الياقات البيضاء يوما كاملا وتظل محتفظة
بنصاعتها، انه يتحدث الآن على مهل بعكس طريقته التي
عرف بها، يشير بالقلم الرصاص كما رأى مسؤول كبير من
سكان الضاحية البعيدة، وينقر المكتب بأصابعه قبل الرد كما

يفعل أحد كبار الضباط بادارة الأمن، منذ فترة اشترى سيارة من أموال الدار، حرص على قيادتها بنفسه، كان يتجول بها في الشوارع، يحرص على اخراج ذراعه المنثنية من النافذة، وتناول منديل ورقي من العلبة التي وضعها فوق لوحة القيادة، عندما يعترضه أحد المشاة يسب بصوت عالٍ هؤلاء البهائم الذين يمشون على الأرض، ويشتم السائقين الآخرين ويلعن من منحهم رخص القيادة، وعند رؤيته امرأة ينظر اليها داعيا اياها للركوب، وبعد تجاوزها يعلق بصره بالمرآة العاكسة لعلها حسمت ترددا، أو تمد الخطى لتلحق به، كذلك راح يردد عدة الفاظ مرتبطة بالسيارة، فمن ذلك قوله: «رأيته عند طلوعي من الجراج...»، أو «كسر علي أثناء دخولي الطريق...» أو «ركنت بصعوبة ظهر اليوم بسبب الازدحام الشديد..» أو يبدو عليه الأسف اذ يقول «عندي خبطة في الرفراف الخلفي، لا أدري حتى الآن سببها..». وأثناء مشيه مترجلا يحرص على امساك حلقة المفاتيح والتلويح بمفتاح السيارة البارز الظاهر، واستمر على ذلك زمنا حتى همس اليه أحدهم بانه لا يليق بمن كان في مثل مكانته ان يقود السيارة بنفسه. عندئذ أصدر قرارا بتعيين سائق خاص، وألبسه حلة زرقاء وقبعة، وجلس في المقعد الخلفي، وكان يقرأ الصحف أو بعض الأوراق في السيارة

حتى يوحي بأهمية منصبه، وفي أيام الحر يخلع جاكتته ويعلقها الى النافذة، ويفك رباط العنق قليلاً، ويتطلع بضيق الى الخلق، من الأمور التي استجدت أيضا نشر صورته مع المقال اليومي له، وقد التقط له البيجرمي مجموعة من الصور، صورة يبدو مبتسما، صورة يضع اصابعه على رأسه مفكرا، صورة ينظر فيها الى جهة ما، وغدا التنوخي أول من نشر صورته مع مقال أو تحقيق، وأول من صدر تحقيقاته بعبارة «التنوخي يكتب من باريس... أو لندن، أو أثينا..»، ان مقابلته الآن صعبة، والدخول عليه لا يتم الا من خلال كريمة المرجاء، غير انه كرر ظهوره المفاجئ في أروقة الدار، كان يستمتع برد الفعل على وجوه المحررين أو السعاة. أو العمال، عندما يجدونه فجأة في الصالة، أو المطبعة، أو في أحد الأروقة يمشي ثم ينحني فجأة متناولا ورقة ملقاة أو عقب سيجارة ثم يزعق مناديا اقرب السعاة اليه مؤنبا، موبخا، انه يتمنى الآن لقاء رونق في المشارف أو الضواحي، لن يهدأ له بال حتى ينالها، انها مختفية الآن، لكنه يثق من ظهورها، ورسوها بين ذراعيه، عندئذ يفك الغازها، ويحتل نفس الموضع الذي احتله الأستاذ زمنا، يضطرب قليلا، يرتبك الى حد ما عند تذكره للاستاذ. لكنه يتمالك نفسه ويمضي بخطوة ثابتة. بينما تمرق في الأعالي ثلاث طائرات مقاتلة، على مقربة تقف

امرأة عجوز، ترجو العابرين ان يدلوها على أثر ابنتها، ترى: هل تعيش؟ أم ان صاحب الأرواح كلها تذكرها لو عادت اليها خيرية. لو جاءتها، لو نادتها الآن، لن تفرط فيها أبدا حتى لو تسولت، لو أكلت الخبز الجاف بالدقة والملح، لا أحد يصغي اليها، لا أحد يستمع وخيرية هي كل ما خرجت به من الدنيا؟ انها تتقدم على مهل، يدفعها اتجاه الحركة، الى أين؟ لا تدري.. سألت رجلا يبدو هادىء الملامح، من أين الطريق الى تركيا يا بني؟ نظر اليها الهلالي بعينين باردتين، كأنه لم يصغ، كأنه لم يستمع، هل تقصد العجوز التلميح الى أمر ما؟ الايقاع به؟ أم انها امرأة مجنونة؟ أم انه إختبار سري يجري لشخصيات الخطط قبل الخروج من الميدان الكبير؟ سمع ما تردد في الخطط عن مثل هذه الاختبارات الغريبة والتي ستجري بطرق متعددة. أي طريق من هنا يؤدي الى تركيا؟ بل أين تركيا نفسها، تركيا، تركيا، نفض الكلمة من رأسه. يريد الوصول الى أطراف المشارق بدون متاعب، أو مضايقات، يعرفونه في الخطط كمحرر فني، لا يهتم الا بالضيافة، والأخبار التافهة، من تزوج من؟ ولون الفساتين الجديدة لهذه أو تلك. انه يرتجف الآن خشية ما تردد في ذهنه فجأة، طفا بيت شعر قديم لا يدري قائله، أو متى سمعه؟ لا يدري من أي حس يظهر في عقله، يسيطر عليه لحظات...

ليس كل ما في نفس المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

يتلفت حوله، لحسن حظه ان الجميع متشاغلين عنه وعن أنفسهم، أوغلوا في الميدان مسافة، والأرض مرصوفة الآن بحجارة سوداء مصقولة، وثمة مصابيح قديمة الطراز، منقوشة الجذوع بورود وأطفال تنبت من اكتافهم أجنحة.

يتردد فجأة صوت معدني، مصدره خفي، يتذكره عدد كبير، انه مذيع قديم، تخصص في برامج الأطفال، شعر الكثيرون بحنين غامض الى أيام ولت، انه يتلو نصوص خطابات وصلت اليه من أطفال يبدون رغباتهم حول الوظائف التي يتمنون الالتحاق بها في الضواحي..

مها سعد تتمنى ان تصبح دكتورة..
أحمد عهدي.. مهندس مطابع الكترونية..
باكينام ممتاز.. مذيعة..
محسن النجومي.. ضابط أمن..
خليفه محمد.. طيار..
فتحي الهادي...

من مكان ما في الميدان زعق صوت: «الطف بنا يا مولانا فيما جرت به المقادير»، مشى ثلاثون شابا، أعمارهم

متقاربة، أطوالهم متساوية، ملامحهم متشابهة، يلوحون بأيديهم، يحركون شفاههم، لا ينطقون، لم يلتفت اليهم أحد..، أثار منظرهم فرح حافظ الذي فصله الاستاذ منذ زمن بعيد، لو ان الظروف مواتية لجمع توقيعات هؤلاء الشبان على عريضة يرفعها الى سكان الضاحية البعيدة، يرجوهم افساح مكان له في الخطط، انه يحاول الوصول الى الضواحي، هناك سيجمع توقيعات معارفه وأقاربه وأهل الخير على عريضة يشكو فيها الاستاذ الذي فصله، رماه الى عرض الطريق واضطره الى العمل من الباطن في عدة دور صحفية، يكتب للآخرين ويقبض أقل القليل، اضطر الى العمل كاتبا في طابونة، يقيد عدد أرغفة الخبز الخارجة، وأجولة الدقيق، ضيعه الأستاذ، لكنه لن يفقد الأمل، انه يلمح الوتيدي، أطول العابرين وأضخمهم، والحقيقة انه آثر الانتظار، تردد طويلا قبل خطوه الى الميدان، اعتصم بنهاية السور السادس، استعاد ما جرى له، لم يشعر بأي رغبة في الخطو الى الميدان الكبير، يكفي ما جرى، من يدري ماذا ينتظره في الضواحي؟ لم ير خيرا في الخطط، يظهر غير ما يبطن باستمرار حتى في بيته، كان بمفرده، أثيل مع أمها، يحيطان بالمولود، أصبح أبا. أثيل لا تحدثه عن الطفل، ومن قبل لم تخبره بحركته في بطنها، أو متاعبها في الحمل، بل ان ترتيبات الطبيب والمستشفى تمت

بعيدا عنه، تولاها الدكتور السواري، عندما يود رؤية الطفل تتصدى له هي وأمها، تمنعانه بحجة انه نائم، أو يرضع، أو يغير ثيابه، أصبح مكروب النفس، موجوع الفؤاد، لم يعد يناقش، أو يبدي استفسارا، كل ما يطلب منه يؤديه، سواء في البيت أو الدار، التنوخي لا يهتم به، كأنه لا يوجد في الخطط، كأنه لا يبذل أضعاف الجهد الذي يبذله الآخرين، كريمة المرجاء طلبت منه الاستمرار في مخالطة العمال، يذكر بأسى الخضر، طالت غيبته، كان يلقاه بعد خروجه من الوردية واقفا عند عربة الفاكهة، يقول الخضر ان الولد يحب الموز، في المقهى حدثه عن الكلمات التي تعلمها، وحركاته الجديدة، كان الخضر رقيق النفس، صافيا، لا بد ان أحدهم قرر ابعاده عن ابنه كما أقصوه عن امه، انه حزين، ممرور، لأنهم استخدموه ضد الخضر، طلب التنوخي منه أن يردد بين العمال اخبارا عن اعتراف الخضر على آخرين، وانهياره، وان قوات الأمن تراقب الذين تعرّف عليهم، وسيقبض عليهم قريبا، ردد ما أمر بترديده، ليته يستطيع الرجوع ولو الى شارع واحد، ربما أصلح بعض ما فسد، لكن هيهات، ثمة قوة خفية، هائلة، تكمن في الخطط، وخارجها، تشمل القريب، والبعيد، الأصدقاء، والأعداء، تمنع الجميع عن العودة ولو خطوة واحدة، واذا استمر معتصما بنهاية الشارع

السادس سيختفي من الخطط، سوف تقصيه القوى التي لا راد لها، ربما أصبحت الأمور أفضل في الضواحي، تقترب منه عجوز ضامرة، وراءها امرأة شابة بيضاء تحيط رأسها بطرحة سوداء، تحمل طفلا تجاوز الثالثة، بدت العجوز متينة رغم انحنائها، قوية رغم هزالها، ضيقت عينيها، أطالت النظر اليه وهذا ما لم يفعله أحد في الميدان لانشغال كل انسان بنفسه، لكن العجوز كانت مهمومة بامرأة ابنها، وحفيدها، صاحت بصوت اضناه الشيخوخة: «انت وأمثالك لم يمنعوا الرزق عني، وعن الشابة، وعن ابن ابني.. جئت مع الضباط وعساكر البلدية.. نعم.. انت.. قلبتم البيض في الشارع وبهدلتموني آخر بهدلة، بعد انصرافكم قالوا لي.. لماذا لم تستجيري بالطويل، العريض، انه صحفي وربما يعرف ابنك، فقلت وهل استجير بمن لا يرحم؟ أترك أمرك لصاحب الأمر...»، لم تتوقف العجوز، نأى ثلاثتهم عنه، عن بصره، طواهم الزحام، صاح الوتيدي بملء الحنجرة «أمي.. اسمعيني يا أمي»، لكن الأوان ولّى، والفرصة فاتت، والزحام يضيع المعالم، ويمحي القسمات، في السماء حامت حدأة على ارتفاع شاهق، ثم بدت ثابتة كأنها ترقب الخلق، مرة أخرى تردد صوت المذيع يعلن رغبات الأطفال:

محمود سامي.. مهندس..

أحمد فوزي.. دكتور..

برهان عاشور.. موسيقار..

واتسعت عينا المعلم كرشو، لم يصدق، المعلم الياس بنفسه، سبحان محيي العظام وهي رميم، نحّى بعض العجائز عن طريقه، تخلص من عجوز تسأل بالحاح عن الطريق الى تركيا، ودرويش يحذر من الأعداء ويطلب من أهالي الخطط اتقاء الله، والانتباه الى ما يجري. يقول كرشو لنفسه، هو بعينه، يمسك ذراعه، يتعلق به. معلم الياس.. معلم الياس، مصير الحي الى اللقاء، لكن الرجل لم يتحرك، قال ان اسمه «الجيدي»، اي الياس هذا؟ يحار كرشو، يتلفت حوله، هل يلمح بعض الأصحاب القدامى؟ يعاود النظر، اختفى الياس مرة اخرى، لا يصدق أبدا ان الرجل اسمه الجيدي، وانه شخص آخر، انه الياس، الخالق الناطق هو، يقترب ثلاثة جنود، يطلبون منه الاستمرار، الا يتوقف، هذه المنطقة ستخلى، مساجين العجم سينقلون الى الضواحي، الحراسة مشددة، احتياطات الأمن مكثفة، تقترب مركبات رمادية ضخمة، لاحظ الدكتور فهمي ان السماء رمادية، وتنبأ ببرودة الجو، وخمن الوقت، يدنو النهار من نهايته، عرفوا سرا أنهم ينقلون الى منطقة نائية في الصحراء قرب الخلاوي، تعلقت عيونهم بنوافذ مستطيلة في واجهات مباني قديمة عند أطراف

الميدان، من بعيد بدت ظلال العابرين تتحرك بمعزل عن الأجساد، نداء يتلوه نداء، يتلاشى صدى. يعلو سباب شتائم، تتلاشى، يزعق صوت مستفسرا عن الأحوال وكيف ستبدو في الضواحي؟ لا يجيبه أحد، من كان سيصدق انهم سيرون السماء من مواضع مختلفة، تدثر كل منهم بذكرياته. انعدم الحوار، مثل هذا الاستغراق يخشونه داخل العنابر، عندما يغطي أحدهم عينيه بيديه، وتكرر منه ذلك يسارعون اليه، يمدون حبال الوصل قبل أن يخوض في التيه، لكن الآن، أثناء عبورهم الميدان فلا مانع أن يخلو كل منهم الى نفسه، يتذكر أحدهم حجرة في بناية أو ناصية عند شارعين متقاطعين. أو رائحة ليلة صيفية، أو صوت طفل يعلو فرحا، أو نسمة هواء، أو دفقة رياح حركت ترابا مدسوسا في حواف النوافذ. أو مقهى ومقاعد، وبخار شاي ساخن، وشذا من سنوات بعيدة، ان الخضر مطمئن لعبوره الميدان بصحبة العجم، لو ان الأمور مضت بخلاف ذلك لكان عبوره الميدان عاديا. لكنه لا يندم عرف معهم أمورا لم يكن يعرفها، عاش سنينا عديدة، ورأى من يصحب عدهم، لكنه معهم رأى أشياء لم يرها، عرف ما لم يجده في سير الرواة، أو مؤلفات الكتاب المعتمدين، علمه أحدهم ان الظروف هي التي تصنع الانسان، والانسان قادر على صنع ظروف أفضل، تعلم ان الشيء لا يوجد الا ونقيضه

معه، وهذا ما تعمى عنه العيون، الحياة في الموت، والموت في الحياة، علمه آخر الأدب، واختار له ما يجب ان يقرأه، عرف ان العجم يتحملون الأذى من أجل آخرين لم يسمعوا بهم، ولم يعرفوهم، ولم يروهم، ولن يلتقوا بهم في أي قسم من الخطط، وانهم يبغون دنيا تفيض عدلا وسلاما بعد أن ملئت هذه الخطط ظلما وجورا، تعجب، لماذا يسمون بالعجم؟ قال الدكتور فهمي، اننا نعرف خارج الخطط بغير ذلك، هكذا اطلقوا علينا داخل الخطط، احاطونا برهبة، ليخيفوا الناس، ويقصوهم عنا، المهم الا نضل، الا نبتعد عمن نعمل من أجلهم فقراء الخطط، وذلك لب جهدنا، عندئذ يلتئم الرأس بالجسد، اقترب ضابط يرتدي ملابس مدنية، ابتسم، قال انه يأسف لما حدث في الأسوار، انه يثق بهم، وبقدرتهم على تجاوز الحزازات الشخصية، انهم ينتقلون الى الضواحي، اذا كانت بعض الاجراءات قد اتخذت فكل شيء قابل لاعادة التفكير، توقف لحظة، مر على وجوههم الصامتة بعينيه الهادئتين، جدد عرضه، قال ان امام كل منهم فرصة الآن، فرصة لترحيله مباشرة الى الضواحي، حيث يمنح وضعا أفضل، وظيفة دائمة في الخطط، ومرتب، سنساعده في الحصول على مسكن مناسب، فقط، ما عليه الا الوقوف، ثم يطل برأسه على الميدان، ويعلن بصوت يمكن سماعه انه لا

علاقة له بالعجم، وانه نادم على اعتناقه فكرهم، قال أحدهم انها وقاحة. تراجع الضابط، قال أنه ينتظر، أرسل في استدعاء الخضر، قدم اليه سيجارة مستوردة، اعتذر الخضر لأنه لا يدخن. قال الضابط انه يعجب لموقفه، من الثابت انه لم يرتبط بهم يوما ما، لماذا ترفض اعلان الندم؟ قال الخضر انه سيعلن ندمه فعلا لمرور سنوات طوال قبل تعرفه الى العجم، لم يفقد الضابط هدوءه، سأله، هل يعرف مصير امرأته أو ابنه وأمه. قال الخضر انهم ليسوا بمفردهم، أمسك الضابط بيده، طلب منه ان يعتبره صديقا له، ان يصحبه الى أحد أجزاء الميدان ليرى بنفسه الشقاء والغلب، لن يتحمل ملامح امه الشقية، أما ما جرى لزوجته...، قال الخضر ببرود قاس: انت لست وصيا. نادى الضابط على المنصوري. باغته بورقة. هل تعرف ما هذه؟ انه طلب الطلاق موقع من سميحة المنصوري، هرب الدم من وجهه. ضربة مفاجأة لا تمهيد لها، قال الضابط: التراجع ممكن، عض صبري شفته، حدق في السحنة الناعمة، والوجه الجميل في غير موضعه والانسانية المفتعلة، احدى مهام الوظيفة، يستدير عائدا الى السيارة. تعلو ضجة، ثلاثة من جنود الحراسة يمسكون رجلا يقارب الخمسين، يحمل حقيبة منتفخة، اشار اليها، مجرد طعام جاف، وملابس داخلية لحمدي، محمدي ابنه، قال الضابط انه

في دهشة لأن رجلا مثله يعرف الأصول خاصة وانه في جهاز الاعلام الحساس، ثم يقدم على مخالفة القانون، قال الأزهري مرعوبا ان الميدان معبر للجميع. قال الضابط ان القانون نافذ في جميع أنحاء الخطط، أي شخص خاضع له، ان حمدي ناشف الدماغ، متطرف في أعجميته، لا يدري من أين استقاها مع انه ابن الأزهري.. الأزهري الد أعداء العجم، لكن الأوان لم يفت بعد. من الممكن ان يرى ابنه، ان يسلمه الطعام والملابس، ونقوداً اذا شاء، لكن لا بد ان ينصحه بالتخلي، لماذا لا يعبر الميدان مع العابرين. قال حمدي بهدوء، «عيب يا بابا». خرس قنديل الأزهري. لم يفه لفظا، أغرورقت عيناه، استدار مبتعدا. انقض أربعة جنود، تخاطفوا محتويات الحقيبة، أدرك الضابط نتيجة اللقاء من ملامح وجهه، اختفى قنديل الأزهري، صاح الضابط في اعقابه.. لا تخف، لن نخبر العناني انك سعيت لتهريب الطعام الى العجم سرا، في السيارة الأولى يتململ الدكتور فهمي، يتحرك حتى يصبح قريباً من المنصوري، لو قدر له ان يتخلص من قيده الآن، ان يتجاوز الاجراءات الكبيرة والتفاصيل الصغيرة التي تسبق الافراج، من لقاءات بضباط أمن الخطط، وأخذ بصمات، والتقاط صور من الجانبين، وبالمواجهة، واستلام المتعلقات، لو أمكن له عبور الزحام، والاهتداء الى نقطة محددة توجد فيها زوجته وأبنه،

لامكنه ان يتناول العشاء معها، وأن يخرجا الى شاطىء النهر قبل ان تخلو الطرقات تماما. ان زوجته تمضي الآن الى الضواحي، ساهمة، قبل دخولها الميدان عاودت صفية عزت الاتصال بها، قالت انها تود الاطمئنان عليه. أي صفية هذه؟ لو رأته الآن وأكد لها انه لم يعرف امرأة بهذا الاسم فلن تضيق، لن تقلق، لكن المناسب لا يحدث في الوقت المناسب، ان شيئا لزجا، طريا ينسج حولها، تعرف اساليبهم لتفريق الزوجة وإبعاد الابن، فصلوها من عملها، ثم اعادوها بعد اكتشافهم ان عائلتها قادرة على إعالتها، انها تود الوصول الى الضواحي، ان تأوى الى الركن الهادىء الذي اعتادته. اللوحات المعلقة الى الجدران. العلب، التماثيل الصغيرة الموزعة على رفوف المكتبة، تمسك بيد رباب ابنتها، كل الأمور مؤجلة حتى يعود فهمي. ربما تراه الآن في الميدان، وقد لا تراه الا بعد مسافات طوال.

يزعق عجوز ملتح:

أخبروني.. ما هو الموج المكفوف؟؟.

على مهل، سرى البلشي بين الناس، انه فرح ولا يدري لماذا؟ مع انه لا يرتاح الى النظام الذي يتم به عبور الميدان من رأيه ضرورة تسجيل الأسماء الثلاثية، والأوصاف الدقيقة لكل العابرين. ان العديدين لم تذكر اسماؤهم، لم يشر اليهم

بكلمة، اما سروره فربما يرجع الى تمكنه من محررة. هو الذي يقف دائما يسأل الخارج والداخل، ضاجع كاميليا، عند عبورها امامه يبالغ في الانحناء، يود ان يقول ذلك لكل العاملين، خاصة زكريا أبو ستة، انه يمشي الآن مزهوا بنفسه لا يرد التحية، يبربش بعينيه اذا نظر اليه، ومنذ مسافة لا يمشي الا وخلفه شرطي سري يبرز مسدسه من تحت قميصه. خصصوه له بعد أن هاجم احدى الجماعات المتطرفة، وتلقى تهديدات بالاغتيال، يقف الشرطي السري ببابه، وأمام مسكنه، ويجلس بجوار السائق في المقعد الأمامي بعد أن امتلك ابو ستة سيارة أهداها له أمير ثري من الشرق أبدى اعجابه بما يكتب. رحم الله أيام وقوفه أمامه برسالة مدير الأوبرا، منتظرا أن يلتفت اليه البلشي، انه فرح ربما لتوقعه مجيء الفرصة أثناء عبور الميدان فيعلن موهبته التي يخفيها تماما، انه يهوى الغناء، لديه مجموعة من التسجيلات. قام باعداد مونتاج بدائي، يسجل تصفيق المستمعين ثم المقدمة الموسيقية المذاعة، ثم تصفيق الجمهور، ثم يبدأ هو بالغناء، ان صوته اخنف، متسلخ، لكنه يثق ان الفرصة لم تفلت بعد، الأمل كبير اثناء عبور الميدان، لا زالت طيور تحلق على ارتفاع شاهق، يقال انها جاءت من بلاد الشمال الباردة قبل موعدها السنوي، وتنبأ البعض بوقوع احداث جسام لمجيء

الطيور في غير أوانها ، قالوا : ليقعن في الخطط حدث عظيم ،
يسود الميدان الكبير طقس خفيف ، لطيف ، يساعد العابرين على
تحمل مشاق الانتقال الى المشارف ثم الضواحي. يقول بعضهم: لو
ان الجو استمر هكذا ! وبعد صمت قليل تدب حركة غير
عادية عند أحد أطراف الميدان ، يعلن مكبر صوت عن
إكتشاف جاسوس خطير من شخصيات الخطط يعمل لحساب
الأعداء ، تم تجنيده منذ البداية ، يعمل مفتشا للصحة ، استقى
أخطر المعلومات من أفواه الناس العاديين ، في المقاهي
والمحال العامة ، والمطاعم التي كان يأكل فيها مجانا بح
وظيفته ، وبهذه المناسبة يدعو قسم مكافحة التجسس ممثلي
شخصيات الخطط الى عدم التفوه بالمعلومات ، والتزام الحر
التام ، ويقول الاعلان ان الجاسوس كان مراقبا منذ اللحظة
الأولى لممارسة نشاطه . ولكن تم تأجيل القبض عليه الى الميد
الكبير لحكمة أمنية ما ان أصغى الجهيدي الى اعلان القب
على مفتش الصحة حتى تقدم في العمر عشر سنوات في لح
واحدة ، تجعد وجهه وأصبح كالليمونة الجافة ، انحنى ظه
وارتعشت أطرافه ، ولم يعد قادرا على متابعة خطوات اب
يزعق عجوز : الطف بنا يا مولانا . يحتار الكولي أيمد
يمكن أن يبدأ منها عبوره ، بحيث تطول مدة مشيه ، لكن
يضايقه أن الحلاق الذي اعتاد الذهاب اليه مات في ا

الخامس ، لا يدري الآن الى اي حلاق سيمضي ويلقى عنده
الراحة؟ كان الحلاق رجلا طيبا ، يسلم له رأسه لمدة ثلاث
ساعات كاملة . بين الحين والحين يزيل شعرة هنا أو هناك ،
يساوي هذه بتلك ، في نفس الوقت يتحدث في السياسة ،
والطب ، والجنس. ينعي الزمن الماضي . والبيوت الكبيرة في
الخطط التي اغلقت دون الغرباء وأبناء السبيل . كان إغلاق
هذه البيوت بداية خراب خفي سيصبح علنيا ، يدع الصابون
على ذقن الكولي . يجلس قبالته ، يهتز باكيا ، راثيا البيوت
الكبيرة. بكى الكولي لموت الرجل بكاء مرا . فوق مرتفع في
الميدان . وتقف كاميليا . انها محاطة بجنديين من قسم حفظ
الآداب العامة بالخطط ، منذ لحظات ضبطت في وضع فاضح
خلف شجرة عتيقة . تمكن الرجل من الفرار ، صاحت انها
ستقول كل شيء قبل وصولها الى الضواحي ، الرجل الهارب ،
الذي فر الآن هو جعفر الأسود ساعي الأستاذ ، هو ليس
الأول ، ولن يكون الآخر ، انها حرة ، ولا ترى معنى للقبض
عليها ، قالت انها عرفت الدمياطي ، وانه لم يصمد في الفراش
الا نصف دقيقة ، أما المناني فليس له من الرجولة الا مظهرها
الخارجي ، لا أمل فيه وإن ادعى غير ذلك ، الدكتور الطنبولي
صحبها بعد شفائه الى مقبرة جديدة بناها ، طلب منها أن تخلع
ثيابها الخارجية ، خافت منه فاطاعته ، رجاها أن يقوم بخلع

ملابسها الداخلية، احتضنها: قبلها، ثم طلب منها أن تتمدد فوق الرمال، تمدد بجوارها عاريا، ثم قام بعد ساعة، ألبسها ثيابها، وانصرفا، مجنون ابن مجنونة لا شك، كل ما قاله انه في زمن مضى كان يأتي بثلاث فتيات صغيرات يتمرغ بوجنتيه فوقهن، كان يتغذى بذلك ثم يصرفهن. أما التنوخي فيلهث ويعض، أحيانا يطلب صفعه أو قرصه. الوتيدي عملاق، قوي ومتين، لكنه في حاجة الى تمرس، الى طول خبرة، قال لها انه لم يستمتع باثيل منذ زواجها، وانه لم يمارس العادة السرية الا بعد زواجه، الدكتور السواري جريء ومندفع، أصر على ذلك في حجرة الكشف والناس في الخارج، يمكن ان يفتح أحدهم الباب في أي وقت. لكن الدكتور يعتذر دائما بأنه مرهق، ولم ينم جيداً، الكولي شكا من زوجته التجرد من ثيابها وتصدر أصوات الألم، وأخيراً تبكي وتقول: سامحني يا رب انها لا تغير الوضع الذي اعتادته، واذا داعبها بكلمة فان وجنتيها تخضبان بالحمرة، تقول كاميليا ان أبو ستة لا يطاق لنتانة رائحته، ولعابه، والقذى في عينيه. وارتعاشه الدائم كأنه مصاب بصرع. أما الرجل الوحيد الذي أمتعها حقا الثابت، الفحل، فهو البلشي، صحيح.. يضع سره في أضعف خلقه، بعد انتهائه طلب الأكل، جاءته بالمرق واللحم فوجئت به يتأوه أثناء الأكل، أطلق صفيرا، وآهات، قبل

قطعة اللحم الساخنة، لم يكف عن ابداء الاعجاب بالطعام، يا عظمة، يا روعة، ثم يقوم من جديد، ولو تركه لما كف أبدا، أما قنديل الأزهري فيغمض عينيه، يقول انه يتخيلها طالبة في المدرسة، اشترى لها زيا مدرسيا، وحقيبة جلدية، كان يصر على مشيها أمامه، وهنا يندفع الدم الى رأسه، ويطق عرق المتعة في يافوخه وعينيه.

لم يبد الجنود أي محاولة لارغامها على التوقف، بدوا مستمتعين بما يصغون اليه، ثم ان الحركة وانشغال الناس عن بعضهم لا تسمح لهم بالوقوف والزحام..

تقول ان الوحيد الذي لم يلمسها هو الاستاذ مع انها انتظرت ايماءة منه. شخص آخر كان أحق الناس بها لأنه أحبها حبا جارفا، منزها عن الغرض، انه الجميدي، لكنها لم تشأ ذلك. لم تكف، ذكرت رجالا آخرين. أحدهم تاجر موبيليا، وطالب في الهندسة، ومقاول تركيبات زجاجية، وصاحب مقهى، وطبيب اشترط ذلك قبل اجهاضها، وعشرة عمال من جنوب الخطط تعاقبوا واحدا بعد الآخر..

وعلى الرغم من هموم الناس واهتمامهم بالوصول الى المشارف ثم الضواحي، فان مثل هذا الحدث لم يكن من السهل ان يغيب عنهم، الأخبار تنتقل بسرعة هنا، التنوخي لم يبد هتاما، قنديل الأزهري سب، تمنى الوتيدي الا يصل الخبر

الى اثيل، الكولي ازداد ارتباكا، البلشي تورد تباهيا، أبو ستة استمر بدون ان يعبأ وفي اثره الشرطي السري. انه الآن واحد من القلائل الذين يظهرون في تليفزيون الخطط عقب نشرة التاسعة ليوضح الأحداث. وليشرح ما غمض من الموقف، انه يرمش ويرتعش ويخلع النظارة التي نصحوه بارتدائها اثناء القراءة ثم يستدير على مهل ممسكا بعصا معدنية صغيرة مشيرا الى بعض الخرائط، أو قصاصات من الصحف الممنوع تداولها في الخطط كما انه يسند رأسه الى أصبعه لحظات، أو يمسك بين يديه بقلم رصاص طويل، وكان يكثر من استخدام تعبير «على وجه الاطلاق»، وسرى نبأ في الميدان الكبير بانه مرشح لمنصب كبير في الضواحي. تمر كاميليا محاطة بالجنود، يرفض الجميدي ان يصدق كلمة مما تترامى اليه، لا بد انهم حقنوها بعقار جعلها تهذي. انها مكيدة حاقت بالطاهرة، النقية، المظلومة مثله، تستمر الحركة تناقش القضايا مع تدفق الناس، في السماء البعيدة تحلق الطيور بكثافة، تحملق امرأة تحمل طفلا يلصق فمه بثدي الذي أطلت مقدمته من فتحة الثوب، يتساءل الدكتور السواري عن لحظة الوصول الى الضواحي، قيل له ان الميدان لا يصب مباشرة في الضاحية الأولى أو الحي السابع، أ هناك المشارف، ومنها جزء ممهد، وأجزاء خشنة صعبة

يعلن المذيع ان الآمال ستتحقق في الضواحي، وان المشروعات الكبرى ستؤتي ثمارها، وأن الانتاج سيتضاعف، والمصانع التي لم تعمل ستبدأ الانتاج، جيش الخطط سيصبح قوة ضاربة تخيف الأعداء، أما جهاز أمن الخطط فيحق لكل الخطط ان تفخر به الآن، لا مثيل لكفاءته، الخزان الكبير سيمتلىء تماما، يومئذ ستكون له فرحة، كل أنحاء الخطط ستصلها الكهرباء حتى الحلاوي. الأرض الجدبة ستصل اليها المياه، ستدب فيها الحياة، يتوقف المذياع لحظات. يفكر الدكتور عبد العظيم السوافيري في امكانية كتابة موضوع عن احتمالات المستقبل في ظل الخزان الكبير، مثل هذا المقال سينشر في مكان بارز، وسيظهر اسمه مسبوقا بحرف «د» كالعادة، على بعد قليل تقدم احد العاملين من الدكتور السواري، رجاه ان يجيء ليكشف على شخص مجهول وقف مكانه ثم تلفت حوله وسقط عند نهاية الميدان بدون ان يحط منطق، لكن الدكتور السواري رفض، انه ينتقل الآن من مرحلة الى مرحلة ولن يوقفه أي حادث أو سبب، ثم.. من سيدفع الأتعاب مقابل توقيعه الكشف؟ خاصة وان الميدان مزدحم، زحام أي زحام؟ في هذه اللحظة يقترب خالد من نقطة هامة بالنسبة له. في الميدان التقى والده بأحد أهالي البلدة من ذوي النفوذ الشديد في الخطط وتربطه بقادة العهد

الجمهوري صلات، حياه باحترام كبير اذ انه يشغل منصب مستشار كبير، حدثه عن خالد ابنه الذي حصل على شهادة تجارة متوسطة ولم يعمل بعد، أخرج المستشار حافظته، وكتب اسم خالد. قال انه سيتكلم بشأنه. بعد لحظات التفت الى والد خالد، طلب منه أن يذهب مع ابنه الى جريدة الأنباء. هناك سيحصل خالد على عمل مناسب، ينظر التنوخي إلى خالد، الشاب مقدد الوجه، يذكره بأيام الفقر، يطلب من كريمة أن تعطيه قراراً بإلحاقه موظفاً بقسم الحسابات، لكن كريمة تحدثت عن ازدحام قسم الحسابات بالموظفين، ثم إن هذا الشاب بلا خبرة. والعمل دقيق. نقطة أخيرة تود أن تلفت النظر إليها وهي صدور قرارات تعيين عديدة. لو أن الدكتور الطنبولي باق في الخطط.. لو... يطلب التنوخي منها أن تنصرف، يقرر إلحاق خالد بقسم الاستعلامات، أن يسلم نفسه الى البلشي، يضمر البلشي انزعاجا، لأول مرة يفرض عليه غريب لا يعرفه، سيعمل معه في هذا المكان الحساس، التنوخي لا يستطيع رد أي طلب فيه رائحة قادة العهد الجمهوري، لكنه طمأن نفسه، لن يتحمل الولد معه أكثر من أسبوعين، ينتفض الهلالي فزعاً، يعاوده بيت الشعر الذي لا يدري من أية مصيبة رسا في لا شعوره.

ما كل ما في نفس المرء يدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

بالقرب من خالد يمشي مجدي رمزي على مهل، يتحدث بالفرنسية الى فتاة غريبة الملامح، خلفها تمشي ايثار، على عينيها غشاوة، وفي روحها غيظ، لا يدع فرصة الا ويبدي اعجابه بأية انثى. أما هي فكأنها غير موجودة. فجأة يتوقف شاب مرهق الملامح. يخلع جاكتته الصفراء، ثم قميصه. ثم بنطلونه. يبقى في ملابسه الداخلية، يرتب ثيابه وكأنه سيحفظها في دولاب، يتجرد من سرواله، يصوب مسدساً إلى رأسه، تدوي طلقة.. يلتفت البعض، لم يبد على الآخرين انهم سمعوا شيئا. مضى كل منهم الى حال سبيله، فكر العشري: ان دفن الجثمان أمر مؤقت. هذا الكوكب الذي نعيش فوقه سيتبخر بعد خمسة آلاف مليون سنة بعد تورم الشمس وتلاشيها، سيطلب حرق رماده واطلاقه في قارورة الى الفضاء، يتلاشى، يندمج بأعماق الكون.

عند الناحية اليمنى للميدان، أقيم حاجز زجاجي، وقف خلفه رجل لم تبد ملامحه، ولم يستطع أحد تمييزها. يرقب انتقال الناس، لم تقع زلازل، لم تهطل أمطار، لم يعرف الميدان البرد والثلوج، تتخذ المصائر وجهات متباينة، كالقطارات عندما تتجاوز لثوان في اتجاهين متضادين، ثم يولي كل منها،

تسابق، وقد تتصادم، تتبادل المواضع، سمع من يقول يوما انه عندما يموت ستنتهي الدنيا معه. لكنه لا يصدق ذلك، لا يرى المرء حصاد كل ما يزرعه، لهذا يخالف كل المتشائمين، الفقر لن ينته، والقهر سيزداد، النهار بعده ليل. والأمل يليه اليأس، والصحة آخرها مرض، والتفاؤل مع التشاؤم. المرأة تحمل قتامتها، الهباب نابع من الضوء، كل شيء يتغير كما تقول فلسفة العجم، لكن ليس الى الأفضل دائما، أحيانا يرى قصورا فاخرة شيدت وظن اصحابها انها باقية أبدا. الآن بعضها مقرات لمصالح حكومية، أو مدارس، لكل شيء توقيت، كل شيء بأوان، لهذا يقول لنفسه: لا تجزعي، بعد الفرج تجيء الشدة، وبعد اليسر عسر، سيضرب الطوق الذي لا فكاك منه. يسجن الانسان داخل حواسه الخمس لا يبقى الا الأذناب، لن تزدهر الا الحوافر، تذوي الأحلام، وتقفر القلوب، عندئذ ينسبون ما جرى له. لو قيل للأذى: من حليفك؟ لن ينتسب الا اليه، هو صورته، والرأس منه، وغيره الذنب، عناصر الشر تؤازره، قوى الانحطاط تعضده، انه راسخ الخطى طالما ازدهر الفقر والجهل والمرض. لهذا يجب الا يحزن، يأمل عابرو الميدان في تحسن الأحوال عند وصول الضواحي. المبالغة مدسوسة في الوعود، أما هو فيمي السبل لتعميم الجهل الفريد، وتنكيس الأبراج الشوامخ، إسكات كل

نابض، ايقاف كل دائر، كسر الزنود، وخسف الأقمار، يعي انه ظل منحسر وغيره باق. ما هو شرق هنا غرب هناك. لكل عدته، ولوازمه، فترة كمون تليها مرحلة ظهور، أي يقين يمكن رؤيته. أو لمسه؟

تذوب حمرة الشفق في رمادية كابية. لو قدر لانسان رؤية اللحظة الأخيرة في عمر الدنيا ستشبه هذه اللحظة، سرت اشاعات بظهور الاستاذ في الميدان، أحدثت اضطرابا، ولكن الزحام بدأ يخف، والظلال تتوارى، والأصوات البعيدة تنأى، شظايا كلمات، طفل يتمنى. عجوز يطلب حسن الختام، سيمضي الليل، ويطلع النهار والكل في المشارف، ثم الضواحي كل شيء رتب بقدر، تلاشى الاستاذ في العتمة، تختفي الطيور من السماء، تتلاحم سحب كانت متفرقة، الميدان الكبير بارد، تذوب معالمه في العتمة. من السواد انفصلت ظلال، جواد أسود مسرج بلا راكب. تلا شيخ المرابطين أدعية توسل بها الى الله ليهون عبور المخلصين، حدقوا في الليل النازل، بدأوا خطوهم. لمعت نجمة وحيدة، ثم تلتها نجوم، صاح الشيخ: «يا لطيف. يا الله.. السلامة..».

* * *

..بسم الله الرحمٰن الرحيم..

لطفه خفي...

.. سبحانك

يا مبعد السنين الرواحل، ومفني الأيام في الشهور
ثم في الأعوام والخواطر، يا خالق الزمان والدهر
والأزل، من يقدر على دفع الأجل؟ لكل أمر
مقدار، ولكل مبتدأ آخر،

في هذه الخطط يمضي كل شيء بحسبان، بعضه خفي ومعظمه ظاهر، الطف يا عالماً بالنوايا والسرائر، لا يختلف اثنان في أمر ما انقضى بعد أن ولت الشوارع، وتلاشت الأسوار، تتفق في ذلك الكتب والمراجع، ما تعيه الأذهان، ما عبرت عنه النواهي والأوامر، يقولون ان ما يفصل ما مضى عن الضواحي عقد كامل، وهذا حق ظاهر، واقع لا ينكره

إلا مختل أو جائر، لكن ما بدا للنفوس عكس ذلك، عقد كامل.. هذا صحيح، لكنه يبدو للبعض كمدة قرون، ثقيلة الوطأة، جمل أحداثاً قريبة تبدو بعيدة، وأموراً دانية تلوح كأنها قاصية، وما جرى في الشوارع والأسوار والميدان كأنه جرى لآخرين، لا يعيشون في الخطط، بل بدا العصر نفسه غير العصر، والأوان معاكس للأوان، والزمان مناقض لذاته، الطف يا محي العظام، سبحان من له الدوام فوق كل باق أو آفل مهما طال، كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام، صحيح ان الثواني هي الثواني، والساعات هي الساعات، والأيام هي الأيام، يلي بعضها بعضاً، ولا فكاك، لكن ما جرى ويجري في الخطط قلب الثوابت، وغرس المتغيرات، خاصة ان ما حدث عند مشارف الضواحي لم يتوقعه عاقل، ولم يدر بخلد يتأثر ويؤثر، لم يتخيله أي انسان من أولئك الذين عبروا الميدان الكبير او ظهروا لثوانٍ في الاسوار، امور غريبة ونوازل عجيبة، يكفي القول الآن ان جزءاً كبيراً من الخطط وقع تحت احتلال الاعداء، وأن المشارف شهدت كسرة مهولة هزم خلالها الجيش، واصبحت الحدود الثلاثة الممتدة في البر محتلة بالأعداء، ولم يتبق إلا منفذ واحد ملاصق للبحر الكبير في الشرق نأت الشوارع، والأسوار، وأصبح رصد اطرافها من هنا صعباً وشاقاً، لا

تبدو منها إلا نهايات الشواشي، ملمح، بقعة مندثرة، ذكرى مارقة واخرى عالقة، لنا ان نتصور غرائب الامور، إذا عرفنا ان كثيرين ينكرون وجود العهد الجمهوري الأول للخطط، ويشككون في العهد الجمهوري الثاني، ويدينون العهد الجمهوري الثالث، ولا يقولون إلا بالعهد الجمهوري الرابع، اما العهد الملكي للخطط فأعيد إليه الاعتبار وعد من أزهى عصور الخطط بعد ان أدين في العهد الجمهوري الأول والثالث، سبحان مغير الأحوال، بل ان عدداً كبيراً من الذين عايشوا الاستاذ، وعرفوه ينكرون وجوده، ويقولون ان ذكره لم يأت أبداً في الشوارع والأسوار، يقولون لمعارضيهم، هاتوا برهاناً مبيناً، انه آفل، ولا وجود في الخطط للآفلين، لكن..

لماذا نحاول تخطي المسافات؟، لماذا نبغي عبور الأزمنة الصوارم؟ لكل شيء موضع، ولكل حدث أوان..

نقاط التفتيش..

من الظواهر التي بدت في الخطط بعد الهزيمة العظمى، والمصيبة الكبرى، اختفاء الزي الرسمي لقوات أمن الخطط، واختلاف سحن أفرادها، ولم يعد سراً ان الأغراب أصبح لهم اليد الطولى في ادارة امن الخطط، بل إنهم ظهروا في

نقاط التفتيش المنتشرة لمراقبة كافة الشخصيات ولم يعد المستهدفون هم العجم القدامى، بل اتسع الامر، بدا جلياً ان عدداً من افراد الادارة تربطهم صلات بالاعداء، ضمت نقاط التفتيش أرباب السوابق، وقساة القلوب، وغلاظ الأكباد، وأصحاب المعاصي، والفسوق، ومغتصبو الاطفال. ومروجو المخدرات خفية في الشوارع والأسوار، وفي البداية سرت في الخطط كراهية عظيمة تجاههم، وتكونت جماعات خفية لمطاردتهم خاصة بعد تأكد الكثيرين من مكاتبتهم لأعداء الخطط، وإفشائهم للأسرار، ومشاريع الدفاع المعدة لصيانة الحدود البرية، وأماكن توزيع القوات، وسمك الاستحكامات، وأنواع المدافع والعيارات، ومرابض الطائرات، ومدارج الإقلاع، والمطارات الاحتياطية، وأبراج المراقبة، ومواعيد تغيير النوبات، وميادين الرماية والتدريبات، ودرجة الاستعدادات، ونوعية الكفاءات، والطبائع والأمزجة والعادات، وتسرب هذه المعلومات كان له أثر كبير في انتصار الأعداء، لكن زمن مطاردة أعوانهم ولى، أي ومحاولة الكشف عنهم انتهت، بل انهم ظهروا وانتشروا وطفحوا في الخطط وهذا عجيب..، بل ان الابتسام لهم صار في بعض النواحي واجباً، ومصافحتهم تبعث على الاطمئنان، بعد ان كان الاتصال بهم حتى على سبيل الخطأ يورد موارد

الهلاك. لكنهم نفذوا واستشروا. وتغلغلوا في ادارة الأمن خاصة بعد أن تولى أمورها العناني، أصبح لهم حق تفتيش أية شخصية في الخطط، ليس تفتيش الحقائب والجيوب والادراج والوسائد وما تحويه المظروفات، لكن ما تخفيه أعماق القلوب، وتلافيف الضمائر، استهدفوا أولا فرق العجم، وكما اوضحنا اتسع مفهوم العجم، وشمل طوائف لم يخطر على بال أي انسان انها ستضم الى العجم يوماً، أعدت ادارة الامن وسائل متنوعة وازدحمت نقاط التفتيش بوسائل عديدة للاستجواب، اسئلة مباشرة، واخرى غير مباشرة، ورصد للألفاظ ودلالاتها، وإذا ثبتت أعجمية شخصية ما تمنع من دخول الضواحي، وتقصى نهائياً عن الخطط، ولكن لم يتم هذا في كل الأحوال، فتطهير الخطط من العجم أمر يستعصي على ادارة امن الخطط، مهما اوتيت من قوة ونفوذ وقدرة على البطش، وخبرة في المكر، وتوسع في الاستعانة بالأعداء، ان الخيوط كلها ليست في أيديهم وان بدا عكس ذلك للتشاؤم او التعجل. أو الذي داهمته الخطط بما لم يستطع تحمله، استئصال العجم يناقض قوانين الخطط الخفية وهي أبقى من القوانين الوضعية، شمل التغيير اوضاع العجم، نشأت طوائف من أجيال كانت تحبو وقت ان كان عجم الخطط يقاسون العذاب في الأسوار، ولكن هذه أمور يطول شرحها.

كيف تم اختيار المشرف على الضاحية الأولى..

.. وصل إلى الضاحية النائية التي تقع أقصى الخطط تقرير معد بعناية من إدارة الأمن يقول ان الهلالي هو أصلح من يتولى شئون هذه الضاحية نظراً لخطورتها برغم ضيق مساحتها، ومن أسباب ترشيحه، عدائه للعجم، وعبوره الميدان خالياً من أية أفكار، وحرصه على الا ينفعل خلال الحرب التي جرت في المشارف. حتى انه لم يتأثر مباشرة يوم أن سيطر الأعداء على الحدود البرية الثلاثة، إنما راح يرقب زملائه، قرأ افتتاحية الأنباء ونشرات الأخبار الممنوعة، وأصغى الى الاحاديث المذاعة، ليعرف الخط العام الذي يجب على مشاعره ان تتبعه، تردد على مكتب التنوخي مرات، وكان التنوخي وقتئذ مشرفاً عاماً على الدار قبل أن يتولى أمور الحي السابع في الخطط، استفسر عن الخط الذي يجب ان يتبعه. بعد هذا كله قابل الناس بالتعبير المناسب، الذي يبقيه بعيداً عن مواطن الشبهة، كان يفخر دائماً بأن رأسه خلت من كل كبيرة أو صغيرة، وانه لم يقرأ كتاباً، أو صحيفة، حتى «الأنباء» التي كان يعمل بها، وانه لم يردد لفظاً فصيحاً، ما أزعجه وما لم يقله لانسان تردد هذا البيت من الشعر في ذهنه، تلك السفن وهذه الرياح، ولحسن حظه لم

تُحِط ادارة امن الخطط علماً بذلك. استجوب الهلالي بدقة قبل تسليمه مقاليد الضاحية الأولى. استجوبه رجل غريب الملامح، لم يلتق به أبداً في الخطط، سأل الهلالي عن الكتب التي قرأها خلال الشوارع والأسوار والمشارف؟، قال انه لم يقرأ سطراً واحداً، لماذا ردد في حارة معينة «ارقص للقرد في زمانه..» فانكر ذلك بشدة، هل تردد على أي مسرح بالخطط؟ فقال انه لم ير ستاراً يرفع أو ينزل. ماذا يفعل بالكتب التي تهدى إليه مجاناً؟ فقال انه يتخلص منها أولا بأول. من هو شكسبير؟ قال انه صحفي الماني. من هو أحمد عرابي؟ قال انه تاجر فول سوداني. من هو نابليون؟ قال انه لم يسمع به. من هي هدى شعراوي؟ قال انها قوادة مشهورة. ما رأيه في العهد الجمهوري الأول؟ تساءل بدهشة، أي عهد هذا؟ الخطط لم تعرف عهداً جهورياً سوى العهد الحالي. صمت غريب الملامح راضياً، طلب منه ان يتحدث في أي موضوع لمدة ساعة بدون توقف. بدأ الهلالي يتكلم، ارتبك، تدفق، توقف. ثوان، وكلما انقضت ربع ساعة قدموا إليه ربع كوب ماء صغير ليبل ريقه. تسارعت أنفاسه، وخفق قلبه، لم يعد قادراً على التحمل كما كان في الشوارع والأسوار، لم يكن يمل الحديث لساعات طوال في ليالي السهر عند هذه الفنانة أو تلك، لم يرق له قلب مستجوبه، لم يراع قطرات عرقه. استمر

يتكلم، بدل وضعه مرات أثناء وقوفه، استمر يتكلم، حتى أشار له غريب الملامح. اقترب منه، قال ان لغته مطمئنة تماماً، انها تخلو تماماً من الألفاظ الخطيرة مثل «القضايا» «التناقضات»، «المنطلقات»، «في واقع الأمر»، «المجابهة»، «الأهداف» «التضحية»، «الوطن»، «الفئات»، «التاريخ»، «الثقافة»، «الانتماء» «التطلعات»، «القوى»، «قد»، «لأن»، بل ان جملة تخلو من حروف الجر، ألفاظه متآكلة، بحيث يصعب فهمه، انه تجسيد حي للجهل الذي لا مثيل له، منذ الآن سيصبح مسؤولاً عن الضاحية الأولى أهم ضواحي الخطط إذ تضم كافة ما يتصل بالثقافة من قريب أو بعيد، والأزمان الثلاثة، ومرافيء الوجدان، ان ترشيحه لم يتم جزافاً، انه مرصود منذ الشارع الثالث، تعرض لاختبارات خفية، ان مسئوليته جسيمة، خلال هذه الضاحية سيجري تفريغ عقل الخطط، وتبديد أزمانها، ان ما جرى رغم غرابته مجرد تمهيد مبدئي لما سيحدث، يجب صياغة الافهام والعقول طبقاً للواقع الجديد: ومحو ما تبقى من العصور القديمة، والعهد السلطاني الوسيط. والعهد الملكي الحديث، والعهود الجمهورية الثلاثة، له مطلق اليد في استخدام كافة الأساليب، سيجد معاونة من مفكرين قدامى، وصحفيين، وأطباء نفسيين درسوا خبايا النفوس.

غير ان الهلالي ارتبك، تردد ثم امتنع عن منصبه الجديد، قال ان المهمة ثقيلة، لم يعد نفسه لذلك، ان ماضيه وتكوينه في الخطط لا يؤهلانه أبداً، انه أمر جسيم.

لكن غريب الملامح فاجأ الهلالي بسروره، وترحيبه، فرد ذراعيه، قال ان الهلالي لو رحب مباشرة لرسب رسوباً شنيعاً، خوفه مطلوب وتوجسه مرغوب.

قال الهلالي انه عاش خاضعاً، يتلقى الأوامر، كيف يتحمل مسؤولية ضاحية بأكملها؟ كما انها ليست مثل سائر الضواحي؟

تغيرت ملامح غريب الملامح، اكتست قسوة وغلظة، قال إنه ما من شخصية في الخطط تدري ما سينتظرها، لا رجعة، وإلا.. فليخرج نهائياً من الخطط.

سكت الهلالي، بعد لحظات فوجيء بانه محاط بعشرات الصحفيين، وجوه جديدة، شابة، يجهل اصحابها، سألوه: ماذا ينوي ان يفعل؟ بدت ملامحه صارمة، جادة، قال: لن أصرح أبداً بما سأعمل.. إنما سأتحدث دائماً عن ما عملته..

مطلب في وصف ما تضمه الضاحية..

.. تختلف هذه الضاحية عن سائر ضواحي الخطط، انها أقل مساحة، لكنها تحتل موقعاً أكثر أهمية، إذ تقع في بؤرة الخطط تقريباً، منافذها محدودة، وسكانها قلة، ومبانيها ذات قيمة لا توصف، شوارعها فسيحة، واشجارها ظليلة، والقعدة تحلو في أي ركن فيها، ومصابيحها على الطراز القديم، بها المكتبة المركزية للخطط، وعلى مقربة المكتبات الفرعية، بها المتحف الرئيسي لحضارات الخطط، الفرعونية. والرومانية، والفارسية، والاغريقية، والعربية، والمتحف المركزي لآثار الحضارات النائية عن الخطط، ثم المتاحف المتخصصة، متحف لمجموعات السجاد النادرة، الايراني، والافغاني، والصيني، وبجواره متحف للفنون الاسلامية، حوى عجائب المنمنمات، ودقائق التصاوير، والمشغولات، والزجاج القديم المطلى بالمينا، والزجاج المعشق بالجبس، ثم متحف الأثاث القديم، ثم متحف لأغطية الرأس، ثم متحف حربي للأسلحة، وآخر للأزياء العسكرية، وقسم خاص لجوهرات العهد السلطاني، وقسم آخر لجوهرات العهد الملكي المندثر، ومتحف للتيجان الملكية مصنوعة من الذهب الصب والمرصعة بثمين الجواهر، وقسم لكراسي العرش، ثم متحف للعربات المطهمة التي كانت تجر بالخيول ويركبها ولاة الأمر،

ومتحف للنادر من طوابع البريد، ومتحف لتطور وسائل مكافحة الحريق، ومتحف لتطور زراعة القطن منذ دخوله الى الخطط، ومتحف صحي به أجزاء الجسم الظاهرة والخفية، وأعراض الأمراض مجسدة، وتصاوير علمية، ومتحف للكون به نموذج للقبة السماوية، وأنواع النجوم، وأشكالها، واوضاعها، ومداراتها، ومتحف لعلوم البحر وما يحويه، الى جانب هذه المتاحف الرئيسية، توجد عشرات الدور الاخرى التي اسسها اشخاص كانوا أصحاب مقدرة فسعوا خلف كل غريب عجيب، كذلك ضمت الضاحية معابد نادرة وصلت سالمة إلى زماننا من العهود الوثنية للخطط، وأديرة، وكنائس عتيقة، ومساجد يرجع عمر بعضها الى ألف وأربعمائة سنة، وبيوت من العصر السلطاني كأنها بنيت بالامس، وبوابات عتيقة، وتماثيل من الديوريت، والجرانيت، والبازلت، والصلصال، والخشب، والأبنوس، وسن الفيل، وتمثال نادر في القدم لأم من الخطط تحنو على طفلها، وتمثال عتيق مصنوع من الخشب لشيخ بلد يمسك عصا، وتمثال لكاتب يجلس متربعاً ويمسك قلماً، عده الخبراء الوحيد من نوعه داخل الخطط وخارجها، وتمثال لزوجة تجلس بجوار زوجها، تلمس ذراعه بأطراف أناملها في رقة وحنو ما بعد هما بعد، ضمت الضاحية قاعات فسيحة لسماع الموسيقى، وداراً للأوبرا، صغيرة

المساحة، لكن لها منزلة لا تقدر بثمن عند الكثيرين، وقاعات اخرى صغيرة، ومسارح، وسيرك ضخم به أعداد من الحيوانات المدربة، وصفوف من باعة الكتب والاسطوانات، بينهم رجل تجاوز المائة لا يبيع إلا المخطوطات النادرة، قصاده كثيرون من سائر الجنسيات، وحفلت الضاحية بما لا يعد ولا يمكن حصره من نادر المعاني..

الهلالي يبدأ مهامه..

.. في البداية طاف بالضاحية، وتعجب لوجود هذا العدد من المكتبات، والمتاحف والتماثيل، اتخذ مقراً له قرب الجهة الجنوبية. مبنى من طابقين تحيطه حديقة صغيرة، أنيقة، طلب فاخر الأثاث لمكتبه، وأقام الحواجز حتى لا يزعجه طلاب الحاجات مع أنهم قلة هنا. أجهدَ فكره فيما يجب عمله، زاره التنوخي المسئول عن الحي السابع وأبدى استعداده لتقديم المعاونة او المشورة، لكن الهلالي عامله بجفاء وقلة ود، ثم اعتكف سبعة أيام حتى كثرت الأقاويل حوله، ثم ظهر في اليوم الثامن ليفاجيء الكل بما لم يتوقعه أحد منه، بما لا يتفق مع ماضيه في الخطط، اعلن أول ما أعلن ان ما جرى خلال عهد العجم لنْ يتكرر أبداً، وأثار ذلك دهشة، وتساءل الناس داخل الضاحية وخارجها، متى حكم العجم؟ وفي أي فترة

تقلدوا أمور الخطط؟ انهم نزلاء السجون على امتداد الخطط، لكن الهلالي أوعز الى الصحف والى القنوات التليفزيونية الأربع، والموجات القصار التسع والموجات الثلاث المتوسطة، بأن يتردد هذا المعنى دائماً، وان تعلن ادانة العهد الاعجمي، بل صرح في حديث الى جريدة الأنباء ان الهزيمة الكبرى التي وقعت عند المشارف تسبب فيها العجم، وان تغلغلهم في الوظائف، واطلاق يدهم، والاصغاء إلى كلامهم، كل ذلك أدى الى قلة البركة من الخطط، لأن طالعهم مشئوم، وما من مكان ظهروا فيه إلا وحلت به الكارثة، وانعدمت الثروة، ولمح الهلالي الى مسئولية العهد الجمهوري الأول، وقال ان عناصر معينة أثرت على القرارات التي اتخذت، مما يجعل الانسان يشك في جمهورية قادته واخلاصهم، ثم صرح بان العجم مسئولين عن بعض الأخطاء التي وقعت بعد بناء الخزان الكبير، وتلك أول اشارة تخص الخزان الكبير، كف الهلالي ثلاثة أيام عن اصدار التصريحات والتوجيهات. ثم أعلن لمدة عشرة أيام عن حدث كبير ستشهده الضاحية قريباً، ثم تحدث عن تعديل القانون القاضي بعدم افتتاح أية متاجر تخالف طبيعة الضاحية، ووصف القانون بأنه اعجمي. سنورد. وفي اليوم التالي أعلن عن قرب افتتاح أضخم مجمع لاطارات السيارات، ليس في الخطط، إنما في المنطقة كلها،

علقت لافتات وشدت سقالات حول قاعة الاستماع الرئيسية والمخصصة للموسيقى العالمية، ظن البعض ان ثمة تجديداً يجري، لكن عرف أهالي الضاحية ان القاعة ستحول الى معرض للاطارات، وأبدى كثيرون انزعاجهم، وجمعوا مئات التوقيعات، لكن الهلالي طمأنهم، وأكد أن الترتيبات أعدت لبناء قاعة أضخم ومجهزة بأحدث الآلات، وانه تم التعاقد على استيراد أرغن هائل لا مثيل له، وهدّأ وعده النفوس، وطيّب الخواطر، وخلال الأيام التالية أتم عدداً من الاتصالات الخارجية حصل بعدها على توكيل من شركة الاطارات العالمية، أصبح الوكيل الوحيد المعتمد في سائر أنحاء الخطط، لم يخف هذا، ولم يحجبه، بل ظهر وهو يقصد الشريط، ويتلقى التهاني، ثم يولي وجهه تجاه الكاميرا ليشرح مزايا الأنواع الجديدة من الاطارات، وأثار ذلك استنكاراً، وقال خالد لنفسه، انه مسئول قارح، وأبدى التنوخي دهشته من سرعة الهلالي، وعاود الاتصال به مرات حتى يوحي وكأن لم صلة بالتغيرات الغريبة في الضاحية الأولى، لكن الهلالي تجاهله. في الفترة التالية فوجىء أهالي الضاحية باغلاق أقدم المكتبات المخصصة لاستيراد المؤلفات الحديثة، احيطت الفتارين بألواح خشبية، وبعد أيام قليلة أزيلت، ورأى المارة أضخم حذاء عرفته الخطط، ديكور متكامل عبارة عن حذاء

هائل الحجم، تحولت المكتبة الى معرض كبير للأحذية الشتوية المبطنة بالفرو، تم ذلك بسرعة مدهشة، حتى أن أحد سكان الضاحية النائية اتصل بالهلالي وأبلغه اعجابه، وعندئذ عرف الهلالي انه يلتزم الخط السليم... في نفس اليوم أصدر قراراً الى جمارك الخطط، بمنع استيراد أية كتب من الخارج، وقال إن الرقابة لا تكفي لمنع تسرب أي كتاب يحوي فكر العجم، ثم أعدت قوائم عديدة بواسطة فريق عمل أشرف عليه الدكتور مجدي رمزي استاذ الطبيعة النووية، والحائز أيضاً على ماجستير في الآداب الشرقية، وتقرر منع الكتب المذكورة في القوائم من التداول في الخطط، وتجريم كل من يحوزها، وناشد أهالي الخطط داخل الضاحية وخارجها بتسليم ما يمتلكونه منها، ضمت القوائم كافة الاساطير القديمة، والقصص والأدعية الفرعونية، والأناشيد الهندية، والأشعار الصينية، والمسرحيات الاغريقية، واليونانية، ثم ظهرت قائمة تضم اسماء كافة أعمال شكسبير وسترندبرج وتشيكوف وأونيل وميللر، ودستويفسكي، وجوجول، وبوشكين، وتولستوي، وجوركي، وليونيد اندرييف، ومايا كوفسكي، وكافافيس، والمتنبي، والمعري وأبو تمام، ونيرودا، وناظم، وحافظ الشيرازي، والعطار، وزعت صور من مطبوعاتهم على المراكز التابعة لادارة أمن الخطط، وعد مشبوهاً كل من يضبط

متلبساً باقتناء ولو عمل واحد، ويبدو أن ذلك أحدث رد فعل قوي في الخارج، خاصة لدى الدول الناطقة بالفرنسية، اتصل التنوخي محاولا لفت نظر الهلالي الى هذا البعد، لكن الهلالي سأله: هل يضر ذلك أصحاب التوكيلات الأجنبية؟ قال التنوخي: لا، هل سيؤثر ذلك على حركة بيع بعض المؤسسات للأجانب؟ قال التنوخي: لا، عندئذ طلب منه ألاّ يتدخل فيما لم يحط به علماً، وبمجرد ان انهى المكالمة أصدر قراراً بوقف الفرق المسرحية، الهواة والمحترفين، وقرار باغلاق سائر المجلات الثقافية، العامة والمتخصصة، والدوريات العلمية، واعتبار أي انسان يسعى لإصدار مجلة معارضا للمبادىء الاساسية، وعلى صلة بالعجم، وأكد أن ما جرى أيام العجم لن يتكرر أبداً، وكتب الدكتور عبد العظيم السوافيري مقالتين حول الاجراءات الأخيرة، واعتبرها ثورة ثقافية تهدف إلى مراجعة التراث الانساني، وتصفيته، ولكن الهلالي اتصل به وطلب منه الا يعلق على أي أجراء يتم في الضاحية الأولى، وليسرح بمقالاته عند التنوخي في الحي السابع، أو إحدى الضواحي الاخرى، انه يمقت مثل هذه المقالات، وان ما جرى خلال أيام العجم لن يتكرر، ولاقى القول الاخير رواجاً في سائر الخطط، ردده كتاب المقالات، واساتذة الجامعات في محاضراتهم، ثم فشا على السنة رجال الاعمال

والتجار أصحاب التوكيلات الربوية، كان البعض يجلسون في المقاهي، ثم يتحدثون عن الأحوال ما جرى وما سيجري، يقولون ان الاوضاع صعبة الآن، الحمد لله الذي انقذنا من عهد العجم، هددوا اموالنا، ومستقبل عيالنا، وضيقوا في وجوهنا سبل النهب، كانوا سيخربون الثروات، ويجهزون على ما أحتوته الخطط، دأب المسئولون في الخطط، والمقيمون في الضاحية النائية، على الاشادة الى الفترة التي سيطر فيها العجم، وعندما افتتح توكيل اجنبي لبيع الجبن الكاماميرا، والزيتون الكالاماتا الأصلي، أعلن تليفزيون الخطط عن ذلك طويلا، رحب التنوخي بالصنفين الجديدين، وقال ان ظهورهما خلال حكم العجم لم يكن ممكناً، ودلل بذلك على رواج الأحوال، واشار عضو في مجلس الخطط المنتخب الى ظهور الكاماميرا والكالاماتا، والسيارات الامريكية الفارهة، وقال ان هذا دليل رخاء لم تعرفه الخطط من قبل، جرت احتفالات في الضاحية بمناسبة انواع أخرى من الجبن، وخلال مباريات الكرة التي اقيمت بكثافة علقت لافتات ترحب بظهور الجبن النادر، وخلال المآدب، والدعوات، وفي الصالات، مد المدعوون ايديهم بتحفظ في البداية إلى أطباق الشهيات، ثم توقفوا عند الجبن، اهي الكاماميرا؟ وعند الزيتون، اهو الكالاماتا؟ ثم هزوا رؤسهم، لم يكن ممكناً

تذوقها أثناء حكم العجم، وفي هذه الفترة شحت أنواع الجبن المحلي، وندرت أصنافه، حتى الجبن المالح الذي اعتاد أهالي الخطط على شرائه بأسعار رخيصة، واجرى الهلالي تعديلات على مناهج التاريخ المدرسية، واعتبرت مرحلة العهد الجمهوري الأول اعجمية متطرفة، ومنعت اغاني هذه المرحلة، وسائر ما يتعلق بها، وبرغم ذلك فقد تم تهريب بعض الاسطوانات، والكتب من مناطق نائية الى داخل الخطط، وبدا الأمر لخالد غريباً، فعلى الرغم من انقضاء سنوات قليلة على العهد الجمهوري الأول إلا أنه يبدو الآن نائياً، قصياً، تذكر خالد سفره الى منطقة قريبة من الحدود البحرية للخطط، مر بمسرح صيفي اعتاد زعيم العهد الجمهوري الأول القاء خطاب سنوي في ذكرى قيام العهد، رأى المنصة مهجورة، المسرح خال، المقاعد محطمة، اشتراها تاجر اخشاب وكومها استعداداً لنقلها، كان البحر قريباً، والليل متقدماً، وشيش الأمواج يدنو ثم يبتعد، يبدو كأنه اصداء غامضة لتصفيق تردد هنا يوماً، تذكر الخطب الملقاة، وهتاف الحناجر، وتصفيق الأكف، قال لنفسه انه كما تخرب المباني وتتهاوى فان التاريخ يدب إليه البلى، وان الأيام تفنى، وان الوقع يصبح شديد الوطأة، بالغ القسوة عندما يعيش الانسان لحظات التحول العظمى، عندما تأفل عهود وتجيىء عهود،

ولى العهد الجمهوري الأول بعد الحرب التي شنها الأعداء في المشارف، كانت حرباً مباغتة، صاعقة، حارب أهالي الخطط، وخرج العجم من السجون إلى ميادين القتال الثلاثة، واستشهد عدد منهم حتى المرابطين مضوا للتحريض، والتهييج، كانوا يرون في هذه الحرب عائقاً جديداً يعطل ظهور صاحب الزمان، عرف خالد اياماً عصيبة، وليال طويلة، عندما تطوع مع نفر من أصحابه، ومضوا الى خطوط النار، وشاركوا في الكمائن ونوبات الحراسة، لكن الأقاويل تُبدل الآن كل شيء، يبدو الأمر وكأن أهالي الخطط هم الذين شنوا الحرب، وان قادة العهد الجمهوري الأول اثاروها بدون داع، وان العجم حرضوا عليها، بل قيل انهم سلموا أسراراً هامة إلى الأعداء وان هذا هو السبب الحقيقي في الكسرة المهولة التي جرت في المشارف، والتي سببت أوجاعاً، وآلاماً لا حصر لها، وترتب على ذلك احتلال الحدود البرية الثلاثة، شعر خالد ان حلقات الحصار تضيق حوله، وان شهور السجن التي عاناها عندما قبضوا عليه قبل نذر الحرب تهون إلى جانب ما يجري في هذه الضاحية، وصار همه وشاغله، الى اي مدى تتجه الامور في الخطط؟؟، لم يحرص الهلالي على التمهل، او اتخاذ وقفة بين القول والقول، او بين الزعم والزعم، تتابعت اجراءاته، لا يوقفه أحد، لا يردعه رادع، حتى بدا الأمر

وكأن الضاحية دانت له، وأصبحت كالحلوى اللينة بين يديه، أصدر قراراً بتعديل قانون العقوبات الخاص بالضاحية، ادخل مصطلحات لم تعرف من قبل، مثل «احراز الفكر»، «منع التجول الفني»، «تعاطي الخلق..»، وسرت اشاعات بانه يعمل على سن تشريع يقضي بالحصول على ترخيص لممارسة الموهبة، واستعان بعدد كبير من رجال ادارة الامن لحصر القراء، الذين يطالعون بعد انتهاء ساعات العمل، او الذين يحتفظون بكتب لا تمت إلى المناهج المقررة عليهم في المدارس والكليات، ثم طلب من كل شخصيات الخطط تسجيل عناوين كل ما لديهم من كتب في أقرب نقطة تفتيش، ونص التشريع الجديد على عقوبة كل مخالف بجلده مائة جلدة في الميدان الرئيسي. ومنعه من استلام المقررات التموينية لمدة عام، وإشهار زوجته أو أمه او أخته او احدى قريباته على حمار بالمقلوب بعد تجريدها من ثيابها، حتى ما يستر عورتها، في هذه الفترة شب حريق هائل في دار الاوبرا القديمة، واندلعت السنة لهب ازرق غريب حاد لم يعرف مثله من قبل، وتحول المبنى القديم الى رماد في ثلاث ساعات، والتهمت النيران ديكورات نادرة، وملابس تاريخية، ودفاتر زيارات تحفل بتوقيع المشاهير والزعماء، ثم شب حريق مباغت في قاعة الموسيقى الشرقية، وذرف عدد لا بأس به من سكان الضاحية

والمترددين عليها دموعاً غزيرة، وانتحر عازف ايطالي عجوز حزناً، وفي هذه المرة لم يبد الهلالي أية نية لبناء اوبرا جديدة، او قاعة بديلة، إنما فاجأ الناس بقوله، يكفي الزمن الذي عاشته هذه المباني، وان الخطط في حاجة الى مواقف للسيارات اكثر من حاجاتها إلى اوبرا، ثم اصدر مرسوماً بالغاء مادة التاريخ من المدارس، ثم الغاؤه من الجامعات الاربع، واعتبر المؤرخون فئة منحرفة، وابدى عدد من الأطباء النفسيين استعدادهم لمعالجة أفراد هذه الفئة، وعد المخالف خاضعاً لقانون المهن المحرمة، ولم يفهم انسان ما المقصود بهذه المهن المحرمة؟ ولسبب ما اعتبر دارسي التاريخ الحديث من عتاة المخالفين، ثم تلاهم في المرتبة المهتمين بالتاريخ القديم. ثم الوسيط، وكتب الدكتور عبد العظيم السوافيري يهاجم التاريخ وأشباح الماضي، وقال إن التاريخ يشغل الناس عن الحاضر، وما أعظم الحاضر، وصدر قرار برد الاعتبار الى قمبيز، والى جنكيز خان، وتيمور لنك، واعتبار عين جالوت هزيمة منكرة للمسلمين، والظاهر بيبرس سفاحاً لوث يديه بدماء المغول، ووصف طومان باي بالجبن لانه لم يصن الدماء وآثر التصدي لسليم العثماني، وسب سليمان الحلبي، لانه قتل نفساً ذكية تمت إلى المستثمرين الاجانب بصلة، وعد كل من وقف في وجه أحداد المستثمرين الاجانب خائناً، وقال الهلالي، انه

بعد تصحيح التاريخ يجب نسيانه تماماً، وعدم الخوض فيه، ثم سمح ببيع الآثار النادرة المكررة، ثم سمح ببيع قطع معينة من الآثار غير المكررة. وتنبأ شيخ المرابطين بأن هذا الاجراء ينبيء بوقوع حدث عظيم، وفي هذا الوقت اشتد الامر بالنسبة للكتب، وكثرت المصادرات، وأعلن الهلالي أن الضاحية ستصبح قريباً نظيفة تماماً من الكتب، ومن القراءة، ومن كل ما يكدر الصفو..

فضول التنوخي

أمسكت الغيرة بقلب التنوخي، دهش لقدرة الهلالي وفُجره ومعرفته بالمؤلفين والا كيف أصدر كل هذه القوائم، وشك في انه أعجمي مرتد، اعتنق أفكارهم يوماً ثم ارتد شأن كثيرين يزحمون الخطط الآن، قام التنوخي بزيارة خاصة إلى مكان ما في الخطط حيث التقى بالعناني المسؤول الأول عن أمن الخطط، أفضى إليه بشكوكه، وطلب مراقبة الهلالي لأن ما يبديه من امكانيات ومقدرة ليس لها أي نذر في الشوارع والأسوار، لكن العناني أجابه بجفاء، وقال انه يعرف واجباته جيداً، ويعرف متى يراقب هذا ومتى لا يراقب ذاك، انصرف التنوخي وبه ضيق، إنه أشد شخصيات الخطط انحطاطاً، قضى عمراً كاملا من النفاق الرخيص، امتدح

العهد الجمهوري الأول ثم انقلب عليه في العهد الثاني ثم اشاد به عندما رد اعتباره في العهد الثالث لمدة أسبوع، ثم راح يهاجمه عندما سحب الاعتبار نهائياً في العهد الجمهوري الحالي، ان ماضيه في الخطط مظلم، ما من صفحة مضيئة في حياته، ما من دين سدده، ما من جيل رده، عندما طلب منه ان يتبول على قبر أمه راح يمضي إليه كل اسبوع ويشهد الناس على ما يفعله كدليل على اخلاصه، وهكذا تولى مسؤولية الحي السابع، لماذا لا يصغي اليه العناني؟ هل يعتبرونه وجهاً قديماً، آن آوان تغييره، لكنهم لا زالوا في حاجة إليه، لكن.. نجم الهلالي يطغى عليه، يتصرف كأنه الوحيد الذي ادرك نوايا الاستاذ مع انه لم يكن قريباً منه، ولم يكن من خاصته، قام التنوخي بزيارة اخرى الى الضاحية، ابدى اعجابه بقدرة الهلالى، قال ان تقريراً وصله من هيئة اليونسكو يقول بان عدد الكتب في الخطط الآن وصل الى ادنى حد له منذ اختراع المطابع، وان عدد الكتب التي كان يتم نسخها يدوياً في العصور الوسطى أكثر مما يصدر الآن في الخطط كلها، أبدى إعجابه باعتبار شكسبير ومورياك وسارتر من العجم، هنا غضب الهلالي، قال بلهجة حادة، جافة: اعتبارهم، ماذا تقصد، أليسوا من العجم فعلا؟، لاول مرة يرتبك التنوخي في حضرة الهلالي، الهلالي التافه الذي كان يضطر الى الانتظار

عدة ايام حتى يلتقي به في مكتبه بالأنباء، سبحان مغير الاحوال في هذه الخطط، وحتى يخفي ارتباكه اضطر الى الاستئذان بحجة ذهابه الى المستشفى المركزي للخطط كي يجري بعض التحاليل..

الهلالي يؤذي معارفه..

اعتاد قنديل الأزهري التردد على هذه الضاحية سعياً وراء الراحة وشم الهواء في حدائقها، انه الآن ضارب في الشيخوخة، ملامحه أكبر من عمره الحقيقي، بعد ان أكلت منه الاحزان وشربت أثر اختفاء حمدي، تطوع حمدي في الفرق الخاصة التي مضت الى الحرب المباغتة والتي جرت في المشارف، ضاعت أخباره، وتلاشى أثره كأنه لم يكن، ولم يرد اسمه في كشوف الأسرى، كان خالد أقرب الناس إلى ابنه، مضى معه، وحارب معه، لكنه لم يشف غليله بخبر، أنّب قنديل نفسه طويلا لانه زعق في وجه ابنه، لانه لعنه أمام ضباط امن الخطط، لانه تبرأ منه امام العناني، خاصة بعد ان ضبطوه في الميدان الكبير يحاول تهريب ملابس وطعام، بكى ورجاهم أن يأخذوا في اعتبارهم انه أب، وان الضنى غال، حمدي لم يرهقه أبداً، لم يحرجه، لم يرسل أية طلبات من السجن، عندما خرج من السجن إلى الجبهة لم ير بالبيت،

خرج في الفجر حمدي بالخط. توقف وعي قنديل عند هذه المرحلة، لم يدر بالتغير الذي جرى في الخطط، ولم يع زوال العهد الجمهوري الاول، أو اختفاء الاستاذ، سأل عن الاستاذ كأنه باق في الخطط ويرفض مقابلته، لم يتصور انه تلاشى بعد أن كان ملأ الشوارع والاسوار، والظل المحلق فوق المشارف. ثمة يقين لديه بأنه لو التقى به سيساعده، سيدله على مكان ابنه، لم يكن يقضي اوقاتاً طويلة بالبيت، سرعان ما يغادره تحت الحاح امرأته التي تطلب منه ان يلف في الخطط، لعله يلمح حمدي صدفة، انه يمضي مردداً بعض عبارات المقالات التي كتبها تأييداً للعهد الجمهوري الاول ظناً منه بأن العهد باق، وان الحال لا زال كما هو، ضحك منه بعض اهالي الضاحية، ولم يلحظ ان تردده على هذه الضاحية يعرضه الى الشبهة والأذى، لم يلحظ الدوريات اللاسلكية التي بدأت تجوب الضاحية، وتوقف المارة، ثم تطرح سؤالا محدداً، ماذا تفعل اذا كنت ماشياً في الشارع ورأيت موكباً رسمياً؟، ان الإجابة الصحيحة المعتمدة هي «أقف على الفور ثم اهتف واصفق»، «واذا كنت تركب سيارة؟» «اركن الى اليمين»، والويل لمن يجهل الاجابتين، لم يلحظ قنديل التغيرات التي لحقت بالضاحية، المكتبات التي أصبحت متاجر احذية. والجراج ذو الطوابق السبعة الذي احتل موقع

المكتبة المركزية، وقاعة المطالعة المركزية التي أصبحت كافيتريا، لم يلحظ اللافتات التي تهاجم العهد الجمهوري الأول، واللافتات التي تشيد بالعهد الجمهوري الحالي، ولم يلحظ اللافتات القديمة الممزقة التي اهملوا إزالتها وتشيد ببعض منجزات العهد الاول ومن ذلك الخزان الكبير، لم يلحظ عبارات السب التي كتبت بخط سريع فوق هذه اللافتات، انه يأوي الآن إلى ركن ظليل، يجلس فوق دكة خشبية عتيقة، بالقرب منه قطعة رخامية مستطيلة عليها نقوش تركية، اخرج جهاز تسجيل صغير، لا يذكر متى اشتراه؟ بدا عليه شجن خفي، ضغط زراً أحمر، علا صوت مطربة قوي، جميل:

جاهدوا ولموا الصفوف..

شيلوا الحياة على الكفوف..

تعاوده ايام الحرب، تحمل الكلمات روائح السنين المولية، يؤنب نفسه لانه قسا على حمدي، يبكي عندما يتخيله محتضراً، ظامئاً، لا يجد انساناً ليغلق عينيه، وفي هذه اللحظة، كانت الدورية اللاسلكية ترصد الاغنية وتتجه الى مصدرها، كانت إحدى الدوريات المزودة باجهزة لالتقاط أية انغام ممنوعة، اضيئت لمبات الانذار، اغنية من فترة

الحرب، فوجيء قنديل بالسناكي مشهرة، والحصار محكم، صاح الضابط:

اذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟

تذكر قنديل فقرة كتبها يؤيد فيها اجراءات ما:

«يجب ان نقف صفاً واحداً، ولن يتم ذلك إلا باستئصال العدو..»

زعق الضابط مأخوذاً بما يسمعه:

اذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟

«ان الخطوات المتخذة لنشر مجانية التعليم، والتأمينات الاجتماعية، وبناء الخزان العظيم..

صرخ الضابط:

«إذا رأيت موكباً رسمياً.. ماذا تفعل؟

مد قنديل يده ليضغط الزر، حتى يواصل الاستماع، اسكته الايدي، وهنا ادركته لحظات صفاء عجيبة، ادرك ما يراد به، قال بهدوء انه زميل الهلالي المنسق العام لهذه الضاحية، لم يصغ احد إليه، بعد التحقيق المبدئي طلب مقابلة الهلالي، لم يستجب اليه أحد، بعد اربعين يوماً من اعتقاله، وبعد نشر أخبار متفرقة عن قضية هامة ستعلن قريباً، ودارت تخمينات بين أهالي الضاحية، عن القضية،

أهي مؤامرة، أم تجسس، أم دعارة؟؟ وكانت الدلالات قد انقلبت، فاصبح يعني إقدام احد الاشخاص على تأليف بحث ذهني، او مقالة، والاستعانة بمراجع اجنبية، اما الدعارة فتعني الاقدام على الاعجاب بعمل فني معين والدعاية له، وهذه المفاهيم ليست ثابتة، إنما تخضع الى التغيير من فترة الى اخرى، ثم توجيه الدعوة الى رؤساء التحرير، والمراسلين، والمهتمين، وفي بداية المؤتمر ابدى الهلالي اسفه لأن المتهم صحفي قديم، انجب شاباً اعتنق مبادىء العجم، لكن قيل في حينه انه يخلق من ظهر العالم فاسداً، للأسف لم يشأ ان يقضي ما تبقى له من عمر هادئاً، تطفل وجاء إلى الضاحية متآمراً، جاء ليرتكب جريمته، عاش عمره كله مخلصاً للمبادىء الاساسية، أفشى السر، وأدمن النميمة، ولم يرفض رشوة، لكنه بدأ يستقيم بعد إحالته الى التقاعد، لكن هذا لا يعني أن امثاله كثيرون، ان القاعدة العريضة من الصحفيين منحرفة وفاسدة، واذا كان قنديل مثلا جيداً، يخلص لعهد مضى، ويردد اغنية مصادرة، فهذا مثال وحيد...، اثناء الحديث توقف الهلالي ليرشف جرعات ماء، استأنف حديثه عن تماسك القاعدة المنحرفة، حملق مرات الى الفراغ وكأنه لا يرى الجالسين، في القاعة الصغيرة المكيفة، قطب عينيه عندما صاغ بعض جمله على هيئة تساؤلات، مط شفتيه عندما ابدى

الاشمئزاز، مد يده مثنياً ثلاثة اصابع فارداً الابهام والخنصر متعجباً، ضرب المنضدة بقبضته مرتين عندما حذر وأنذر، أكد بعض المراقبين أن الهلالي أراد ان يعلن من خلال المؤتمر خطوط جديدة لتطور الامور، من ذلك تبدل المفاهيم وما يستتبع ذلك، اجاب على سؤال احد المراسلين بقوله ان الاستماع الى مثل هذه الاغنية يعد خروجاً على الاجماع، ومخالفة للوائح، هناك مقطوعات موسيقية معتمدة، جاهزة، تباع بأرخص الاسعار، لقد ارتكب قنديل جرماً لا فكاك من عقوبته، في اليوم التالي جرت محاكمة سريعة، صدر حكم باعدامه، لم يبد عليه انه تأثر، نقر ركبته ثلاث مرات، حار الهلالي، قال لنفسه هذا الرجل يحفظ الشعر القديم، والحكم، والامثال، كان يصحح مقالات الاستاذ، لماذا لم يعلق بقول مأثور، او بيت من الشعر، اقتادوه من قاعة المحكمة الى غرفة التنفيذ، منذ سنوات ألغيت الطعون او النقض، لكن بقي تقليد من الزمن القديم، السؤال عن الرغبة الاخيرة، يقال ان أحد الاجانب اشار بذلك كمظهر حضاري لا يضر ولا ينفع، انتبه قنديل وكأن دلواً مثلجاً غمر رأسه، قال انه يرغب في تقبيل زهرة من نوع حنك السبع، دهش الدكتور مجدي رمزي لغرابة الطلب، لكن اللائحة صريحة، اضطروا الى تأجيل التنفيذ ثلاث عشرة ساعة حتى تم العثور على الزهرة..

«كيف سمع الغناء الممنوع مرة أخرى..»

.. استنشق الدكتور مجدي رمزي هواء الضاحية بعمق، ومشى في طريق خال، يستعيد وجه قنديل الذي اكتسى لوناً أزرق، انه يصر على حضور عمليات الاعدام، وينزل الى البئر مع الطبيب ليجس النبض، لم يتوقف عن ذلك بعد عودته الى الخطط، قضى سبع سنوات مبعوثاً على نفقته الخاصة حتى حصوله على الدكتوراه، بعد عودته ولأسباب غامضة ظهر في الضاحية، كان مقرباً من الهلالي، وعرف انه الرجل الثاني، انه شرس الذكاء، غريب الطباع، عنده أنفة زائدة، يرتدي نظارة طبية إطارها معدني تنزلق دائماً على أنفه، وتجيىء نظراته من خلفها حادة، قاسية يجيد عدة لغات، يتقن علوم الرياضيات، واسع القراءة في الأدب، عالم بكل المواقف السياسية، عرف النساء منذ سن مبكرة، ارتبط بامرأة في الثلاثين وهو بعد في السادسة عشر، كانت متزوجة، جميلة، ذكية، ولا ترتدي باروكة، هامت به، وطلبت الطلاق من أجله، كاد الأمر يتطور الى أمور خطيرة، لكنه أفلت في اللحظة المناسبة، انه يعرف الوقت الملائم دائماً، عرف نساء لا حصر لهن، وعندما جُنّد للخدمة العسكرية لم يذهب الى الحرب التي دارت في المشارف، ولم يطأ بقدمه أرض أية وحدة عسكرية، ولم يلامس جسده الزي العسكري، سافر

بلداناً كثيرة، وعرف شخصيات لا حصر لها، ظل يتجاهل ايثار برغم حبها له، وهيامها به، وحرص عائلتها على زواجها منه، وايمانها بانه سيحصل على جائزة نوبل لابحاثه حول تحويل الحديد الى ذهب، وضرورة وقوفها بجواره لحظة تسلم الجائزة في استكهولم، لم يتبادلا كلمة تعبر عن حب، ولم ينفردا، ولم يرقصا، لكن الامور مضت بترتيب خفي محكم، عندما سافر الى الخارج ابدى لا مبالاة قاسية، تجاهل مكالماتها، وتثائب عندما استفسرت منه عما تستطيع أداءه له اثناء غيابه، في المطار راح يتحدث ويضحك ويصافح كأنها غير موجودة، زادها ذلك تعلقا به، وتأججت نارها، وبعد سفره قضت ليال سوداء تبكي وتتقيأ، وتشكو أوجاعا لا تحصى، وتدفس رأسها بين وسادتين بالساعات، ما روعها الاّ ترتبط به، إلاّ تعايش نبوغه الفذ، واللحظات التي تشهد ميلاد اختراعاته، ثم.. لحظة العمر كله، عندما تقف الى جواره، تواجه معه المصورين والصحفيين، تجيب على ما قد يوجه اليها من أسئلة بعد تسلمه نوبل، كادت تهلك بعد سفره، نحلت وضمرت، لكن ما خفف عنها تعرفها الى خالد، وخروجها معه، ثم هيامه بها، وحبه لها، الذي اضمره، واخفاه حتى دفعته باللطف والرقة الى البوح به، والتعبير عنه، وبعد تصريحه، واعلانه لها انه لا يطلب منها إلاّ ان تحبه، راحت تتجاهل مكالماته، وترد عليه بنفسها

لتقول ان ايثار غير موجودة، او مشغولة، واذ يغيب او يختفي يومين أو ثلاثة تسعى إليه، وتستفسر عنه ثم تلتقي به، تتخذ نفس الوضع الذي يتخذه مجدي عند الحديث إليها، أو عند تجاهله لها، بل انها تومىء بنفس وقته، ولا تجيب خالد إلا بألفاظ محدودة، معدودة، مثل.. آه، وبعد؟، يا سلام؟، ثم تستدير كما يفعل مجدي، وبعد ان أجريت الاتصالات، وكتبت الخطابات، سافرت الى مجدي، وقالت للناس أنها تنوي إعداد رسالة علمية، اقامت معه تحت سقف واحد لمدة عام كامل، قضت حاجاته كلها، لكنه لم يقربها، ولم يقبلها حتى، وكان يأتي بصديقاته إلى البيت، ثم يقول لها ان هذا طبيعي، وعلى أية حال فتلك حياته، عندئذ تصمت، كانت مستعدة لتحمل كل شيء من أجل تلك اللحظة الكامنة في رحم الغيب، عندما تنتشر الأخبار، وتطبع الصور بعد أن يتحول الحديد إلى ذهب، البروفيسور رمزي اثناء تسلمه الجائزة وبجواره شريكة كفاحه، كان أثناء ساعات عمله يحملق في الفراغ، او ينقر أسنانه بقلم رصاص، عندئذ تتجمد حركتها، تخشى ان تشوش على أفكاره، في احدى المرات جلست بلا حراك أربع ساعات كاملة، كان يحملق خلالها إلى نقطة ما في الجدار، كادت مثانتها ان تنفجر، لكنها لم تمض الى دورة المياه، خافت التشويش عليه، افساد فكرة قد يترتب عليها الاختراع الذي

سيأتي له بجائزة نوبل، تزوجا بعد سنة ونصف، ثم امضت معه بقية المدة، وكانت سنينا سوداء بالنسبة لها، لكن هان كل شيء من أجل الجائزة، غير انها عادا مباشرة الى هذه الضاحية، فوجئت به يمارس مهام لا علاقة لها بما درسه، ظنت ان هذا درب فرعي يوصله الى طريق الجائزة، ان الدكتور مجدي لا يفكر في ايثار، لا ترد صورتها وكأنها لا وجود لها في ذهنه، انه الآن ينظر براحة الى بقايا الاشجار، لا يخفي اعجابه بالهلالي، شن حملة ضد الأشجار العتيقة، ومتوسطة العمر، والتي لا زالت غرساً، استطاع تجريد الضاحية من الحدائق السبع اللواتي كن مثار اعجاب الرحالة، وتحفة النظارة، وهدفا للمكروبين، والعشاق، لم يترك احواض الزهور، وتماثيل الرخام، والجزر المستطيلة التي تتوسط الطرقات، والبرك الصناعية، والبركة الكبرى التي حار عتاة المهندسين في التوصل الى مصادر تغذيتها بالماء. هاجم الهلالي كافة المشاتل في وقت واحد، ثم محوها، وتغريم أصحابها، وصدر مرسوم تم تعميمه في سائر الخطط، اشاد بقدرة الهلالي، وجرأته في الهجوم على اللون الأخضر، واعتبرت خطته مثلا يجب ان يحتذى، وتسبب ذلك في زيادة حنق التنوخي، في هذا الطريق الذي كان الى وقت قريب مدثراً بالخضرة مشى الدكتور مجدي متمهلا، مستعيداً وجه قنديل المشنوق من

القا [illegible] لحظة انحسار آخر ملامح الحياة، فجأة انتبه الى ان ثمة شيئاً غير عادي يجري، في هذه اللحظة تسلل الى اذنيه صوت ناي شجي، يحوي احزاناً بلا ضفاف، كأنه غروب أخير لا رجعة للشمس بعده، كأنه فناء اليقين، تركيز موجع للنهايات كلها، للثواني الأخيرة في الوداع، وبداية ادراك الاختفاء الغامض، كان أنيناً خصباً في حزنه، يحرك اعتى القلوب، ويرقق الأفئدة الجامدة، ويدفع بالنفس، الى حواف الأسى الذي لا أسى بعده، لكنه الحزن المنذر بفرح، والضيق المبشر بالفرج، والكتمة الموحية ببهجة، اين المصدر؟ تلفت الدكتور مجدي حوله، لم يستطع ان يحدد، بدا العزف آت من كل فج، معلق في الفراغ، نابت من الأرض، لم يكن هذا العزف إلا تمهيداً لصوت مشروخ، رجالي، بدائي، ناطق بلهجة المدائن الجنوبية من الخطط القريبة من الخلاوي خشونة مرهفة، مرهقة، تعكر وتغسل، تدنى وتقرب، ترجف وتجمد:

يا أسمر يا بو الزند صعيدي

حبك بيسري في وريدي..

رفع الدكتور مجدي يديه الى أذنيه، خوف مباغت مبهم أدركه واغرقه، حتى انه نسي استخدام جهاز الاتصال الصغير المزود به كل المسؤولين في الخطط، خوف غريب أدركه، خوف لم يعرفه، ولم يواجهه، انه من القلائل في هذه الضاحية الذين لا يخشون الاستماع الى أية مقطوعة موسيقية محرّمة، او

اغنية غير معتمدة، الهلالي نفسه يخاف الاستماع الى الموسيقى الرسمية التي اعتمدها بنفسه، لكن الامر يختلف بالنسبة للدكتور مجدي، لكن ثمة شيئاً ارجفه، اسرع يجري، اتصل بالعناني في مقره الخفي المجهول لكل من في الخطط، لخص الواقعة، وأكد خطورة الناي، والغناء، في هذه الليلة تدفقت على الضاحية عربات محملة بقوات الأمن، وسيارات مجهزة بأدق الاجهزة الالكترونية، القادرة على رصد دبيب الموجات بين أقصى النجوم..

التراخيص بمزاولة الموهبة

.. بالرغم من صدور هذا القانون منذ فترة، الا انه صدر من جديد. ثم توالى صدوره عدة مرات وعلى مسافات زمانية متساوية، خصص مبنى لتراخيص من طابق ونصف عند الطرف الجنوبي للضاحية، ضم عدة فروع ترأسها ضابط من الإدارة، وهكذا اصبح من المستحيل على صاحب موهبة ممارسة أي نشاط إلا بعد توقيع هذا الضابط، في البداية طلب من كافة المبدعين المعروفين التقدم للحصول على التصاريح، خصصت استمارة لهؤلاء تختلف عن الأخرى المعدة للمبدعين من الشباب وصغار السن، واعتبرت الرخصة صالحة لمدة سنة، تتجدد بعد التحريات اللازمة ويحق لحامل التصريح

شراء لوازمه من أقلام (مختلف الأنواع) وألوان زينية، أو مائية، أو صلصال، أو برونز، أو جبس،، أو نوت موسيقية، وخلاف ذلك، كما يسمح بتقديم الإنتاج الى لجان الفحص لإقراره واعتماده، أما اجراءات ظهور العمل الفني فعدت منفصلة في هذا المبنى يتسلم الداخل كراسة بالمحظورات التي تتجدد كل شهر قمري، ومن أهم الممنوعات الثابتة عدم التعرض الى ما يمس الأسس التي قامت عليها الخطط، خاصة في العهد الجمهوري الرابع، أو ما يلمّح الى أمن الخطط، الأمن العام، الأمن الاجتماعي، الأمن الفكري، الأمن الغذائي كذلك عدم التعرض لأية شخصية عامة خاصة أرباب الوظائف الذين يتقاضون مرتبات ثابتة، أفراد الضبط والربط، أعضاء الأجهزة المعلنة، ورجال الإرشاد الزراعي، ورجال مقاومة الآفات الراشحة، ورجال الاطفاء، وهيئة هيئة التمريض، والمجالس العليا للأحياء والضواحي، وأصحاب التوكيلات الأجنبية، وضمت الكراسة نصائح بضرورة ظهور القوادين والسماسرة بمظهر لائق يضمن التعاطف معهم، وحظر أي تلميح ولو ضئيل الى أفكار العجم أو شخصياتهم، وعقب صدور التشريعات اتصل الهلالي بالتنوخي، طلب منه الحضور الى الضاحية لمقابلته، ثمة أمر هام..

كيف تكتب رواية متعددة الأجزاء؟

عند مدخل الضاحية توقف التنوخي طبقا للنظم واللوائح، سأله الضابط الشاب:

عندما ترى موكبا رسميا..ماذا تفعل؟

أركن الى يمين الطريق..

بعد اجتيازه نقطة الاستجواب أسرع الى مقر الهلالي، فكر في تطور الأمور بالخطط، لم يشعر بضيق لأن الهلالي استدعاه. كان الهلالي مرؤساً في الشوارع، لا وزن له ولا قيمة، لكنه الآن منسق ضاحية بأكملها، وصاحب هيمنة، ضاحيته من أهم أجزاء الخطط وما يجري فيها سيقرر مصير ما يدور في الأجزاء الأخرى.. قابله الهلالي بمزاج طيب، بدا منشرحا للغاية عنده ميل للدعابة، يومىء ويشير باصبعه ويمط شفتيه كأنه قضى عمره كله يصدر القوانين ويحدد المصائر. توقف لحظة ثم فاجأ التنوخي:

ألا تود أن تصبح قصاصا أو كاتبا مسرحيا؟

قبل أن يوغل التنوخي في دهشته شرح الهلالي فكرته، أنه يود إحداث تطوير هام في هذه الضاحية، لقد فكر في الغاء كافة الأجناس الأدبية، لكن بعض الأجانب ذوو الكلمة المسموعة في الضاحية النائية أشاروا بعكس ذلك،

قالوا ان الأدب واجهة لا بأس بها، وان خلو الخطط منه أمر مستحيل، هل يمنع هذا القرار الأمهات من قص الحواديت لأطفالهن؟ بالطبع هذا صعب، قال الهلالي انه فكر في كتابة القصة والشعر والمسرح الى الموثوق بهم، ان من يختارهم بنفسه سيعفيهم من الحصول على ترخيص لأنه سيمنحه بنفسه، قبل التنوخي بسرعة، قال أن لديه ميول أدبية قديمة، وهي الدافع الحقيقي وراء توجهه الى الصحافة، لكن الأستاذ لم يبد اهتماما. لعنه الله أينما كان الآن.. طلب الهلالي منه ان يبدأ نشاطه فورا، قال الهلالي إنه سيسمح له بكتابة الرواية ذات الأجزاء المتعددة، وسيحصل على مكافأة ضخمة، أبدى التنوخي تأثره لهذه الثقة الغالية ووعد بتسليم أول رواية متعددة الأجزاء خلال وقت قياسي، بعد انصراف التنوخي، خشي من اقتراح الهلالي، ربما يخفي مكيدة يريد بها تحسين صورته، هل من المعقول أن يؤثره الهلالي دون الآخرين، لكن ربما اقترح ذلك بناء على طلب من الضاحية النائية، ثم ألن يكتب الرواية بنفسه؟ لن يدع أية ثغرة تنفذ منها ألسنة التأويل، والدرس، انه يتأمل الضاحية، في كل مرة يجيء يجد تغييرا ملحوظا لا يخفى، سمع قبل مجيئه عن الحملة التي نظمت ضد أساتذة التاريخ، والباحثين، والمنقبين، إرغام عدد كبير منهم على الاستقالة والالتحاق بوظائف عادية في

مكاتب تصدير التراث التي افتتحت أخيرا، رفض بعضهم مما دفعهم بسهولة الى ادارة أمن الخطط، أرغمت قلة على الهجرة الى بلاد نائية لا بد من الطيران لمدة أسبوع حتى يمكن الوصول اليها، ان السهولة التي تمر بها الأمور هنا ملفتة للنظر حقا. لكن هل تم ذلك بين يوم وليلة؟ هناك جهود لا تنكر سبقت الهلالي، ثم الإنهاك الذي لحق بالناس أثناء الإنتقال من الميدان الكبير ثم المشارف، والحرب المباغتة، ايقاع الزمن أصبح سريعا في الضواحي، وهذا مخالف للشوارع والأسوار، أهو شعور فردي؟ أم سمة تصاحب الذين اقتربوا من الخمسين، يرتعد اذ يفكر في الموت، نفذ خواء الضاحية اليه، لا يصدق ما قيل فيما مضى عن جمالها، وطيب هوائها، لم يستطع تذكر اسم منشئها الذي أجرى اليها القنوات، وفجر عيون المياه، وأتى بغريب النبات ونادر الأطيار في طرقاتها

كان الود يصفو، وتتعانق العواطف، وتؤخذ العهود رونق.. أين رونق الآن؟ كيف أصبحت ملامحها، ماذا تغير في الجسد الضاج بالأنوثة والحيوية، الذي يعرض كل مواضع فتنته من خلال تلافيف الثياب، أين هي؟ أين حضورها الذي يرفع حرارة الجسم؟؟ يغير دقات القلب، نفض ذكراها عن ذهنه، لو رصدوا هذا لسببوا له الأذى، ذلك وفاء غير مستحب، لماذا تهاجه صورة رونق؟ للضاحية تأثيرها الذي لا ينكر،

انتبه فجأة الى غناء.. نعم، بالضبط غناء مصحوب بأنغام وترية مشجوجة:

يا اسمر، يا أبو الزند صعيدي
حبـــك بيسري في وريـــدي

انه يرتعد، غناء ممنوع، ما يخيفه انه لم يتبين المصدر، من يغني؟ من يعزف؟ أيعني ذلك فشل الهلالي؟ أم أنه اختبار مفاجىء يتعرض له، للغناء وقع ضاغط، ثقيل يسري الى أغوار نائية، ليعدو، ليخرج من الضاحية، ليتصل بالمنان في مقره غير المرئي..

نصيب الشعر..

.. عاتب الدمياطي زميله القديم، «أليس لنا في الطيب نصيب؟» كيف تذكر التنوخي، ولم يفكر فيه؟ هل نسي أنه قارض للشعر بنوعيه، العمودي والحر؟ ضحك الهلالي، لا داعي للغضب، أي الأقسام يفضل؟ قال انه ليس أقل شأنا من التنوخي، انه رئيس مكتب تحصيل العمولات الخفية، وهذا منصب حساس في الخطط، كما أنه آخر من تولى رئاسة تحرير الأنباء من الجيل الأول، لن يقبل الا بتصريح له قيمة، مثل الرواية، قال الهلالي ان الدمياطي عزيز عليه وزميل عمر، والأدب كله متاح له، لكن التنوخي حصل على ترخيص

بكتابة رواية، ان قطاع الشعر خالي في الضاحية، لماذا لا يجرب نفسه فيه؟ قال الدمياطي انه يقبل اذن كتابة ملحمة تساءل الهلالي عن معنى الملحمة؟ قال الدمياطي إنه شعر كثير مرصوص في كتاب واحد، لم يبد الهلالي مانعا، ويبدو أن الحوار أوحى إليه باجراء جديد. أصدر لائحة مكملة لتنظيم الخلق والابداع. بالنسبة للروايات المتعددة الأجزاء، والملاحم الشعرية، ومسرحيات الفصول الثلاثة، تقرر ألا يتصدى لهذه الأصناف إلا ذوي المناصب الرئيسية في الخطط، أما الرواية متوسطة الطول، والمسرحية ذات الفصل الواحد، والقصيدة ذات التفعيلة الواحدة، فلمن هم في مستوى المدير العام، أما القصة القصيرة والقصيدة الغنائية فلأصحاب الوظائف من الدرجة الممتازة، كذلك بالنسبة للوحات الرسم، اذ قسمت الى أحجام، يقابل كل حجم درجة إدارية، ويمنع من هم دون ذلك التصدي لهذه الأنشطة، وعد هذا التشريع مناقضا لما سبقه، اذ قصر أمور الخلق على أصحاب الوظائف الرسمية، المعتمدة، بل أنه منع الموظفين من ذوي الأصول الفقيرة، اشترط ألا ينحدر القصاص أو الشاعر أو الرسام من والدين فقيرين، وألا يكون الأب قد مارس اعمالا مخلة بالشرف. مثل كسب الرزق من عرق الجبين طوال العمر، أو الكد من أجل العيش وتربية الأولاد أو

رفض فرص السرقة والرشوة، أو ابناء العائلات الفقيرة الذين تفوقوا في دراستهم وسعوا الى اختلاس ساعات ليقرأوا فيها الكتب غير المتداولة، أو ارتكبوا جريمة تثقيف النفس، وتفتيح المدارك واعتبرت الاجراءات احراز الموهبة، وعدم الابلاغ عنها جريمة تعرض مرتكبها لتهمة الاخلاص الدائم. في هذه الفترة نصح بعض المستشارين بالتروي في اصدار هذه الاجراءات، أو تقديمها على دفعات حتى يتقبلها الناس، لكن الهلالي رأى عكس ذلك. وقال إن اسلوب السيناريو لا يصلح لهذه الضاحية، ليس هنا ما يخفيه، أو يخجل منه..

المقاهي..

عرفت الخطط عامة، وهذه الضاحية خاصة، بالمقاهي، لم يستطع انسان حصرها او ارجاعها الى زمن معين، كانت الضاحية تزهو بالمقاهي القديمة، أشهرها المقهى الشرقي، كانت فسيحة هادئة، تحتفظ بأزمنة قديمة وعبق لا مثيل له، داخلها مقاصير مستورة بالخرز الملون، عرفت بالشاي الأخضر والقهوة العربية، والزنجبيل، والنرجيلة الأزميرلي، في أيام الحر تظل رطبة، هادئة، لا تفارقها الظلال، اذا رفع انسان صوته فسرعان ما يدركه خجل، فوق جدرانها اقفاص حمام غريب، ولوحات زيتية غامضة، وقطع اثاث عربي قديم أركانها تشع

روائح عطور وبخور، تنتهي بعض زواياها نهايات مفاجئة، يوحي ما خلفها بعصر آخر، لا يبدو إلا في الأحلام الغريبة، كثيرون من الأجانب قصدوها، كثيرون من الشعراء هجعوا الى أركانها، يحاولون اقتناص الأفكار، والصور، في الفراغ يمتزج البخار والرطوبة والهمس، كان مقهى عزيزا على نفوس عدد لا حصر له، في البداية ترددت اخبار عن مستثمر اجنبي ينوي شراءه ثم مضت شهور لم يتردد خلالها أي خبر، كان ذلك قبل مجيء الهلالي، وبعد توليه أمور الضاحية زار المقهى، وأعلن عن بناء من ستين طابقا مكيف بأكمله سيقوم في هذا المكان، أخذ الناس بالقرار، بوغت محبو المكان، والمترددون عليه، لكن الترتيبات جرت بأسرع مما يتصور انسان، انتزعت ملكية الورثة، لم يحصلوا على أبيض أو أسود، سمح لهم ببيع محتويات المقهى اضطروا الى بيع النجف النحاسي والخشبي والأوبالين القديم بأرخص الأسعار، كذلك أطقم الكريستال العتيق، وأطباق صينية، ونرجيلات تركية وفارسية وهندية، ولوحات بعضها يمثل أدق التفاصيل في الضاحية خلال القرن السادس عشر، بيعت المقاعد التي لم تفارق مكانها منذ عشرات السنين، والدكك الخشبية العريضة، ومناضد الرخام التي فاحت برائحة السكر والشاي وعبير النعناع، قبل ان يهوي أول معول هدم، مات الحمام

داخل الأقفاص المعلقة عند المدخل القبلي. وطق زجاج الواجهات البحرية وصهل جواد صاحب المقهى الذي توفي منذ سنوات صهيلا عاليا، وضرب برجليه الأماميتين في الهواء، ثم همد، كان جوادا من أندر الأنواع أصيل السلالة، كان صاحب المقهى يمتطيه في أوقات معلومة قبل الغروب ويطوف به قرب المقهى، وبعد أن أدركه الكبر، وعاقته الشيخوخة صار يجلس فوق دكة قديمة والحصان بالقرب منه، يشرف على إطعامه، ونظافته، ومداواة قروحه، وفي مواعيد ركوبه القديمة كان يأمر عماله بوضع السرج واللجام عندئذ يهز الحصان برأسه ويرفع رجلا ويخفض الأخرى، ثم يروح ويجيء مرات أمام صاحبه الذي يغمض عينيه حينا أو يتنهد متحسرا أحيانا أخرى، واذ ينزل الغروب، ويعتم النهار، وتضاء الشموع العتيقة، يفك اللجام والسرج، تهدأ حركة الحصان ولا يسمع صهيله عبر الليل، إلا همهمة أو دمدمة، وعندما يتمدد صاحب المقهى فوق الدكة لا يتحرك الحصان ويبدو وكأنه تجمد تماما، ولا تفزعه افظع الأصوات قربا، ولا تحركه أرق المداعبات، عاش الحصان بقرب الدكة الخشبية بعد رحيل صاحبه. لكنه هوى ليلة الهدم: تشققت الأرض وغاضت المياه من حول النافورات الرخامية، وفي الليل تقوضت الجدران كأنها لم تكن وسبب ذلك خوفا للعمال

خاصة بعد أن تألم أول من رفع معول الهدم، وسرت اشاعات بأن ثمة ولياً من أولياء الخطط مدفوناً تحت أحد الجدران وانه اجهز على المقهى قبل ان يجهزوا عليه، وانه سيعاقب كل من تمتد يده، حوالي التاسعة صباحا فزع العمال وانصرفوا عن المبنى، ضاعف لهم المهندس أجورهم. لكنهم رفضوا، وعدت هذه الواقعة فاصلة اذ أمر الهلالي بعدها باستيراد العمال الأجانب الى الخطط. خاصة من كوريا الجنوبية، تلا ذلك قرار بازالة كافة المقاهي ولم يستثن حتى هذا الدكان الصغير الواقع بين منزلين يمتان الى العصر الوسيط، لم يضم إلا مقعداً خشبياً عريضاً محلًّى بنقوش دقيقة. تمثل الأنس والحيوان وكانت مشهورة بتقديم نوع من الشاي لا مثيل له. هُدمت سائر المقاهي، وصدرت فتوى تحرم المقاهي، وتعدد مضارها، وصدر أمر نهائي باجتثاثها من الخطط كلها، وآلم هذا الجعيدي في وحدته وشيخوخته، وكان الأمر صعبا. مرا، على كثيرين، لكن تم كل شيء في سرعة وجيزة، كما ازيلت المقاعد الخشبية الموضوعة حول بقايا التماثيل، وشوهت الأماكن الصالحة للجلوس في المواضع التي اشتهرت برقتها، وهدوئها، وطيب هوائها، كاد الهلالي ان يصبح راضيا عما تم، لكن ما أرقه وضايقه، تردد هذا الغناء الخفي الذي وصفه الدكتور مجدي رمزي وصفا دقيقا..

حملة الفولكلور

.. استمع الهلالي مع عدد من الخبراء الأجانب عن الخطط الى وصف دقيق للغناء، لكن لم تستطع الدوريات اللاسلكية تسجيله، العجيب ان من سعى الى سماع الغناء لم يسمعه، حتى الذين تمنت قلوبهم الاصغاء اليه، كان خالد يمشي الساعات الطوال عبر الأطراف النائية، ويعرِّض نفسه لأقوى الشبهات، لكنه لم يرصد النغم الشجي، كان الغناء يتردد فجأة بدون تمهيد تزايد حنق الهلالي. خاصة مع ظهور الغناء في أوقات لا تخطر على بال، وأجمعت أقوال الشهود ان الصوت لا يبدو مرعوبا، أو مهتزا يود الإفضاء بما عنده ثم الاسراع بالاختفاء، ابدا كان هادئا، واثقا، رقيقا، كأنه منبعث من أعماق حقل قصب لا زال حصاده بعيدا، يختفي فجأة كما يظهر، تزايد حنق الهلالي، وتحدث عن مؤامرة تدبرها عناصر مناوئة، وأصابع العجم، اضطر الى اتخاذ خطوة كان ترتيبها متأخرا، فأمر بالغاء الفولكلور، وتطبيق ذلك يعني وقف نشاط المنشدين الريفيين وعدم السماح لهم بدخول الضواحي والأنحاء، وحذف الأمثال الشعبية من الحوار العادي والحوار المتخصص، وأبطال الحكايات التي يقصها العجائز شفاهة ومصادرة الأزياء ذات الأصول الشعبية في الخطط، ثم فرض الزي الموحد لأهالي هذه الضاحية واستثنى

من ذلك اصحاب مكاتب الخبرة الأجانب، ومالكي السيارات قوة ستة سلندر. أُلغيت أيضا أغطية الرأس المصنوعة من الصوف والطواقي، وألغي الصديري البلدي، والجلباب واسع الأكمام، والعباءات بمختلف أنواعها، اللاءة اللف، والملس، والشقة، والسترة والبرقع، والفساتين المحلاة بالقصب، ألغيت مراسيم الولادة، واغاني الميلاد، والسبوع وأُبطلت عادة اشعال الشموع في اعياد الميلاد والأفراح، وبطلت صناعة الطبول، والدفوف، وآلات الايقاع، وشدد التضيق على النايات، والأرغول بمختلف أنواعه، والسلاميات، والصاجات، ومنعت رواية الملاحم في اسواق الريف المتطرفة النائية والقريبة ، منطقة الخلاوي، جرد المنشدون والمداحون من آلاتهم واعـ أي انسان مخالف منتميا الى العجم، وظهرت مقالة مطولة للدكتور عبد العظيم السوافيري يؤكد ويبرهن على أن التراث الحقيقي للخطط لم يعرف الأمثال الشعبية، وأنها بدعة دخيلة، كذلك ملاحم عنترة، والهلالية، وذات الهمة وعلي الزيبق، وسيف بن ذي يزن، وان كل ما قيل عن اصالتها، وعظمتها، وطرافتها، مجرد سم مدسوس بواسطة العجم، وأورد الدكتور عبد العظيم السوافيري ستة آلاف مرجع علمي تؤكد كلامه واراءه، ودعا المشككين الى إلقاء نظرة على هذه المراجع، وأشار الى اهتمام العجم بجمع التراث الشعبي، من

أجل فهم الشعب وضربه من الداخل، أرسلت برقيات تأييد عديدة تؤيد الخطوة المباركة بإلغاء التراث الشعبي، لكن الهلالي لم يهدأ كان يفضل البدء بخطوة الآثار لكن الظروف دفعته الى الفولكلور، والمغني الصعيدي يتزايد ظهوره، والأمور لذلك غير مستتبة، اتصل به العناني من مقره الخفي، وابدى قلقه بسبب تجمع بعض الأهالي في مواضع معينة وانتظارهم سماع الغناء ثم تلك المعلومات المتوفرة حول وجود عدد من الموهوبين الذين لم يسجلوا انفسهم، وكلهم لا يشغلون وظائف رسمية، اتخذت بعض الاجراءات المحدودة، مثل تخفيف انتاج الورق. وتخصيص أماكن لبيع الأقلام وأوراق الكتابة، ولم يكن ممكنا الغاؤها تماما لأن الأعمال اليومية في الخطط تتم بواسطتها، كما أبدى اتحاد المستثمرين الأجانب ضيقه لذلك، من هنا جاء اقتراح الدكتور مجدي رمزي تخصيص متجرا واحدا لبيع الورق والأقلام لكل منْ يحمل جوازاً أجنبياً، لكن العناني رفض ذلك لأن هناك عدداً من أهالي الخطط يعملون في مكاتب المستثمرين الأجانب وباستطاعتهم الحصول على فائض الورق، كما أن عددا من الأهالي الذين هاجروا منذ سنوات وحصلوا على جنسيات أجنبية ثم عادوا لممارسة النشاط الاقتصادي، انهم يعاملون معاملة الأجانب، لا يمكن محاسبتهم، قال العناني إن الادارة

ستتحمل المسئولية في نفس الوقت أُثيرت مشكلة أخرى حول المرابطين، انهم ليسوا مقيمين في هذه الضاحية ولم يشترك احد افرادهم في أي نشاط مريب كتأليف الروايات، أو الرسم، أو نظم الشعر، يظهرون هنا أو هناك كانوا يجيئون دائما الى نهايات الأسوار، لم يدخل أحدهم الى الشوارع والحارات، وكانوا آخر من عبر الميدان، جوهر المشكلة طقوسهم وعاداتهم ومناجاتهم هذا الغائب، هل يمكن اعتبارها ضمن الفولكلور المصادر، جرى نقاش طويل، وقيلت آراء لكن مندوب الادارة أكد أنهم مراقبون، ولا يعتبروا مصدر قلاقل، الأمر الذي يجب الاهتمام به، والتركيز عليه، أولئك الذين لم يبلغوا عن مواهبهم، ان الادارة ستوليهم اهتماما غير عادي.

الفندق القديم..

.. اغلق الفندق القديم، جرى الاعلان بأن صاحبه يعلق عددا من اللوحات التي رسمها عدد من الفنانين المعروفين بالخطط، نسخ من لوحات عالمية توجد أصولها في المتاحف العالمية، كان يتباهى بها ويشرح ما غمض من تكويناتها، انه عجوز اشيب الشعر، اسمر اللون، هادىء الصوت، يبدو كأنه شي على أطراف أصابعه، أعزب منذ تخرجه من القسم

الأدبي وهو مشغول بفكرة كتب لم يسعه بعد، يدور حول الماء: حالاته وأنواعه ولادته وفناته، خواصه ان فندقه يمت الى الجزء المندثر من الخطط والذي شيد معظمه في القرن الماضي، يعلو نوافذه زخارف جصية. جمع اصحابه الايطاليون القدامى بقايا القصور القديمة من أثاث وصحون وأدوات طعام، تضم الحجرة رقم واحد سريراً ضخما وزخارف خشبية كان يخص ملك الخطط الثالث، أعده خصيصا لاستضافة امبراطورة اليابان التي زارت الخطط بمناسبة فرح ابنته، ويقال انه انفق من اجلها اموالا طائلة. وبنى لها على جانبي الطريق الممتد من مرفأ الخطط القديم حتى الضاحية بيوت عديدة يضم كل منها قاعات تشبه الى حد التطابق قاعات قصرها في بلادها البعيدة، وزودها بالأطعمة والتحف، حتى لا تشعر بالغربة، ما شغل المؤرخين فيما بعد، هل ضاجعها ملك الخطط ام لا؟ هل اثمرت هذه التكاليف وأتت بالنتيجة التي كان يرجوها؟ صاحب الفندق يؤكد انه ضاجعها، وان عطرها النفاذ النادر ترك آثاره حتى الآن، وباستطاعة الأنف المجربة، الخبيرة ان تميزه. كان بار الفندق على هيئة غرف القيادة في سفن القراصنة النجف مستدير كعجلات القيادة في الطرادات الانجليزية القديمة، الصالة الرئيسية فرشت بسجاد كاشان النادر، أواني الزهور من البورسلين البوهيمي النادر،

اما أواني الطعام فصنعت من الفضة المطعمة بالذهب، حدث أن آخر مالك ايطالي هرب الى خارج الخطط اثر قيام العهد الجمهوري الأول، اذ ثبت وجود علاقة قوية بين صاحب الفندق الايطالي وبين آخر ملوك الخطط، بل قيل ان الايطالي كان يهيىء للملك ما لا يمكن تهيئته في القصور الملكية من أمور فسق وعهر، استمر الفندق بلا صاحب، اداره لمدة سبع سنوات الموظفون القدامى لحسابهم، كانوا يقتسمون الايراد في نهاية كل يوم، باعوا السجاد الثمين النادر، والنجف النادر، واستبدلوا الأواني الفضية باخرى من الألمنيوم الرخيص حاولوا انتزاع البار الخشبي العتيق، لكنهم لم يستطعوا بسبب تثبيته في الأرض، ثم حدث أن عرض الفندق للايجار بواسطة لجنة حصر الأملاك التي شكلها العهد الجمهوري الأول، رسا المزاد على هذا الرجل خريج القسم الأدبي القديم، وكان يشغل وظيفة أمين المكتبة المركزية للخطط. لكنه لسبب ما لم يفصح عنه استقال، وفضل تقاضي ثلثي معاشه والتفرغ للفندقة، كان الفندق قد جرد من أثمن محتوياته، لكن موقعه في قلب الضاحية، وتردد عدد من الأدباء والفنانين للسهر في بهوه الرئيسي، حببه الى قلبه، ثم واتاه حظه، اذ حدث أثناء تجوله في الفندق اتكأ متعبا على جدار احد الممرات واذا بباب سري يفتح، يقوده الى مخزن

كبير محتوياته يمكن ان تؤثث فندقا كاملا ،مرايا ضخمة مذهبة الاطر ، آلاف الأطباق الخزفية التي يمكن للناظر ان يرى وجهه منعكسا عليها ، لشدة لمعانها ، قام بفرشه من الخزن أثثه من جديد ، اعاد الرونق اليه ، اخرج تماثيل المرمر ، ولوحات نادرة ، وزعها على الغرف والممرات والصالات ثم بدأ يشتري من فناني الخطط ويقتني غير ان أثمن ما اعتز به لوحة صغيرة ، أصلية للفنان العالمي الفرنسي ، تولوز لوتريك ، تمثل ثلاث سيدات عجائز متقاربات الرؤوس ، يجلسن في مقهى ، قدر الخبراء ثمن اللوحة بثلاثة ملايين دولار ، وتوافد غواة الفن ، ومندوبو المتاحف العالمية ، وسماسرة عالميون ، لكن صاحب الفندق رفض ، واصر على بقائها في الخطط ، وضعها داخل اطار هادىء في صدر الصالة المخصصة للتأمل ، وغير المسموح بالتدخين أو شرب الخمر داخلها ، ذاعت شهرة الفندق وفضله الكتاب العالميون الذين مروا بالخطط ، ويؤكد صاحبه العجوز ان همنجواي كتب في احدى غرفه قصة قصيرة ، وان مالرو كتب عدة رسائل وضعها في صندوق البريد الخاص بالفندق ، وكانت الفرق الأجنبية القادمة للعزف في اوبرا الخطط او الرقص ، أو التمثيل تفضل الاقامة فيه ، وتؤثره على الشيراتون الجديد ، وخلال الخريف ، ولمدة اسابيع معلومة كانت تجيء الى الفندق كونتيسة فنلندية ، كانت عجيبة

ولطيفة الطول دقيقة الخصر الى حد لا يصدق ، مرمرية العنق ، رقيقة الأنف واسعة العينين ، تمشي كأنها تتحرك عند حدود الزمان المجهول ، انها الوحيدة المسموح لها بالاقامة في الغرفة رقم واحد ، لم تكن تتجول في الخطط . أو تخرج من الفندق ، انما تنتقل من غرفتها في كامل زينتها ، تمسك قفاز الدانتيلا الأبيض بيدها ، وترتدي مجوهراتها ، قلادتها الماسية والبروش اللازوردي ، وخواتم العقيق ، والأساور المحلاة بالزمرد ، وتجلس في قاعة التأملات تتطلع بهدوء الى لوحة تولوز لوتريك ، ثم تتجه الى غرفتها مطرقة ، جليلة الخطى وهكذا تنقضي أيامها في الخطط ، لم يكن لصاحب الفندق اقارب ، لكن اعتاد الموظفون والعمال مجيء سيدة رقيقة الوجه قصيرة ، يميل شعرها الى اصفرار ، عيناها زرقاوتان ، مقتصدة الحركات ، هادئة ، اذ يراها تتهلل ملامحه ، تجيبه بآهة ، أو ايماءة يتجه كل منهما بنظراته الى جهة مختلفة ، واذ يلتقيان عينيهما ، يومىء كل منهما . ويعود الصمت ، ويستمر الأمر هكذا حتى تغادره المرأة بخطى سريعة لم يكن يتحدث الى الموظفين والعمال كثيرا . انما يدير الفندق بنظراته ، واشاراته ، وعند اكتمال مجيء الأدباء يقدم اليهم القهوة مجانا ، ويجلس بعيداً عنهم ، يشارك في الحوار بالاصغاء وقبل انصرافهم يدعوهم الى القاء نظرة على لوحة لوتريك ، اصبح الرجل

ـمما تماما مع بدء التطورات السريعة في الضاحية، وعندما جاءه مستثمر أجنبي منفوخا، مزهوا، مصحوبا بضابط رسمي من الادارة أدرك ان كل شيء سيضيع عليه، وأيقن من ذلك عندما تلقى مكالمة تليفونية من مجهول بعد منتصف الليل، نصحه الصوت بأن ينجو ان يفر مع لوحة تولوز لوتريك وما يعتز به، ثمة عمولة ضخمة دفعت لأحد المسؤولين بالضاحية، ولا بد من بيع الفندق، طلب الفندق من المستثمر المزهو بنفسه ان يمر عليه بعد أربعة أيام، في غروب اليوم التالي تردد الغناء بعد انقطاع. جاء من كل اتجاه، ومضى الى كل ناحية في الخطط، هرعت سيارات الرصد، وبكي الناس خفية. وتحركت اشجان بلا حد:

يا اسمر يا أبو الزند صعيدي

حبـــك بيسري في وريـــدي....

قبض على عدد من المشتبه فيهم، لكن الغناء لم ينقطع هذه الليلة، تردد مرات، في اليوم التالي اكتشف رجال الإدارة ان صاحب الفندق لم يعد له أثر، وأنه أتى في الليل بسيارة نقل ضخمة، شحن سرير الامبراطورة اليابانية، والنجف الخشبي، وتمكن من تفكيك البار القديم، وسجادة واحدة من طراز بخاري كان يفرشها دائما عندما تجيء الكونتيسة الفنلندية، وجميع اللوحات، وبالطبع لوحة تولوز لوتريك.

اجتاز المدخل الجنوبي للضاحية أجاب على أسئلة ضابط التفتيش اجابة صحيحة، كاد الملالي أن يطق من الغيظ، اختفاء الرجل صفعة له، أكد ذهابه والعجز عن اقتفاء أثره أحد الأمثال الشعبية الممنوع من التداول، والذي يقول ان سكك الخطط بلا حصر، وضروعها أكثر من أن تحصى، أبدى سكان الضاحية النائية انزعاجا لضعف وسائل الرقابة، أشاروا الى تفاهة المنقولات التي هربها الرجل، الخطورة تكمن في ضعف نظام المراقبة في الخطط حتى بعد الاستعانة بخبراء السي آي ايه، وهذا يؤدي الى تزايد حالات سرقة الآثار بغرض الحفاظ عليها، وعرقلة خطط تهريبها، وعد ذلك أول إشارة الى وجود محاولات معاكسة لتهريب الآثار كما عد هروب صاحب الفندق أول تحد علني لما يتم..

مطلب في آثار الخطط وما جرى بشأنها..

.. يوجد في الخطط ثلاثة أرباع آثار الدنيا. أما الربع الباقي الذي لا قيمة له فموزع على سائر البلدان والأمصار، تنتمي آثار الخطط الى عصور بدائية، وفرعونية، ورومانية، وفارسية، واغريقية، وعربية اسلامية، ومنذ مسافة ترجع الى الشوارع والأسوار، وآثار الخطط مهددة بفقد عظيم، استطاع الأستاذ أن يتصل برجل معمر، نحيل، طويل، ممصوص

البدن، يرتدي أربعة جلابيب صوفية، وعمامة من ثلاث طبقات، ويمسك باليمنى خيزرانة طويلة مرنة على صلة بمهربي الآثار من الأجانب والغريب ان اختفاء قطعة - ولو صغيرة أو قليلة القيمة - كان يثير ضجة وقتئذ، ويقيم الدنيا ويقعدها، لكن مع تبدل الأوضاع في الخطط عامة، والضاحية الأولى خاصة، تغيرت الأمور بعد انقطاع طويل ظهر هذا الرجل مرة أخرى، انه يعرف موضع كل أثر في أراضي الخطط انه يقف في صحراء شاسعة، متشابهة، ثم يشير بخيزرانته الى موضع معين، سرعان ما يبدأ الحفر، تتكشف الدرجات المفضية الى الحجرات المزينة بالصور، الى المومياءات الملفوفة في شرائط الذهب، الى التوابيت الجرانيتية، والتماثيل المرمرية. أثار وجود الرجل في الضاحية فضول الكثيرين، كان ينام النهار كله، ثم ينزل الى الطرقات بعد المغيب يجلس وحيداً في مواجهة الأرض الخلاء التي قام فوقها المتحف القديم قبل إزالته ثم يخرج فص الأفيون النقي، يضعه تحت لسانه، يبدأ الاستحلاب البطيء، ثم يشرب الشاي الثقيل عند منتصف الليل يلتقي مع بعض معاوني الهلالي، لا يتحدث بصوت مرتفع، يومىء ويشير، يجيد سبع عشرة لغة، وثلاثين لهجة انه يختفي عند الفجر مخلفاً وراءه رائحة ثقيلة، مزيج من عرق ورائحة كتان قديم، انه يتعاون مع الهلالي،

ويثمن قطع الآثار النادرة، يساعد في عمليات الحصر الواسعة، لآثار الخطط في الصحراء أو تحت البحر، وهذا ما نعجز عنه الأجهزة الحديثة المعقدة فيما تلي ذلك ظهرت سلسلة تحقيقات في «الأنباء» حول الأخطار التي تهدد الآثار، من ذلك تغير المناخ في الخطط خلال السنوات الأخيرة، وهذا يعرضها الى التآكل والعري، ثم ارتفاع منسوب المياه الجوفية نتيجة لإنشاء الخزان الكبير، وأدى هذا الى إضعاف أساسات المعابد والتماثيل، ثم تزايد نسبة الرطوبة في الجو كنتيجة ثانية لمصائب الخزان الكبير، ثم نشر تقرير وضعه سبعة علماء ينتمون الى سبع جنسيات، يقول ان الخطط مكان غير صالح لإيواء الآثار، وانه من الأفضل نقلها الى بلاد أخرى.

نشرت الصحف عديداً من آراء العلماء وأساتذة علم النفس تبارك هذه الخطوة المباركة، وأشرف التنوخي على تنظيم استفتاء واسع النطاق جاءت نتيجته مائة في المائة، ثم اجتمعت لجنة لاختيار البلاد التي سيتم بيع الآثار اليها، استبعدوا بلاد العجم لوقوع معظمها في الحزام البارد، وحددوا القارتين الأمريكية الشمالية، والأوروبية، وشطبوا القارة الافريقية لتخلف بلدانها، وفقرها، كذلك القارة الآسيوية، واستثني الأفراد الأثرياء القادرون من كافة البلدان بحجة ان امكانياتهم لا تسمح بالحفاظ على هذه الآثار،

ثم وصلت الى الضاحية طائرة خاصة تقل مجموعة من أصحاب الملايين، بعضهم بدين وبعضهم نحيل، بعضهم قصير، عدد منهم ينتمي الى جماعـة تقول بأن ملكاً قديماً من ملوك الخطط اضطهدهم، وطردهم، ولهذا يضمرون حنقا خفيا ضد الخطط، ويسعون للحصول على مومياء هذا الملك المحفوظة في مقبرة لم تكتشف بعد، للتشهير بها وحرقها، واعلان النصر المؤجل منذ ستة آلاف سنة، نظمت رحلات للفوج داخل الخطط، وحدث أن طفلاً في السادسة صاح وبكى أثناء مرورهم أمام مجموعة تماثيل، أشار الى تمثال، لأب راع يحتظن ابنه، تمثال صغير لا يتجاوز طوله ثلاثين سنتيمتراً، لكن خطوطه دقيقة، وملامحه رقيقة، شبط الطفل الأجنبي في التمثال، بكى وتشنج، طلب الأب شراء التمثال، ولكن مرافق الفوج اعتذر لأن الطلب قدم في وضح النهار، ولا بد من استشارة الهلالي، طلبوه تليفونياً، عندما علم أن الأب من كبار رجال الصناعة أمر باهداء التمثال الى الطفل كبادرة طيبة شكره الأب شكرا جزيلا، وعده بأن يكون أول المشترين بأعلى الأسعار ثم جاءت أفواج وأفواج..

عملاق الضاحية

.. بعد تشكيل ادارة تهريب الآثار، ابلغت احدى

دوريات الأمن عن ظهور رجل هائـل، ضخم الحجم، طوله أكثر من مترين، عريض الصدر، ثم توالت البلاغات تتناقض في وصف ملامحه، لكنها تتفق على حجمه غير العادي، لم يعرف انه من اهالي الضاحية، كما لم يسجل بين من عبروا الميدان، امكن رصده، ثم تتبعه لمدة اربع ساعات، لكنه اختفى فجأة، خلال مراقبته لوحظ انه لم يكسر لقمة خبز، لم يذوق طعاما، ولم يشرب جرعة ماء سرعان ما بدأ البحث، ن ما يربك الادارة ظهور شخصيات غير مدرجة في الملفات، راجعوا سجلات الخطط، وملامح الذين عبروا الميدان، والمرابطين، والعجم، استعرضوا مرات الصور الملتقطة سرا للرجل الغريب، عملاق الضاحية كما اطلقوا عليه، استمعوا الى تسجيلات متنوعة لوقع خطواته، واخيرا امكن تحديد شخصية قريبة الشبه به، عاشت في الاسوار صاحبها المعلم الياس، لكن اختفاؤه في النهر القى ظلالا، لكن ثمة شواهد تؤكد ان المعلم الياس عبر الميدان الكبير واجتاز المشارف، جرت محاولة لاغتياله، مر بجواره طلق طائش، تفادى سيارة مسرعة كادت تدهمه، دفعها بيده فتحطم جانبها الايمن. ثم تصدى له اربعة اشداء من الادارة ومعهم امر باعتقاله، لكنه صرعهم جميعا وأورثهم هذا عاهات ومصائب وعُدّ ذلك الحادث بداية مرحلة لها شأنها، اثبتت الملاحظة انه يختفي في

نفس اللحظة التي يتلاشى فيها كل أثر للعجوز صاحب الخيزرانة، حير ذلك الادارة، واربك رجالها. مما دعا العناني الى تشكيل فريق عمل خاص لاغتيال عملاق الضاحية، او القبض عليه، ورصد جائزة ثمينة، ولم يتم ذلك بمعزل عن الناس، اذ بات معروفا للداني والقاصي، للكبير والصغير، ا.. المغنى الصعيدى، وعملاق الضاحية.

المغارة

«.. ادارة تهريب الآثار، شروط خاصة يجب توافرها في المهربين، ضرورة تخصص المهرب، لا يجوز لشخص واحد الاتجار في آثار تمت الى عصرين مختلفين»، لكن الامور لم تمض كما شاء قادة الخطط، ولم تلن لهم، اصبح من المؤكد للادارة ان ثمة شيئا خفيا يجري في العتمــة، ويبدو ان ما جرى بخصوص الآثار حرّك الروح في اوصال الخطط، وطبقا لتقارير الادارة يبدو ان عددا من الاهالي الاصليين نظموا محاولات غير مشروعة للحفاظ على الآثار، الحصول على القطع النادرة وترحيلها الى موضع خفي بالخطط وذلك بدافع من افكار بالية روجها عتاة العجم تقول بضرورة الحفاظ على التراث القديم، واعادة تاريخ الخطط الملغى، واقصاء الاجانب، وتحرير المقدرات، قام الاهالي الاصليين بتدبير

محكم لانقاذ تماثيل، وتيجان، ولوحات، وقلادات، ومومياءات، واطعمة محنطة، وسيوف، وآلات حرب، وسرى همس بأن مئات القطع جرى انقاذها، وتم ترحيلها الى مكان امين، يقع في بطن الصحراء الشرقية الوعرة، الشاسعة، بالقرب من الخلاوي، مغارة كبيرة لا يمكن اكتشاف مدخلها إلا للعالم به، انه حفرة في وسط وادٍ مليىء بالحفر، لا بد من النفاذ خلالها ثم دخول نفق مظلم يمتد سبعة كيلومترات، ثم يتفرع الى ثلاثة فروع، وكل فرع يتشعب الى ست ممرات مربعة، وكل ممر ينقسم الى سبعة دهاليز اسطوانية، احد الدهاليز يقود الى بطن المغارة المضاءة بواسطة نور خفي المصدر، تمتد اقسامها الى عدة كيلومترات ومن المستحيل الوقوف على وصف دقيق لأن الآراء تضاربت وتناقضت، ويقال انه عند نقطة معينة يجف الهواء فجأة، ويصاب الكائن الحي باختناق، لا يمكن التقدم خطوة، واي انسان يضل الطريق الى بطن المغارة لا يرجع، ويقول المعمرون في القرى الواقعة قرب الخلاوي، ان سر هذه المغارة يورث في عائلة من الرعاة، وان أحدهم افضى به الى طفل تبناه، بعد ان سلمه ابوه اليه في احد الاسوار لخوف غامض، ولم تعرف حتى الآن تفصيلات دقيقة، لقد عرفت اقسام الخطط مغارات ضخمة، امكن التوصل الى اعماق عدد منها، خاصة في العهد الملكي

عندما استخدمت كمخازن للجيش، بل مد داخلها سكك حديدية، لكن هذه المغارة، استعصت على الكشف، ولم تظهر في خرائط الاستشعار عن بعد، والوحدات، والاقمار الصناعية، والاشعة تحت الحمراء واشعة جاما..

حارس الخطط

.. اول ما تم نقله الى المغارة تمثال من الديوريت الأخضر لطائر ابدع الفنان تصويره حتى ليوشك الناظر اليه على الظن بأنه سيقلع طائرا، العجيب ان عينيه مائعتان، متحركتان وقيل أن اصله الحي موجود، يظهر في سماء الخطط من حين الى آخر، وقيل أن المغارة ظلت شاغرة لفترة طويلة باستثناء هذا الصقر، عرف التمثال بانه حارس الخطط، وان القدماء أحاطوه بطقوس غامضة أدت الى اعتقاد فيه، خلاصته ان الطائر هو حارس الخطط، وان ضررا لن يلحقها بسببه، وانه ما دام موجودا فيها فستزول أية غمة مهما طالت، ثم بدأ توالي القطع، وامكن تجميع توابيت الملوك القدامى للخطط وكنوزهم كاد الهلالي يجن، أشرف بنفسه على محاولات محمومة للوصول الى مخبأ الآثار، أو الامساك ببداية الخيط، لكن هذه الجهود ضاعت عبثا، ولم تستطع قوات امن الخطط، او المخابرات المركزية، كذا

مخابرات الناتو، التوصل الى أية معلومات تشير الى حقيقة الموضوع، ولوحظ انها المرة الاولى في تاريخ الخطط التي ينعدم فيها ظهور الوشاة، وأثار هذا دهشة علماء الآثار خاصة ان العقوبات الموضوعة رادعة وقاسية، خاصة بالنسبة لمن يأتي تصرفا مباشرا من شأنه عرقلة تهريب الآثار، أدهش اختفاء الوشاة اهالي الخطط انفسهم، حتى ان البعض صار يقول: لم تخل الخطط من الرجال، ولم يقتصر ذلك على موضع المغارة، ولكن لم تستطع الاجهزة المعينة التوصل الى شخصية المغني الصعيدي، او تحديد الظروف التي اختفى فيها عملاق الضاحية مصطحبا الرجل العجوز ذو الخيزرانة، تزايدت حركة تصدير القطع النادرة، وصلت بعثة اجنبية لتفكيك معبد الخصوبة الذي اشتراه مصمم ازياء عالمي، قرر ان يعيد بناءه في حديقة قصره داخل خيمة من زجاج شفاف اتجهت البعثة الى جنوب الخطط، فوجئوا، المعبد اختفى، لم يروه في موقعه المحدد بالخرائط الأثرية، ومراجع البحث، وكتب الرحالة، نساء القرية وقفن يحملن اطفالهن، صمتهن صواني، وعيونهن التي تجاوز فيها الانتظار والحزن والخوف لا تفصح ولا ترشد..

أزمة الهلالي

.. سرت اشاعات مجهولة المصدر بأن عمر الهلالي اصبح قصيرا في الخطط، وانه سيعزل، والسبب تعاظم حجم الآثار الهامة التي نجح الاهالي في اخفائها والحفاظ عليها، وفشله في تحديد موقع الخبأ المبهم الذي احتوى كل ثمين، وعجزه عن ايقاف الغناء الذي بدأ يتردد في اوقات متعددة، وقال آخرون انه أدى دورا مرسوما، وسيصبح وجوده عبثا وعائقا، وانه لا بد من تقدم شخصية اخرى كي تحل مكانه، وهكذا سنة الحياة في تلك الخطط، وكأن الهلالي أراد أن يثبت كذب الاشاعات وانه لا زال في الصورة، فوجه تحية هي الاولى من نوعها، اذ حيا الراسبين في امتحان الشهادة المتوسطة، وعدهم بمستقبل مظلم، وأشار الى مصادر الرزق غير المشروعة، والى اساليب النفاق التي استوعبها النوابغ منهم، لاحظ بعض المهتمين بمراقبة الملامح، ان الهلالي بدا عصبيا اثناء حديثه، وتحت عينيه هالتين معتمتين، لكن.. اذا عرف السبب بطل العجب، الحقيقة ان الهلالي يمر بضيق عظيم، والسبب ما وقع في الحفلة، والحكاية ان عددا من اثرياء الدول المشتركة قرروا الحضور الى الخطط، وتردد ان ثمة مشروعا هائلا سيتم وله علاقة بتاريخ الخطط، لكن لم تعرف

طبيعته، وان توجس الناس، وتوقعوا شرا مهولا، وقد كان!!، وسيتضح ذلك في موضعه، جاء الاثرياء لبحث الامر خفية وأدرج في برنامجهم مشاهدة حفل يتضمن عروضا فولكلورية من الفنون المحرمة الآن، أُقيم الحفل حول مقبرة اثرية من الفترة القديمة رصت الحشايا فوق الصحراء، وذبحت الخراف، وازدحمت الاسمطة الحافلة بالحمام ولحم الغنم وانواع السمك، وسائر اصناف المشموم والفواكه والخمور من مختلف الانواع، ويسكي اسكوتلندي قديم، وشمبانيا فرنسية، وفودكا روسية، واشنبص سويدي، وما لا يحصى... رقصوا، وأثار الليل العميق والصحراء والمقبرة الأثرية شهوة غامضة جامحة، وعندئذ فجروا فجرا شنيعا، واظهروا ما لا يصدقه عقل من ألوان المعاصي والفسوق.

وحدث ان تعلقت فتاة كطبق البنور بالهلالي، تأجج جسدها، وتأود تحت اضواء النجوم، ابتلع الهلالي ريقه، استعاد أمنيات المراهقة البعيدة، والرغبات، ها هي أمامه، في مقتبل العمر، الصدر صلب، والبطن ناهضة، تدنو منه، لكنه اكتشف فجأة انه نسي ذلك، وان جسده بارد كبطن الحية، ولا أمل يرجى، لم يقترب من امرأة منذ مجيئه الى الضاحية، عمل، عمل، أصدر خطط، لكنه لم يبص الى نفسه، بصقت في وجهه قام يعدو عاريا، ابتعد عن موقع الحفل

حتى قابله خفير من الحـراسّ القدامى، فقدم اليه ما ستره، اثناء عودته تطلع الى ما حوله، الى كل مكان حوله، ارض خراب، او موقف سيارات، المرحاض الحديث الذي يحتل مكان الكونسرفتوار، تضاءل عدد المباني الى حد كبير، اختفت المتاحف كأنها لم تكن، وقاعات الموسيقى والعرض، والمسارح، ودور السينما، انتابه غمٌّ، كان في الشوارع يفخر بخلو دماغه من أية فكرة، لم يضايقه الا بيت الشعر القديم الذي لا يدري متى علق به...، شبهوا رأسه بالبلاطة، ونجح في تحويل الضاحية الى ما يشبهها، حتى ان فكرته بتحويلها الى موقف دولي للسيارات لاقت رواجا وقبولا، استحق الثناء من سكان الضاحية النائية الذين اتخذوا قرارا بألا تقام اية مباني ضخمة في الضاحية خوفا من تحويلها الى متاحف او مكتبات فيما بعد، مع انهم تلقوا عروضا من شركات انشائية، استحق الثناء، لكونه طرد نفسه من نفسه، في الشوارع ارتدى الأقنعة حتى نسي ملامحه، وفي الضاحية عمل بلا كلل خوفا، خاف فاندفع وابدى ما لم يتوقعه احد، وها هو ينسى ما يمكن للرجل ان يمارسه بالغريزة، لفته خواطر سوداء، ان يعتزل، ان يعلن انه سيتلقى دروسا في مبادىء القراءة والكتابة كي يستعيد الهلالي القديم، ان يردد بعض الامثلة الممنوع تداولها. بل فكر في الاشنع، ان يقتني كتابا، هو الذي طارد الكتب

ونفى رجلا ضبطت لديه طبعة قديم من دائرة المعارف، وشارك في اعدام زميله قنديل، كيف تعايش مع مجدي رمزي؟ كيف تحمل تواجده الاملس؟ وصوته الدهني، وجهه البارد، منذ فترة يتخطاه عند الاتصال بالضاحية البعيدة تجواله ازداد في الضاحية لكنَّ أسهم مجدي رمزي ارتفعت بعد ما أشيع عن زوجته..

خلوة موقوتة

.. ظهرت ايثار عدة مرات في هذه الضاحية، وتفوهت بجمل مثل «لم اعد اطيق»، «حياتي معه صارت كابوسا»، إنها لم تعرف يوما سعيدا، سافرت اليه عطلها، وأوقف مشاريعها، عملت في التدريس من اجله، لتسلمه كل ما يصل الى يدها، ثم يعطيها ما تحتاج اليه في تنقلاتها فقط ، كانت تعمل لمدة ثمانية عشر ساعة يوميا، تحملت المشاق لأنه عبقري ولانها تؤدي رسالة، اقتنعت بما قاله عن جهوده التي يبذلها لاكتشاف ما حير العلماء قرونا عديدة، تحويل الحديد والرصاص والصفيح الى ذهب، تحملت ساعات صمته وحملقته الى المحيط، بينما تقمع ساكنة، تخشى الحركة، تكتم انفاسها وتحصر بولها، وتعلل النفس بانه يوم تسلم جائزة نوبل ستقف الى جواره، ستكتب الصحف عن اول عالم من

الخطط، يحصل على جائزة نوبل، ما قهرها، اصراره على مضاجعة صديقاته امامها، ظنت انه سيكف بعد ارتباطها بوثاق الزواج، لكنه افحش وزاد، وعندما بكت ورجته ان يحترمها امامهن قال ان ذلك ضروري لتجديد فكره وشحن طاقاته حتى يتوصل الى السر، لم تستطع الشكوى في الغربة، كثيرا ما ضاق صدرها، لكنها خافت البوح حرصا على صفاء تفكيره، وعندما زاد الامر، فكرت ان ترد عليه، ليس في البيت، في اي مكان، مع اي شخص لكن الامر لم يكن سهلا، اذ اعتاد معظم رجال البلدة ان يغتصبن النساء، أما الطلبة الاجانب فعددهم قليل ومعظمهم من جنسيات غربية، لم تستطع ذلك طوال مدة اقامتها في البلدة الجامعية، بعد عودتها الى الخطط فوجئت بصديقاتها وزميلاتها يقلن لها ان وزنها نقص وان ثمة شيئا داخلها قد انطفأ أما امها فتنظر مشفقة ثم تلعن الغربة وبلاد الغربة، وترد ايثار بأن مجدي يشركها في كل كبيرة وصغيرة، وانها تحمل هموم بحثه العلمي العظيم، وانه بعد حصوله على الجائزة ستعيش ايامها من جديد، بعد عودتها ظنت انه سيكف، خاصة وان الامور اصعب في الخطط، لكنها فوجئت بعكس ذلك، دأب على اصطحاب فتيات مجهولات، وكثيرا ما صاح يطلب كوب ماء، أو عصير، او فوطة صغيرة، وتضطر الى تلبية طلبه، ثم

نزوي بعيدا، تبكي، لاحظت توقفه عن البحث، ودهشت، ما علاقة المهام التي يقوم بها هنا والدكتوراه التي يحملها او البحث العويص الذي يعدُّ له، غير انه شرح لها الامر، قال انها مرحلة لا بد من التوقف عندها ثم يليها انطلاق عظيم، لكن الشك تسلل اليها، وفي نفس الوقت ازداد اصرارها، لا بد.. لكن من؟ كيف؟ حتى فوجئت يوما بخالد الذي هام بها قبل سفرها، وافضت الى مجدي بما قاله وما صرح به، لعله يغير، لعله يدرك ان لها عشاقا ومحبين، لكنه لم يبد انفعالا، انها في حضور خالد تصبح ذات دلال، تتكلم بطريقة مختلفة، وتقسو وتلين ولا تخاف لم تحبه لكنها حرصت على رؤيته والجلوس اليه، وترديد بعض العبارات المبهمة التي يتفوه بها مجدي فجأة، ثم تجيب خالد بأنها تعني اشياء خاصة جدا، واذا صمت هو، ترق وترنو وتزيح شعره حتى يعبر عن مشاعره بكلمة او نظرة عندئذ تجف لهجتها وتستدير مثل مجدي وتومىء مثل مجدي وتهز اصبعها بلا مبالاة كما يفعل، رحبت بخالد وابدت شوقا وقالت ان الكلام كثير ولا بد ان يقال، حددت ميعادا في العاشرة بعد انصراف مجدي بساعة، جاء خالد، بدا مهموما، متعبا، تحدثا في امور الخطط العامة، وقال ان قلبه مثقل، وخلال تدفق حديثها توقفا مرات، ادرك كل منهما ان ما ينبغي قوله لا يقال، مع مضي الوقت

طالت فترات التوقف، والتقت خلالها النظرات بعد ان تعمدت التباعد، عندما سألها عن شؤونها، تحدثت عن آلام الغربة، وصبرها من اجل اتمام مجدي للبحث، لكن لعبقريته تصاريف غريبة، تصور.. انه ياتي بهن الى هنا..، نظر خالد اليها، كان مترددا في البداية، يخشى ان يقدم على تصرف فيلقى صداه، لكن لم يعد لديه شك، نظراتها التي تواجهه بها ثم ابتعاد عينيها، يداها المدسوستان بين ساقيها، تغييرها لوضع جلوسها بما يتيح له ان يرى مساحة اكبر، هكذا نساء الخطط، تذوب الواحدة منهن رغبة، لكن الخطوة الاولى يجب ان يقدم عليها الرجل، اطرق مقدار خمس دقائق، لفّها الصمت، يفكر في الحركة التي تنقل علاقتها من مجرى الى مجرى، ومن تاريخ الى تاريخ، كانت الغرفة ملونة بالفسق الشتوي وهي قابعة تنتظر، فجأة قال: تعالي هنا.. اشار الى المساحة الضيقة بجواره، اندفعت، كطائر ينتقل من غصن الى غصن، حطت بين ذراعيه، برك بشفتيه فوق شفتيها، اولج لسانه داخل فمها، مصت شفته، بينما جسدها ينتفض محموما، تسارعت انفاسها وكأن قلبها سيكف، اختزل السنوات في لحظة، ودبت الرغبة المدخرة في اوصاله، احتوت جسده بنظراتها، تساءلت، لماذا يبدو خجولا.. ان جسمه جميل، خال من العيوب، امسكت اصابعه، قالت انها منبسطة منسابة، مليئة

بالحيوية، أثاره ايقاع صوتها، تأملاتها فيه، كلام لم يسمعه من امرأة، لا وقت عند العاهرات للمناجاة، والتأمل ضاجعها للمرة الثالثة، حدق في عينيها المتألمتين، المغمضتين، واطراف اسنانها التي بدت تغوص في شفتها السفلى وساقيها يحكمان التفافها حول جسده، بعد اسبوع من التردد قالت لمجدي ان ثمة موضوعا تود مصارحته فيه، سكتت.. ثم قالت بهدوء انها خانته، لم يتحرك لم يبد أي رد فعل توقعته حتى انها حارت.. ماذا ستقول في اللحظات التالية؟ عندما تأهبت الاستكمال الحديث أشار بيده، رجاها ألا تقاطعه مرة أخرى عندما يبدو مستغرقاً، ان ذلك يعطله عن الوصول الى لب فكرته، تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب، بعد خروجه شدت شعرها، لطمت، رطنت بالفرنسية، والانجليزية، ورثت نفسها بالالمانية، بدأت تتكلم، اتصلت بمعارفها، واصدقاء مجدي، وادارت قرص التليفون، تطلب ناسا لا تعرفهم، تختار اي نمر من الدليل، اخبرت الكل عن فظاعة مجدي، وقسوته عليها، ودفعه اياها الى الجنون لانه يصحب من تعرفهن ومن لا تعرفهن، وانها خانته مرة واحدة، لكن عند عودته الى البيت تمشي على اطراف اصابعها، وتبتسم أثناء صمته حتى لا تكدره، ومن ثم تعوقه عن الوصول الى الفكرة وازاء لا مبالاته اتخذت قرارا خطيرا، بعد ان يصل الى السر بعد

وقوفها الى جواره لحظة، تسلم الجائزة، وبعد نشر صورتها، ستطلب الطلاق، نعم.. الطـــلاق، وستنزوي في صمت، مؤثرة البعد عن الاضواء بعد ان رافقته خلال اصعب المراحل التي سبقت الاكتشاف ستقول انها ادت دورها، وانها تفضل قضاء بقية ايامها في الظل، ستكتب مذكراتها، لكنها سترفض عروض دور النشر المغربية، لانها لا تريد ان تسبب له أية مضايقة واذا ما انتجوا فيلما عن حياته فسترجوهم ان يحذفوا دورها، لم تسترسل ايثار طويلا مع افكارها واحزانها، فوجئت بانقطاع الارسال التليفزيوني للضاحية، والمذيع يعلن ان ثمة خبرا هاما، ظهر زوجها، فرحت ظنت انه سيعلن الفكرة، لكن يا فرحة ما تمت، طلب مجدي من اهالي الخطط عدم مناداته بلقب الدكتور، ان هذا لا يثير الفخر في نفسه بعد الانجازات التي تمت، انه يشعر بخجل لانه سافر على نفقته الخاصة، واضاع سنوات من عمره لحصوله على الدكتوراه، انه يتذكر بحسرة ايام المذاكرة، والخوف من الحصول على درجة الاستاذية، والتجارب والمعادلات، انه يسأل نفسه، لماذا؟ لماذا؟ انه يتخلى عن هذه السبة، هذه الدكتوراه الملعونة، ولهذا فانه عرضها للبيع، كل ما يرغبه مشتري جيد يدفع بالعملة الصعبة.

القذف المستمر..

.. يذكر عدد قليل من الخطط أحوال الهلالي في ايامه الأخيرة بالضاحية، حبس نفسه في غرفته، أجاب على اتصال واحد تم مع أحد المسئولين في الضاحية النائية، كان يستفسر عن حقيقة وجود بعض المشبوهين، قال الهلالي متعباً ان ذلك مستحيل، لا يوجد شاعر أو روائي أو رسام إلا ومعه ترخيص بمزاولة الموهبة، عندئذ قال المسئول: ولكن اين انفعال الفنون المختلفة بالحدث الخطير الذي تم اخيراً، بيع مجدي رمزي للدكتوراه، أين الشعر؟ أين الرواية؟، أعلن الهلالي حالة الطوارىء، نزلت قوات أمن الخطط، راحوا يستفسرون من كل حامل للترخيص عن سر عدم انفعاله؟ لماذا لم يعبر عن هذه المناسبة السعيدة، ابدى حملة تراخيص الروايات متعددة الأجزاء أسفهم، وقالوا انهم لو سمح لهم بكتابة رواية من جزء واحد لأظهروا العجب العجاب، لكن استيعاب مثل هذا الحدث يحتاج الى وقت، ان الروايات متعددة الأجزاء لا يمكنها ان تعكس الواقع إلا بعد شهر كامل غير منقوص، وقال الشعراء المسجلون انهم انفعلوا وكتبوا، لكن عتاة العجم يشوشون ويسببون ربكة ويمنعون انتاجهم من الوصول الى القاعدة العريضة في الخطط، لكن الهلالي لم يصغ الى هذه الحجج، اصدر تعميماً مكتوباً، ويقال إن مجدى رمزي هو

الذي صاغه - بان الأديب الذي لن يستجيب للحدث لحظة وقوعه سوف تسحب رخصته، في هذه الفترة سرت اشاعات بأن عدداً من الكتاب الموهوبين يعيشون ويكتبون خفية، ولم يتقدموا للحصول على تصاريح، وجرى استفسار حول خالد حسين، وحامت شكوك قوية حوله، وقال الهلالي منهكاً لحدثه انه يعرف هذا الولد، التحق بالدار ثم عمل أولا مع البلش في الاستعلامات، على أية حال سيرصده وسيوليه عنايته، لكن الهلالي لم يعد قادراً على الاستمرار في عمله، وسبب ذلك اضطراب نفسه وحدوث شرود دائم في عقله، وظهور هذيان غريب، اذ كان يردد في اليوم الواحد عدة أسئلة، من هو الهلالي الحقيقي؟ هلالي الشوارع؟ أم هلالي الأسوار، أم هلالي الضاحية، وكلما تذكر البنت الأجنبية حصل له خلط، ورجفة ثم سلسل في المرض، أصيب بداء القذف المستمر، اذ صار يبلغ أوج اللذة وهو جالس بمفرده أو أثناء نومه أو تناوله الطعام، ثم عظم الأمر واستفحل المرض، وضاقت الفواصل الزمنية، حتى نقص وزنه في يوم واحد، وانكمش حجمه الى الثلث، ثم الى السدس، ثم الى الثمن...

الجعران...

.. بعد ان صرح مجدي رمزي بوقوع اخطاء في الفترة

السابقة ثم وعد باصلاحها فوراً بمعاونة مساعده الجديد الذي يظهر في الضاحية لأول مرة، زكريا أبو ستة، وقع أول حادث في المرحلة الجديدة، وتفصيل ذلك ان عاملا متوسط القامة، مكتنز البدن مبتور الذراع، اقترب من مدخل الضاحية الشرقي، أبرز بطاقة تثبت الكشف عليه وخلوه من الموهبة، أوقفه ضابط من قوات أمن الخطط..

ماذا تفعل لو رأيت موكباً رسمياً؟

أقف، واهتف، وأصفق..

الاجابة في حدود المسموح به، لكن حدث شيء غامض، لم يستطع العامل أن يتذكره فيما بعد، شيء جعل الضابط يتقدم منه، يفتشه، يخرج محفظته الجلدية، نقود قليلة، وأوراق قديمة، ومظروف فارغ، وقطعة من خيط، بدأ الضابط أسئلته، لماذا جاء الى الضاحية؟ لماذا يغادرها؟ أين مكان الميلاد؟ ما اسم الأم؟ هل يخفي كتبا؟ اسطوانات؟ أقلام؟ أوراق مطبوعة؟ طوابع بريد قديمة، كروت، هل يحفظ الأماكن المندثرة؟ والأغاني؟ هل يردد الأغاني القديمة؟ والأمثال الشعبية هل يستشهد في أقواله بالحكم والمواعظ؟ ظلت ملامح العامل مقطوع الذراع جامدة، أعاد الضابط تفتيشه، فجأة، انتفض، راح ينظر كالملسوع الى جعران أزرق من حجر اليشب النادر، جعران دقيق الملامح، عليه نقش

بالقلم الغريب، جعران لا يعرفه الآن، أو يحفظ ملامحه، إلا أولئك الذين أفنوا أعمارهم في حب الخطط، والتغني بايامها، وبذل الغالي من أجل معاني مرتبطة بها لا ترى بعين ولا تلمس بيد، ذلك ان الخطط لا زالت عزيزة، قابعة في قلوب كثيرين، لا حصر لهم ولا عد، وإن بدا الأمر غير ذلك، وسبحان محيي العظام وهي رميم، جرت اتصالات، وتبودلت عبارات، وجاء أبو ستة وخلفه المخبر الذي لا يرى في الخطط إلا مصحوبا به، أصر على بقائه برغم زوال الخطر عنه، وإبادة الجماعة المعارضة التي هددته،لكنه رجا العناني ان يدع المخبر يصحبه لأن الناس اعتادت رؤيته خلفه، وسحبه فيه اقلال لقيمته، ربت أبو ستة على كتف العامل مقطوع الذراع، بدا افراز عينيه كثيفاً، ولهجته بطيئة، تهته طالبا من العامل ان يعترف، لكن العامل لم ينطق، حتى انهم لم يعرفوا مهنته على وجه الدقة، وأخيراً اقتادوه الى مكان ما، واعلن ابو ستة عقب خروجه من المقر أن ادارة أمن الخطط وضعته على أول خيط سيقود الى التنظيم الأعجمي الارهابي الذي دأب على انقاذ آثار الخطط، وتعطيل أعمال مصلحة التهريب، وان ثمة تفاصيل خطيرة سيعلنها مجدي رمزي قريباً، وستكشف أبعاد المخطط الاجرامي، خارج المدخل الشرقي، عند أول المسافة المؤدية الى الحي السابع ظهر شخص

هائل الحجم، يرتدي ثياباً متعددة فوق بعضها، قمصان وجلاليب وبالطو، لم يتغير برنق، لكنه ازداد ضخامة، تفرطحت قدماه حتى أصبحتا اضعاف حجم خف الجمل، لم يتخلل المشيب شعره، يتطلع الى ما يبدو من الضاحية الأولى، مساحات الاسفلت الشاسعة، الضاحية التي كانت زهرة الخطط، تحنو على الغريب، وتريح المكدود، وتهدىء لظى الهجر، وتحيي الموات من جميل الذكريات، ظلال أشجارها كانت ترقق الأفئدة الجامدة، يلوح برنق بيديه، يتمايل، يبدو كأنه يقوم بطقوس غامضة، أو رقصة غريبة، لم تعرفها طقوس الخطط، فجأة زعق زعقة أرجفت عدداً من الناس تصادف وقوفهم عند المداخل، جئير غاضب، مثقل باللوم والأسى:

يا ناس.. يا ناس.. يا ناس..

الحي السابع..

.. مساحاته شاسعة، ومناطقه عديدة، وخيراته بلا حصر فيه أكبر كثافة سكانية في الخطط، يتخلله النهر الرئيسي يحفه الجبل الشرقي أعلى مرتفعات الخطط، في الزمن القديم كان لونه أحمر بسبب ما يبطنه من خام الحديد، بعد بيعه الى شركة استثمارية أجنبية، تغير، أصبح حائلا، لا يمكن تحديده أهو بني يميل الى قتامة؟ أو أصفر به شوائب بنفسجية؟ استغرق نهب الشركة له سبع سنوات، في آخر يوم منها انتهى آخر جرام يحتويه من الخام، نفذ ما تبقى من ذهب المناجم العتيقة وفيروز العصور الخوالي، والمصدر الوحيد لحجر اليشب. حدث تغيير في مواضع معينة، لكن لوحظ ان أعلى القمم ارتفاعا راحت تدنو يوميا من الأرض، وعلّل البعض هذه الظاهرة بسبب تحويل جزء كبير من الصحراء القريبة الى مستودع هائل للنفايا الذرية الأوروبية، والأمريكية، لم يتأكد صحة ذلك، لكن المؤكد ان هذه الصحراء خلت تماما من كل حي، أنسي، أو حيواني، أبيدت ثلاث قبائل تمتُّ الى

أصول عرقية غامضة من أهالي الخطط في العصر العتيق، ولم تفارق الصحراء طوال آلاف السنين يضم الحي السابع الأرض المزروعة والتي ضاقت رقعتها الى أقل حد ممكن، جرى اضمحلال الزرع باشراف مباشر من التنوخي واستحق لذلك وسام الفشل من الطبقة الأولى. وهو من أرفع الأوسمة المستحدثة، يضم الحي أيضاً السواقي، والشواديف، وآلات الري القديمة والحديثة، ويضم قصور الضيافة، والممر الجوي الخاص برؤساء الدول الذين يعبرون سماء الخطط، كما يحوي سائر المصالح، والمقرات، والقلاع القديمة، ومواقع خروج الحملات الحربية في الأزمنة المندثرة، والميدان المخصص لاصطفاف موكب رؤية الهلال الرمضاني، وأهلة الشهور الهجرية، ومنصة الاحتفالات، وأكشاك توزيع الخبز، والمواد الغذائية الاستثنائية. ومجموعة الوثائق والملفات..

الشجرة..

.. أول الأحداث التي جرت بعد تولي التنوخي مباشرة جز الأشجار النادرة، شكلت مجموعة من العمال المزودين بالآلات الكهربائية، اجتثوا الباسقات المورقات، تم ذلك بسهولة في المناطق المتطرفة، والطرقات الفرعية، ثم اتجهوا الى مجموعة أشجار يعز وجودها في الدنيا، تم غرسها في العصر

السلطاني الثاني منذ ستمائة عام. العجيب ان اللون الأخضر لا يغيب عنها أبدا. تظل وارفة طوال الفصول الأربعة تلك الخضرة الدائمة حيرت علماء النبات، لكن ما ظل لغزا مستعصيا، شجرة العين، انها تتوسط المجموعة، ضخمة الجذع، معروقة، عند النقطة التي يبدأ منها تفرع الغصون يتدفق ماء صافٍ، عذب، لا مثيل لمذاقه، ينبع من قلب الشجرة، مجهول المصدر، لا يدري انسان من أين يتدفق، أو كيف، أدرك أهالي الخطط مزاياه، وقدراته العجيبة على شفاء الأمراض وتخفيف الأوجاع خاصة حصوات الكلى، تتشابك الفروع وتتداخل الأغصان، وزعم البعض أن جذع شجرة العين يضم حلقات يصعب احصائها، وأن مجموعها يشكل العمر الحقيقي للخطط، في نهاية كل قرن زمني مئوي تتشكل دائرة جديدة، الفروع مسكونة بطيور دقيقة الحجم، طويلة المنقار، متعددة الألوان، امكن احصاء مائة وعشرين درجة من اللون الأحمر فقط في جناحي كل منها، يقال إن هذه الطيور جاءت مع الأشجار من موطنها الأصلي المجهول اذ لا نظير لها في العالم. الطيور لا تفارق الأشجار أبدا، واذا تصادف خروج أحد صغارها أثناء تعلمه الطيران فانه يسقط ميتا، اذا شط أحد كبارها وابتعد لا تقوى جناحاه على حمله، او الضرب في الفراغ، واذا لامس الأرض يرق حجمه ويبهت منظره حتى

يستحيل تحنيطه أو الاحتفاظ به، أحد أثرياء الأغراب أبدى رغبة في الحصول على بعضها، دفع رشاوى هينة لتمكينه من صيدها، جاء بشباك نادرة ومعدات ملونة. لكن راحت جهوده سدى، اذ بمجرد اقتناص احدها يجري ما فصلناه سابقا، وهذا عجيب!

شيء مشابه جرى بالنسبة لماء العين، اذ طمع أحدهم في تحليلها، ومعرفة خواصها، وتعبئتها في زجاجات، وبيعها، قبل أن العين كفت عن التدفق عند الشروع في أخذ العينات، وأفسد ذلك المشروع، وهذا عجيب أيضا..

في الشتاء تجيء الى الخطط أنواع لا حصر لها من البط، والعصافير وسائر أنواع الطيور، بعضها يجيء من القطب الشمالي. وآخر يجيء من القطب الجنوبي، تنتشر في أماكن الدفء لكنها لا تأوي أبدا الى مجموعة الأشجار النادرة، ثمة حكايات قديمة عن طائر أخضر اللون جميل الطلعة، له عينا انسان، يقبع فوق غصن معين متفرع عن شجرة العين، انه الوحيد من نوعه في الكوكب كله، تختص بظهوره الخطط دون غيرها، ويقال أنه لا يفارقها قط، انما يظهر في أوقات معلومة مع بداية الفصول الأربعة، من يقدر له سماع شجوه الغامض فانه يأمن التيه في البر والبحر طوال عمره، ولا يضل طريقه أبدا، ولو كان أخرسا لنطق لتوه ولو عنده صرع لشفي

فورا، يقول عجائز الخطط إن هذا الطائر الفريد بلونه الأخضر وعينيه الآدميتين باق مع الخطط منذ ظهورها في الدنيا، والى يوم معلوم عنده وحده في علاه، وان سكن للخطط فيه خير وبركة يسمع صوته في الليالي المقمرة والليالي الممطرة، وقد يرى ظله منعكسا على النجوم، جرت أربع محاولات لجزّ هذه الأشجار ولسبب ما لم تنجح أحيطت بسياج حديدي، وشددت الحراسات، أرجىء أمر المجموعة النادرة الى حين، وبدأوا بالحديقة القديمة..، انها اقدم حدائق الخطط، انشأها أمير في العصر الذهبي البعيد، أجرى الماء في قنوات متشابكة، ورتب مصادره ترتيباً محكماً بحيث تتدفق المياه وفقا لحيل خفية طوال ساعات الليل والنهار، ويشعر الماشي في ممراتها كأنه يخطو فوق الماء، فيما تلى ذلك من عهود جرى تقليد، بمجرد تولي السلاطين مقاليد الحكم يسارعون باضافة منشأ جديد الى الحديقة، بطل ذلك مع زوال العصر السلطاني، ثم بدأ تدهور الحديقة في العهد الجمهوري الأول، عندما أزيلت أكشاك الموسيقى التي اعتاد الناس التوجه إليها صباح الجمع والآحاد، للاستماع الى موسيقى البوليس، والمطافىء، والفرق الزائرة، ولى هذا وراح كأنه لم يكن، وأصبح ذكريات مبهمة، بعد أن كان ملأ العيون والمهج، وسبحان مغير كل شيء، ومفني كل جديد، له الأول وله

الآخر، وهو من قبل ومن بعد، وما عداه عدم، الرحمة يا عالما بسر الزمن، من أين يأتي؟ والى أين يمضي؟ ولماذا كان الأمس؟ ولماذا سيولد الغد؟ ولماذا تفنى اللحظة الجميلة؟ يا مالكاً توحد، ولت أيام الخطط الجميلة، لنا التمني، ولك المشيئة والنفاذ. شطرت الحديقة بعد أن مدت خطوط الترام، ثم أزيلت في العهد الجمهوري الثاني، ثم أعيد الترام مع الحركة التصحيحية التي تخللت العهد الثالث، ثم اختفى تماما منذ عهد ليس ببعيد، وصاحب هذا كله هدم، وتشويه للحديقة أحاطها التنوخي بسور حجري، ردم قنوات المياه المتبقية، لم تستطع أنواع الزهور النادرة البقاء. ثم ظهرت أنواع أكثر غلظة، تشبه الزهور التي تنمو فوق المقابر، وقيل ان الحديقة ترثي نفسها، وتلد ورود العزاء، ثم جاء رجل متمدد الجنسيات، بدأ مشروعا لتجريف الحديقة، استمر العمل ليلا ونهارا لمدة أربعة وعشرين شهرا. تم نقل طين خصب يكفي لزراعة مائة ألف فدان صحراوية، وقيل إن عمق التربة الخصبة بلغ سبعة كيلو مترات، مما أدهش هذا المستثمر متعدد الجنسيات، وعد هذه الصفقة فرصة عمره. وتمنى التنوخي لو انه طلب عمولة أكثر مما حصل عليها لكن القضاء نفذ، تحول الطين الى طوب أحمر، وطوب أبيض، وطوب عازل للحرارة، والى مواد أخرى، ونقل جزء عظيم منه الى بلاد

بعيدة لزراعة أرضها الجرداء. بعد الفراغ من الحديقة عادوا مرة أخرى الى مجموعة الأشجار النادرة مع الضربة الأولى سمع العمال صوتا شاكيا، مجهول المصدر، يحوي الألم الثاقب، يخرج من بين الصلب والترائب، ألم ليس بأرضي أو سماوي، مألوف لكنه غريب، أنثوي الشجن لكنه خشن، تذكر العمال ما جرى لبعض زملائهم في الضاحية الأولى، أشيع بينهم أن الطائر الأخضر من طيور الجنة، وانه مبعوث ليتقصى ظهور كل من أرادوا الخطط بشر، وتردد ان الطائر يسح دمعا من مقلتيه الآدميتين، وأن ماء العين أدركته ملوحة، أدى هذا كله الى ابتعاد العمال الخططيين، برغم احتياجهم، وضيق أموالهم، حتى رجال المناني ارتبكوا، مع أنهم يحملون أقسى القلوب وأغلظ الأكباد، ويتقاضون مكافآت تشجيعية تعرف بمكافآت القسوة، أدى ذلك الى الاستعانة بعمال آسيويين. كان اجتثاث الأشجار النادرة وعرا، بدت جذوعها وكأنها قدت من صوان أو حديد، جرى اقتلاع شجرة كل أسبوع، تزايد الأنين، في الليل تردد عبر الحي السابع كله. ثم تجاوزه الى سائر الخطط، ثم تردد في الفراغ الكوني خارج الكوكب، ورصدت اصداؤه بين المجرات، قيل أنه غضب الطائر الأخضر، انها أرواح الموتى الذين يستظلون برائحة الأشجار همس العجائز: انه باطن الأرض يتوجع اذ يبقر، ينادي وما

من مضى، وقلن، ليقعن في الخطط هول عظيم، تذكرن الأطفال اثناء لعبهم، اذ يقع احدهم يقلن له، اسم الله عليك، وعلى اختك الأحسن منك لكل انسان في الخطط شقيقة تعيش تحت الأرض اذ يقوم تغفو اذ يغفو، تتألم لحظة الألم، تفرح لحظة الفرح، لم تمض أيام عديدة حتى جرى العجب الذي لم يسمع بمثيله ابدا. امكن إزالة كافة الأشجار النادرة، عدا شجرة العين، حدث تطور عجيب استطالت الى حد لا يمكن معه رؤية شواشيها، أو أطرافها، أو ذوائبها. كان الجذع يخترق السحب المنخفضة والمرتفعة فشلت المعاول الكهربائية في النيل منها، وعندما نجح سلاح آلي في الغوص عدة سنتيمترات شعر العاملون بشيء خارق، كانت الشجرة تمتد، تنمو الى اعلى، توقفت مياه العين عن التدفق تماما. لكن الشجرة تجاوزت مدى الرؤية أصبح أصلها ثابتاً وفرعها في السماء..

منطقة التنوخي..

.. لم تهن عزيمته، لم يتردد عند أي فسوق، أو كذب، لم يرث لأي زمن جميل مضى، ولم يأس للحظة حلوة ولت، ولم يرعشه نغم، ولم ترد صورة واحد من أهله على مخيلته، قدت ملامحه من صخر، اجتث الأشجار المتفرقة، انهى وجود النخيل، أجهز على الحب والنوى، أباد الصفصافات،

والجازورينا، والاكاسيا، والكافور، والجميز، محا الظلال، والسواقي، والشواديف، وباعها جميعها بأبخس الاثمان إلى متحف متخصص في تاريخ الآلات الزراعية، قطع جاذرة الخمائل ،والتعريشات، في زمنه شح الريف الجميل، وقل بيض الدجاج الى النصف، وأصيبت المواشي بعقم أصيل، لم يتخمر أي عجين، صار الناس يأكلون الخبز عجيناً مسلوقاً، لم تتأجج نيران، ولم يتكون وش اللبن، قاسى الفلاحون ما لا خير فيه، وعانوا هجاجاً فظيعاً، وطفشوا خارج الخطط، اهملت القناطر والسدود، وسنفصل ذلك عند الحديث عما جرى للخزان الكبير، عرف عنه حبه وولعه بتقويض الجسور، الصغيرة المصنوعة من جذوع النخيل، أو المحمولة فوق دعائم الإسمنت والحديد، اتخذ مقره في قاب الحي، استقر في الغرفة الدائرية الشهيرة، طريقه اليها طويل، وعر، مر بمراحل عديدة، أثبت خلالها انحطاطه وتدنيه. برهن على خساسته وضعة أصله، وعدم اخلاصه لأي إنسان، صحيح أن هناك شخصيات في الخطط أشد قسوة، واكثر قدرة على ارتكاب المعاصي لكن لدى كل منها جانب هين، لين، في النادر يبدو، ومعظم الوقت يختفي، خلا التنوخي من أية بارقة، لهذا.. يقال إن الاستاذ كان مبهورا به، اعتبره البذرة المناسبة للسبخة العطنة، لم تسجل سيرته أية لمحة تعاطف مع

إنسان أو حيوان، لم تطوه لحظة حانية، حتى الجنس إن لم يقترن بشر كثيف فلا لذة تصحبه أو متعة. بعد سيطرته على الحي السابع المكتظ لم ينقطع عن عاداته، كأن يدير ارقام التليفون كيفما اتفق، يحدث اصواتا فاضحة أو يتفوه بالفاظ قبيحة جدا، أو يمشي في الطرقات النائية، الهادئة، عند اقتراب امرأة أو طفل يكشف ما خفي منه، لم يكن بمنأى عن الشذوذ، كاد أن يقتل عندما صاحب عدداً من العاطلين والبلطجية وأرباب السوابق، منهم من تولى مناصب هامة فيما بعد، من وقائعه التي لا تنسى ما قام به عقب اختفاء الاستاذ في الشوارع والاسوار، نشر الاشاعات المتقنة ضده، بل قدم أدلة تثبت تعامل الأستاذ مع الأعداء، وتؤكد أنه سلم اليهم اسرار المواقع الدفاعية البحرية، وكان التعامل معهم يدفع الى المشنقة وقتئذ، وهذا بعكس ما صارت اليه الأحوال فيما بعد، وسبحان مبدل الأوضاع في تلك الخطط، أشيع يومئذ ان الأستاذ اعتقل، وان التنوخي حضر عمليات التعذيب بنفسه، بل شارك فيها، ولم يثبت صحة ذلك. في بداية العهد الجمهوري الرابع رد الاعتبار الى الأستاذ. حوكم من أدانه، ومن شنع ضده عدا التنوخي وطورد كل من ألحق الأذى بسمعته، عدا التنوخي، واعتبر المؤرخون الرسميون فترة الاتهام بالتجسس من مراحل الجهاد، وكتب الدكتور عبد

العظيم السوافيري مؤلفا صغيرا حول أيام المعتقل، مع انه لم يثبت بالدليل القاطع سجن الأستاذ أو تعذيبه. بل انه لم يظهر أبدا طوال حدوث هذه التقلبات، وقيل انه مقيم في الضاحية النائية، وانه يتجول سرا في الخطط، وتردد انه غير راض عما يجري، وانه كتب منشورا سريا يقول فيه انه لم يهدف الى حدوث ما حدث في الضواحي، لم يمنع ذلك الروائيون المتمدون، - والحائزون على تراخيص من الضاحية الأولى، - من كتابة عدة روايات حول الأيام التي قضاها الأستاذ في السجن، درست سيرته لتلاميذ الصف الأول، واعتبر تجسسه مثالا يجب ان يحتذى. وحلل الأطباء النفسيون صوره، واعتبر اليوم الذي جند فيه الأستاذ جاسوسا من اعياد الخطط العامة، وقرر تعطيل المصالح والدوائر في الحي السابع، وفي أول احتفال بالعيد قال التنوخي في احتفال مهيب حلقت خلاله عدة طائرات عمودية، انه لم تعد هناك اسرار في الخطط، ارسى حجر الأساس لمؤسسة افشاء الأسرار، وأعلن ان العناني سيتولى ادارتها الى جانب مهامه الأخرى. ثم ازاح الستار عن تمثال نصفي للأستاذ..

اسرار الخطط ومكوناتها..

.. جرى كل شيء بحسبان، وسبحان من ليس له ثان، ساءت هذه المؤسسة في وقت انكشفت فيه الخطط، وهتك زمانها، وجرح مكنونها، راقت فيه الأحوال لأعدائها، ودنا تمكنهم منها، رخصت ايامها، ونأى ماضيها، وأغبر حاضرها، وأدلهم مستقبلها الآتي، ألطف يا فارج الكرب، يا مبيد النقم، لنا أن نشكو، وعليك التدبير، لنا العمل ولك النتيجة وترتيب الصدف. تركز نشاط هذه المنشأة في بيع الأسرار العامة، والأسرار الخاصة. اختصت الوحدة الأولى بالاسرار السيادية وتشمل الأمور الدفاعية، وتنتهي بالصحية، تركز عملها باتجاه الخارج، استثنى عدد من اثرياء الخطط الجدد الذين رغبوا في الاطلاع على الأرقام الحقيقية لديون الخطط، والنبوءات العلمية التي تحدد استهلاك الأهالي من اللحوم والخبز في مطلع القرن. وعدد صواري الأعلام الرسمية والشعبية، وعدد الزوار الأجانب على امتداد خمسة أعوام مضت، وعدد اغطية البالوعات في جميع انحاء الخطط، ومقدار قناطير القطن المنتجة منذ دخول هذا النبات الى الخطط، أحصت المؤسسة كافة انواع الأسرار، اتضح ان ما

يخص الادارات والأجهزة سبعة مليارات، أما ما يتعلق بالخلق فلا حصر له، جرى التصنيف وترتيب الأرشيف والكشف عن القوائم، وخبايا الملفات، تم استثناء عدد من الأسرار الهامة وضعت تحت تصرف الشخصيات الرئيسية واهالي الضاحية النائية. استبعدت الأسرار التي لا معنى لها، والتي لن تباع بمال، انما تحتاج الى إنفاق لا طائل منه لكشف الحجب عنها، ومنها، سر تحنيط المومياءات، واحتفاظ المقابر بالألوان الزاهية بعد آلاف الأعوام، وسر تفتح الزهور في لحظة معينة، وسر حفاظ الطيور المهاجرة على اتجاهها منذ الأزل في زمان معلوم، وتوقيت مقدر، وسر الموت المفاجىء. وسر اللحظة التي يندفع فيها المولود الى خارج الرحم، وسر زرقة السماء بالنهار وسوادها في الليل. وسر تبدد الذكريات الجميلة، والذكريات الحزنة.

أما الوحدة الثانية فاختصت ببيع الأسرار المحلية، والخاصة، مثل الخيانات الزوجية، والفتن الصغيرة، وبدا إقبال الأجانب ضئيلا على هذا النوع، كما أنها لم تدر دخلا ذو قيمة لأن التعامل فيها جرى بالعملة المحلية للخطط التي فقدت قوتها بعد حروب المشارف، وجهد الدمياطي المنظم لهز هيبة الدينار الخططي. زعموا ان الأستاذ ارتاح الى نشاط المؤسسة، وأوصى بمطاردة أي انسان يحتفظ بأي سر عام، او

خاص كبير أو ضئيل، وطالب بسن قانون يعاقب على التفكير الصامت، او الاستغراق في الوحدة إلا لمدة محددة، أو كتابة المذكرات الخاصة، أو الاحتفاظ برسائل الغرام في مكان أمين، أو إغلاق مظروف على وصية، عند هذه النقطة قال الأستاذ ايضا ان إعادة الأوضاع الى ما كانت عليه يقتضي سلسلة من خوارق الطبيعة، ومفارقات القدر، وقلب البناء كله، وطمس المعالم الثابتة، باختصار يحتاج الى خطط غير الخطط، غير أن ما جرى بعد حدوث الزلزال والسيول اذهل كل لبيب.. وتفصيل ذلك فيما يلي...

مطلب في الزلزال والسيول..

.. اعلم ان الخطط لم تعرف الكوارث الطبيعية على امتدادا تاريخها لم ترسل سماؤها الصواعق، او الأمطار الغزيرة، ولم تتعرض للزلازل المدمرة، وكان نهرها الوحيد حانيا فلم يأت إليها بالدمار أبدا، هل تتغير الطبيعة مع تبدل الظروف والأحوال؟ لا توجد اجابة قاطعة على مثل هذا السؤال لكن المعايش للواقع في مرحلة الضواحي يلحظ بلا شك ارتفاع حرارة الصيف، واشتداد القيظ، وحدة برد الشتاء، ونزول الثلج عدة مرات متعاقبة، ثم وقوع عدة هزات أرضية خفيفة سجلتها أجهزة المراصد قبل ان تتعطل

وتصدأ ويبطل عملها، حتى وقع هذا الزلزال الكبير الذي لم يسمع بمثيله أبدا من قبل. حلت الكارثة بأحد أقسام الخطط الجنوبية، قعقع باطن الأرض، انفجارات مكتومة في الأعماق ماد كل شيء، انهارت البيوت، نفقت المواشي، جرفت الغلال، فسدت المحاصيل، طفت الثعابين والعقارب وحشرات سامة لم تعرف من قبل، نشرت أخبار الزلزال والسيول طبقا للأسلوب القديم الذي اتبع في المشارف المندثرة، رويت تفاصيل مؤثرة ونشرت صور اطفال غرقى، وعجائز بلا مأوى، ونخيل مقتلع الجذور يطفو فوق الأمواج، بثت الاذاعة بيانا اذيع عدة مرات، ملخصه ان الشخصيات الرئيسية بالخطط يتابعون الموقف ويبدون الاهتمام. اتصل العناني بمجدي رمزي وطلب ادراج اسمه بين الشخصيات المهتمة بالكارثة، ثم طلب الدمياطي ضمه باعتباره مسئولا عن الشئون الاقتصادية واغراق الخطط في الديون، ثم اتصل نجوم سينما، ولاعبو كرة، واصحاب صيدليات معقمة، والوكلاء الوحيدون، وكاتب معتمد مرخص له بمزاولة الموهبة وعند هذا الحد طلب مجدي رمزي دفع رسم معين مقابل اضافة أو اعلان اسم أي شخص يرغب في الظهور كفاعل خير أو مهتم بمصائر الآخرين، ولم يخف التنوخي ضيقه، اتصل بالعناني وأشار الى غرابة الأجزاء، ان مجدي هذا يقلقه، لكن العناني

لم يبد تجاوبا، تحدد يوم لتحرك الوفد الأول، من ناحية أخرى لم يستجب أي انسان لحملة الحث على التبرعات، طرب التنوخي وهش وبش لذلك، ودلل به على قسوة القلوب وتحجرها وانعزال كل انسان عن الآخر، لكن مجدي رمزي اعتبر الظاهرة باعثة على القلق، ربما يخشى الناس اختلاس أموالهم صحيح ان ادارة الحي السابع حققت تدنيا لا مثيل له في مجال الرشوة، وطبقا للمعايير البالية، حسن ان يمتنع الخلق لكن الواقع الجديد يقتضي وصول الناس الى درجة يقدمون فيها نقودهم وهم يعلمون تماما انها لن تصل الى الضحايا، انما ستختلس عن طيب خاطر، ارسلت هيئات دولية معونات غذائية، وبطاطين، وملابس، وخيام، اشرف الدمياطي على استلامها وتخزينها، ثم تصنيفها، تمهيداً لبيعها للمستهلكين، سافر الوفد الى منطقة السيول، إلتُقطت الصور، ثم وزعت على وكالات الأنباء الأجنبية، وازاء النجاح الذي حققه الفوج الأول تم ترتيب عدة رحلات أخرى، بعضها يشمل الاقامة الأولى في فنادق الخمسة نجوم القريبة من موقع الكارثة، والبعض الآخر نصف اقامة فقط، افطار وعشاء، أو افطار وغداء، والتحرك الى منطقة الكارثة في سيارات مكيفة مريحة. ضاق التنوخي بترتيب مجدي رمزي. سعى الى العناني في مقره السري، عدد منجزات الهلالي. كيف اخضع

المواهب وحط من قدر الفنون وقضى على فرص الدراسة الجادة؟ ماذا فعل مجدي رمزي غير بيعه للدكتوراه، لكن هل يغفر له ذلك سفره يوما على نفقته للحصول عليها؟ صحيح انه تنكر لكل ما درسه. كما ان علاقته بزوجته مثالية في انحطاطها، لكن.. ماذا قدم ليطور الواقع الجديد في الخطط؟.، ضحك العناني متسائلا: هل تصور أي انسان قيام رحلات سياحية لزيارة منطقة كوارث؟.. اصبح وجهه جادا فجأة: ان مجدي يقوم بما لا يمكن لغيره القيام به. انه يعرف صفات غير معلنة، يكفي قدرته على مدّ يده واختلاسه لكل ما يقع تحت بصره، يسرق من زوجته، من امه، يتمنى الالتحاق بمعهد النشل الابتدائي الذي انشىء اخيرا، انه يتصيد الأدباء الذين يرغبون في ترخيص مواهبهم ويقرأ اعمالهم، ثم ينشر ما اعجبه موقعا باسمه، انه اول من نبه الى خالد حسين واشتباهه في ممارسته الكتابة سرا، وعدم تقدمه لترخيص قلمه مجدي شاب وامامه زمن طويل سيوغل خلاله في الانحطاط، صمت العناني، ثم قال ضاحكا.. انه لا يخشى على نفسه إلا من مجدي هذا. في هذا اليوم عاد التنوخي الى الغرفة الدائرية وبداخله كمد..

الخزان الكبير..

.. منذ حين وهذا البناء الذي لا مثيل له قائم في الضواحي كالخازوق، انه يذكر الناس بأيام بعيدة كان الحال فيها غير الحال، أولاه الأستاذ اهتماما تقليديا. وحاول النيل منه لكنه لم يستطع لأن الزمان لم يكن مواتيا، غير أن التنوخي تفرغ له أوقاتا غير قليلة في الحي السابع، واعتبره هدفا رئيسيا، جرى تشكيك خفي في تاريخ بنائه. وزمن الشروع فيه، فقيل مرة إنه انجز في العهد الجمهوري الثاني، وذكرت الكتب المدرسية انه شيد في بداية الحركة التصحيحية، أما «الأنباء» فنسبته الى عدة تواريخ مختلفة وبعد ظهور عكارة في مياه الشرب نشر تحليل علمي يشير الى مسئولية الخزان ولأن الأهالي يعتبرونه أضخم ما شيد في الخطط، دأبت الاذاعة على القول بانه سيتم تشييد فندق سياحي يعادل حجم الخزان خمس مرات، أو سيتم افتتاح سوق ضخمة ستستخدم فيها مواد تفوق المستخدمة في الخزان سبع عشرة مرة، ثم قورن بمباني تتكون من عشرين طابقا، ثم جرت المقارنة بكباري خرسانية، تعاظم حقد التنوخي ضد الخزان، لم ينس انه مدحه يوما ولا زال يذكر عبارة «البعد المستقبلي»، كلما لاحت له من ثنايا ذاكرته انتابته سخرية، وأرقه ضيق، وحتى يتخلص من تلك المشاعر الغامضة كان

يقوم ويصيغ بعض الأقاويل والاشاعات الموجهة ضد الخزان القائم اقصى جنوب الخطط، يؤكد الأجانب أنه أصبح جزءاً من تضاريس المنطقة، كأنه ولد في عرض النهر، من المستحيل هدمه أو الانتقاص من حجمه. بل ان أية محاولة للتغيير من وضعه ستؤدي الى اغراق الخطط بمن فيها، في احدى الليالي تزايد حقد التنوخي، سب الخزان بصوت مرتفع، حطم نموذجا قديما من الجبس والخشب، اتصل بالعناني، وقال إن الذين اشتركوا في بناء هذا الخزان ولا زالوا على قيد الحياة يشكلون خميرة كريهة يجب التخلص منها، أبدى العناني دهشته، الأمر مفاجىء، حملة كهذه لا بد من الإعداد لها جيدا، قال التنوخي إن بعضهم معروف، مثل المهندسين الكبار، والصغار، هناك الفنيون، والعمال الذين اشتركوا في البناء ثم عادوا الى قراهم، طلب العناني الموافقة من الضاحية النائية، أبلغها الى التنوخي، وفي نفس الليلة اتصل الممثل الشخصي للملك زوغو ملك البانيا المخلوع وقدم تبرعا من أجل الحملة، بدأ التخطيط بسرعة، تم حصر سجلات الشركات، قوائم الأجور، الايصالات، الكتب الاعلامية المطبوعة وقتئذ، الصحف تمت مراجعة الصور الملتقطة لمواقع العمل، وتحديد الشخصيات، استنفر فرع السطو المنظم بالادارة وخطب رئيسه محمد الزعفراني في رجاله منبها الى

الغنائم التي تنتظرهم، وان العاطل سيؤخذ بالباطل، ظلت أنفاس التنوخي مكروشة من الحقد لمدة سبعة ايام حتى تم اعتقال مائة ألف، إعترف منهم تسعون ألفا بالمشاركة في بناء الخزان أما بعض الذين رحلوا الى الخارج للعمل والمشاركة في بناء خزانات أخرى فقد تم ابلاغ الانتربول بأوصافهم، بدأ تنظيم حملة استنكار الخزان، لأن اقامته عادت على الخطط بمصائب، وقَّع البعض بدون تفكير ورقة تتضمن رغباتهم في العودة السريعة الى عيالهم، أما الذين أبدوا رفضا وترددا فأسمعهم رجال الادارة الألفاظ الغليظة، عزل الرافضون بعضهم مهندسين كانوا شبانا وقت بناء الخزان، وكانت مشاركتهم أول ما قاموا به بعد تخرجهم، وثمة رجال تجاوزوا الستين، أكتافهم عريضة، لا يمكن تقدير أعمارهم، معظمهم رؤساء مواقع عمل، أو ملاحظون، أو فواعلية، وبعض عمال يرتدون الجلابيب من منطقة تقع اقصى جنوب الخطط، وهي المنطقة الوحيدة المستثناة من قرار إلغاء الجلباب باعتباره فولكورا لأن معظم السكان هناك لا يعرفون إلا الجلابيب والعمائم وهم اشداء، معرفون بضراوتهم، واخلاصهم لقيم الزمن القديم، منع دخولهم تماما الى الضواحي، وكانت قوات الادارة تقوم بغارات منتظمة على المناطق الجنوبية لأسر عدد من الرجال الأشداء، ثم ربطهم في الحبال وإلقائهم في مراكب

تقلع بهم الى بلاد قصية وهناك يرغمون على أداء اشق الأعمال، وهذا أمر يطول تفصيله وله موضعه، المؤكد ان ثمة مناطق جنوبية لم تستطع قوات الادارة أسر صبي واحد أو عجوز منها، وقال العارفون بالتواريخ المنسية ان رجال هذه البقاع المجهولة والتي لا تظهر بالخرائط كانوا يشعلون نارا لا تنطفىء كلما ادلهمت الأمور بالخطط، وهذا ثابت، بعض منهم رفض توقيع الاستنكار. قال العناني إن هذه الحملة أظهرت أمورا خطيرة، ان التغيير لم يدرك المناطق النائية، انها تحتوي جذور الخطر، لا زال الناس هناك يقسمون بالشرف، يرفضون الجحود، ويأخذون العهود، ويعطفون على الفقير، ويفتحون ابواب بيوتهم للغرباء، ويتبادلون أطباق الطعام. ويوقظون بعضهم في الفجر لأداء الفريضة، أية مصائب أكثر من تلك؟ أوصى العناني بضرورة اتخاذ اجراءات سريعة لاحتواء هذه الجهات وتدمير قيمها البالية.

في اليوم التالي وقعت مفاجأة، اختفى العمال من ابناء الأطراف الجنوبية، هربوا من اماكن تجميع بناة الخزان الكبير، لم يعثر لهم على أثر كأنهم فص ملح وذاب، قالت الشواهد انهم اتجهوا الى الممرات الجبلية والتي لم تعرف حتى الآن إلا لمهربي المخدرات القدامى، لكن هؤلاء لا يستخدمونها حاليا بعد تنظيم استيراد وزراعة الحشيش والأفيون، اقلعت

الميلوكبترات وحادت اقمار صناعية عن مداراتها، وصل وفد من قصاصي الأثر، وأطلقت كلاب مدربة لكنها لم تستطع الاستمرار لأن المدقات كانت مرشوشة بالفلفل الأسود، استدعى البلشي للبحث عن اية بقايا خلفوها لكنه عجز تماما وهو المعروف عنه هوايته للحفاظ على بقايا الأشياء أو تأملها، اضطرب العناني لأول مرة منذ زمن طويل، حاول التنوخي تخفيف الأمر لكن عبثا. اعلن الزعفراني انه اطلق عصابات السطو المسلحة التابعة له، وانه أباح امامهم جميع المناطق الجنوبية بلا أي استثناء لمدة ثلاثة ايام، لأول مرة تنتهك هذه الأنحاء، لم يجدوا إلا العجائز من النساء والرجال، حلقوا الشوارب واللحى، فضحوا المسنات الهرمات، لم يتركوا الطري أو اليابس، سطوا على الجبن القديم والخبز الجاف، والركائب، والمرابض، وصوامع القمح، أشعلوا النار في عيدان الحطب، وأقراص الجلة، وأجولة الخيش، والدوم الجاف والقصب، ومخطوطات قديمة بقلم غريب، وتماسيح محنطة وتعاويذ وأحجبة، وخمسة وخميسة، وأكواب شاي صغيرة، ومواقد فخارية، ومعاول، وفئوس، ومقاطف، وزنابيل، سرت الأخبار في سائر انحاء الخطط كالماء المتدفقة الى الشراقي، وبدا مجدي رمزي منزعجا، كيف جرى ذلك، مع انه لم يذكر كلمة واحدة بل ان التليفزيون بث فيلما قديما

حول السعادة التي يعيشها الأهالي هناك موحيا انه صور بالأمس، أرهف عتاة العجم حواسهم، ثمة شيء خفي لم تفصح عنه الخطط حتى الآن يوشك ان يتضح وينجلي هل يبدو هذا الكامن، الخفي، على أيدي هؤلاء الأشداء الأميين، ذوي الجلابيب؟ افقدت جذوة الآمال الخبيثة المطمورة، أهي الخطط تفاجىء الدنيا بما لا يمكن توقعه؟ أهي الشرارة تندلع في وقت لا يمكن تصور أية صحوة فيه؟ ماذا يجري؟ كثيرون قالوا ان الخطط ماتت، دانت للشر كله، خلت من أي خير، وان كل شيء انقلب الى نقيضه، وما من امل يرجى الى أبد الآبدين. ونال من الخطط الوضيع والرفيع، وتطاول عليها من في قلوبهم مرض، ولم يروا فيها إلا كل قبيح. هل آن للزمان الجميل ان يعود؟ بعض عتاة العجم نصحوا بعدم التهويل في الأمور واعطاء كل شيء حجمه ما جرى حادث هروب عادي، لكن الشخصيات الرئيسية في الخطط والممسكة بمقاليد الأمور كانت اكثر تقديرا للدلالة والمغزى ابلغ مجدي رمزي ان الهاربين يضمون بين صفوفهم المغني الذي حير الضاحية الأولى طويلا، كما ان الأدلة تؤكد ان المولود الوحيد المتبقي على قيد الحياه من مواليد الشارع الخامس بصحبتهم، لم يفصح مجدي رمزي عن مصدره، ثم سجلت دوريات القتلة المحترفين عدة بلاغات من غناء تردد في الليل الغويط، غناء لا ينبعث

من مذياع، غناء شجي حتى أن كل من سمعه هم بفتح نوافذه، غناء يعتصر مراقد القلوب، ويحرك الأجنة، يرجف الشاعر، يدر الندى الصافي، غناء نسيه الخلق منذ بداية الضواحي يرثي الأيام الحلوة، وايام الجهاد النائية، ويحن الى مواضع البراءة في الخطط، حيث الصورة صورة، والأصل أصل، الغروب غروب والشروق شروق، والسحب في الأعالي، وشذا الطرقات البعيدة يفد الى النواصي. والظلال المسائية التي تبعث الأسى الرقراق، وأطياف الأيام الحلوة التي يحلم بها الخلق ولم يعيشوها. ثم بدأ همس يسري. ثمة قائل يقول ان احدهم دس في يده ورقة تحوي عبارة تمجد الخزان الكبير، وآخر يقول بأنه عثر على خطاب دفع من تحت باب بيته يعدد منافع الخزان، وفي نهايته يطلب كاتبه نسخه مائة مرة وارساله الى الأحباب والأصحاب، ومن يفعل له الثواب، وترددت إشاعات عن وجود نماذج مصغرة للخزان، ثمة شيء خفي لا يبين يسري في أوصال الخطط، استعصى فهمه على أصحاب الشأن، والمحبين، وحير قوات الادارة التي انتشرت عند المنافذ والتقاسيم، خاصة منافذ الخطط المؤدية الى الصحراء الجنوبية، سجلت الادارة اختفاء عدد من اهالي الخطط بل ان منهم بعض الذين لعبوا دورا هاما في الشوارع والاسوار وتبين من الاحصائيات المبدئية ان بينهم شعراء

وقصاصين ورسامين رفضوا التقدم للحصول على تراخيص. وعدد من علماء الآثارالقدامى الذين لم يلتحقوا بمصلحة التهريب، بلغت ذروة الحملة ضد الخزان باعتقال كل من تحمس له، وترددت نكتة تقول إنه سيجري اعتقال كل من ولد زمن بناء الخزان، وأقلق ترديدها مجدي رمزي اذ ان النكت لم تتردد منذ زمن بعيد، وقيل ان الأستاذ ارسل برقية الى العناني، والى التنوخي، من مكانه الخفي، يحذرهما مما هو كائن، وما سيكون..

الخلاوي..

.. تنبىء الظروف السائدة كل ساع الى هذه البقاع بهلاك مبين، وسبحان خالق الحياة من الجماد، ومنبت البذرة من الحجر، صحراء الخطط الجنوبية جهمة، تخلو من السراب، الصحراء الواقعة غرب النهر بحر من رمال ناعمة، لا تتنوع المشاهد فيها مثل الصحراء الجنوبية، في الغرب رمال كالدقيق في مناطق عديدة تشبه البحر لا قرار ولا نهاية صلبة لعمقها، في هذه الصحراء اختفى جيش بأكمله منذ ألف ألف سنة، جيش اجنبي غزا الخطط واخضعها، ثم اقتنع قائده بنبوءة ضارب رمل وقارىء للنجوم حول منجم بكر للذهب لم يعرف أبدا، الذهب فيه لا يحتاج الى جهد لاستخراجه، ظاهر فوق

الأرض تهيب بالناس أن يأخذوه، اتجه الجيش عبر مناطق البدو والحضر، اتبع الطريق الذي رسمه العراف، ولم يرجع جندي واحد، ولم يقف لهم حي على أثر تبدد الجيش كأنه لم يكن، الطائرات لا تحلق فوق هذه الصحراء، لأن معالمها الأرضية معدومة، وما من جهة علمية قامت بدراسة التيارات الهوائية والعواصف التي تهب في أوقات متفاوتة، خلال الحرب الرابعة التي دارت بين الأعداء والخطط اقلعت عشر طائرات مقاتلة للإغارة على الحي السابع، شوهدت الطائرات على شاشات الرادار، واتجهت الى المجال الجوي للصحراء. اختفت النقط البيضاء من شاشات الرادار المستديرة وعبثا حاولت وسائل الرصد اكتشافها، وهذا عجيب، اثناء الحرب الثالثة خرجت دوريات من أهالي الخطط المسلحين لاقامة نقاط انذار متقدمة لكنهم لم يستطيعوا التوغل في الصحراء الجنوبية أو الشرقية لوعورة الصخر، وبروز أسنة حادة، وتكوينات متتالية من حجارة صلدة سوداء أكد المقاتلون ان المنطقة تشكل حصنا طبيعيا نادرا يقي الخطط أي خطر قادم من جهة البحر، أكد علماء الجيولوجيا الذين درسوا صخور القمر والمريخ وحددوا أماكن هبوط المركبات الفضائية استحالة صلاحية االصحراء للحياة، أو لأية اعمال عسكرية، وقالوا ان هذه المنطقة لا مثيل لها في

الكون، وان الخطط انفردت بها دون غيرها، وطلبت الادارة مشورة اكبر مهربي المخدرات القدامى سنا، والذي يعمل حاليا مستشارا لزراعة الأفيون الرسمي، أكد انه طوال عمره لم يسمع عن مهرب اخترق هذا الجزء الجنوبي، ليس لوعورة الخلاوى، انما لوجود حيوانات ضارية اخطرها القط الأرقط، والكباش الضخمة التي يبلغ حجم الواحد منها كالجمل. أما الثعابين فمن اخطر الأنواع، لا.. مستحيل استخدام هذه الصحراء لأي غرض.. لكن تردد ان الأستاذ بعث رسولا الى من يعنيهم الأمر ينبههم ويحذرهم. بدأ الخروج الى الخلاوى فانتبهوا..

« أول من خرج.. وآوى الى كهوف التقية.. »

.. يا خطط، يا جنة خضراء في الزمان القديم، يا رباط الخيل، أدق أبوابك، فلا تنهريني يا خطط، دمعي جرى حتى بلل الأجفان، قسا زمانك على سكانك، وضاقت بهم الأيام والليالي، لكن لك احكام تدور، دموعي ذوارف، وهواي متصدع، ضج بي الرمل والحصى، تعبت من الوجد، فيا عيني جودي بالدموع السفاح، وأملي فيمن رفع السماء بغير عمد، أوقاتك تجيء احيانا بيضاء مزخرفة، وأحيانا تبدو في مثل

عكارة الليل، في ايامك اكلنا الزاد مع السرور والهنا، وفي ايامك عُفْنا الزاد ولو كان حاضرا، آه.. لو تنزاح الشدائد، لكن لكل امر حسبان، بدأ زمن الخروج، والحقيقة ان شواهده لاحت منذ زمن عندما اضمر بعض اشداء العزم، واتفقوا على انقاذ الآثار القديمة من مخازن مصلحة تهريب الآثار والأماكن المعدة للاتجار فيها، وجرى الأمر وفقا لترتيب دقيق، لا داعي للكشفِ عنها حتى لا نضيف عقبة الى العوائق التي تعطل عودة الزمن الجميل، وضعت الآثار في مغارة قديمة تقع في بطن الصحراء الجنوبية، مدخلها يقع على بعد عشرات الأميال، يقع بين شجيرات كثيفة في بقعة نائية، وقال آخرون ان المدخل عبارة عن فوهة فرن، لكن هذا خروج مؤقت، تعقبه عودة، اما الاختفاء من معارك التخلي عن البيت، والمقهى، والأصحاب فله شأن آخر، أول من خرج صاحب الفندق القديم، وزع محتويات سيارته على جهات لا حصر لها. لم يتبق معه إلا لوحة أصلية لتولوز لوتريك، تمثل ثلاث نساء هرمات متقاربات الرؤس في مقهى افرنجي، ساهمات، صامتات، وعلى ملامحهن حزن عظيم لم يصحب إلا هذه اللوحة، وثيابه التي تغطي جسمه، وحذاء قديم، ومقدار هائلا من الذكريات، تمكن من الوصول الى نقطة لم يخط أي انسان بعدها، اذا شرد عندها الجمل لا يشرع صاحبه في

البحث عنه، لم يصغ الى أية تحذيرات كأنه لم يلتق ببشر، نأى عن كل عامر، عزم أمره وأوغل في البعد.

كان مطلوبا فيك يا خطط يا من تبدلت احوالك، ولم تعودي آمنة له في مدنك، فلجأ الى خلواتك، عزَّ عليه الخروج من اسوارك وشوارعك، وضواحيك، لكن إذا ضاق الحال ففيك منأى من الأذى، وفي ترامي أطرافك دار هجرة عز عليه أن يقاسي هجاجا وهو يدنو من الستين، ظن طوال مراحل عمره انه سيلقى في شيخوخته الهدوء وراحة البال، ظن انه عندما يصل اليه سيرمي الحمول الثقيلة يأوي الى دفء صالة الفندق الشتوية، جلوسه المستكن يصغي الى احاديث النزلاء، بعينيه يودع الراحلين ويستقبل القادمين، ولَّت ليالي الهنا والعز يا أسفي، راحت ايام السرور والنشوة الغامضة والفرحة بمجيء صباح جديد، يتبدل كل شيء فيك يا خطط، وما من أمر يبقى على حاله، لن يرى دقيقة الملامح. عندما تجيئه، كان يقبع في مواجهة عذوبتها، يصغي الى رفات رموشها، الى همس عينيها، وتألق انساني عينيها الخضراويين، يبتل قلبه بالرضى تنصرف مجللة بالحنين. لكن لا شيء يخفى أو يضيع فيك يا خطط، هجرته لك لم تبق سرا، رويت سرا حكايات مجهولة المصدر عن خروجه، حكاها من لم يرهم قط، واصغى اليها من لم يسمع بهم، قيل انه

لم يعرف الخلاوى، أو وعورتها، وقسوتها، وحدَّة صخورها، وتنوع وحوشها وأنه أسلم نفسه الى المقادير، وقيل أنه درس كل شبر فيها، وإلا كيف اتجه اليها ولم يول وجهه شطر ناحية اخرى، كيف أوغل بأيامه ولوحة تولوز لوتريك؟. لكن لم يعرف الكثيرون لوقت طويل ان سليمان صحبه، مشى معه رافقه وخس الندى أمامه، وعلَّمه مضغ الحشائش والرقاد فوق الصخر والتفاهم مع النجوم وتحديد الأيام وفسر له أصوات الريـاح والدبيـب الـذي يسري، وكيـف يقصي وحوش الخلاوى، ويتعرف على آثار الزواحف السامة فوق الصخور الملساء. [illegible]مر يصحبه حتى آوى الى أحد كهوف التقية، ثم انصرف عنه، بقي صاحب الفندق وحيدا، حلق الى السماء البادية. في البدء استعاد ايامك الجميلة والزمن المولي وتمنى بصوت عال ان يعود منذ زمن وقلبه يرصد ما يجري، كان إذ يرى أحد الأجانب يردد، غريب.. غريب، كلهم أغراب عن الخطط، حلق الساعات الطوال الى اللوحة التي صيغت ألوانها من أطياف الضوء المتبقي بعد المطر، عاد اليه سليمان، علَّمه كيف يخزن رقته، كيف يعتاد وحشة المكان ثم انصرف مرة ثانية. في كهف التقية استعاد تفاصيل لوحات عشقها حتى اصبح قلبه صالة عرض غير مرئية صيغت من الوهم والذكريات والارتجافات المباغتة، ائتنس بالنساء الثلاث.

صار يومىء اليهن، يشكو ويناجي ويبدو الوحشة، غاب سليمان مقداراً ليس بالهيِّن، لم تغب عنه احوالك، وكان عليه ان يمضي سنتين وحيدا قبل ان يرى الذين هاجروا منك، وإليك، آه يا خطط، يا من تتفتح فيك أبواب وفرجات في وقت يظن سائر الخلق ان المنافذ كلها اغلقت...

كهف التقية الثاني..

.. عجيب أمر الخطط، لا يمضي فيها مصير كما قرر صاحبه، أو كما توقعت النبوءات، لا تتوالى الخطوات كما شاء من يخطو، قالوا فيها ما لا يحصى، قالوا أنها غرورة تبدو لمن فيها عروس بارزة النهود، حلوة الشفتين، وعند الدنو تلوح عجوزا بشعة، فاغرة الفم، قالوا انها كالغازية، ترقص تتفنن وتأسر وبعد أن تنال تولي وتهجر مخلفة الخيبة والأسى، لعنها البعض واتهمها بأن من شأنها الغدر، وانها تبدل الأوضاع فمن يقف في الخلف تدفع به الى الأمام، ومن يقبع في الأعالي تهوي به. سبحانك أنت يا من توزع كؤس المرارة. والفرج، لا شيء يمضي ابدا كما قدر الانسان، وقعت طيور بعد أن حلقت، وامتلأت قلوع بالرياح ثم ابتلعتها البحار الزواخر، لفظت الحيتان وتألقت ثم صادفتها الأسنة والحراب. لو أنبأ عظم العرافين عوف الوتيدي أن مضجعه سيصير هنا لقال!

كذب المنجمون ولو صدقوا. لكن هذا ما صار، وذلك ما جرى، عندما خلف وراءه الضواحي، لم يثق أنه سيمش حتى يرى اليوم التالي. الأرض التي يقدم على ارتيادها مجهولة، لم يسمع بها الناس الا كإسم على الخريطة، لكن ماذا تضم هذه الصحراء، كيف يبدو ليلها، كيف يمضي نهارها؟ لم يعد أمامه ملاذ، سائر المنافذ في الخطط أحكم اغلاقها، ورصد المارين بها، كان الأمر أسهل في الشوارع، من الممكن تهريب أية شخصية الى الخارج، أصبح ذلك مستحيلا الآن بعد ان اعتقلوا ابنه الوحيد ارسل العناني في طلبه ضحك له. ثم خط بقلم أحمر خطوطا ودوائر فوق ورقة بيضاء، ثم قال أنه يتحدث الى زميل عزيز، وقديم: للأسف ان ابنه الوحيد من عتاة المجم، ومن اشد المقاومين للحملة الجارية ضد الخزان...، توقف العناني ليرى وقع المفاجأة، صمت الوتيدي، احتدت نظرات العناني ولهجته، قال انه لا يظهر امام أية شخصية، لكن الأمر يختلف مع زميل قديم أنقذ الدار من مخاطر لا حصر لها، لن ينسى يوم ان رمى بنفسه في النيران ليطفىء الحريق الذي اشتعل فيها، انه لا يطلب منه إلا ممارسة سلطان الأب على الولد. الولد شرس جدا، يجهل الظروف انه معاد للخطط، ينتمي الى جيل جديد من المجم، المطلوب أن يذكر بنفسه، بلسانه، اسماء الثلاثة الذين

كان يلتقي بهم في الحي السابع، ان اسماءهم معروفة للادارة بل سيقول أكثر من ذلك انهم مجاورون له في الزنزانات الأخرى، لكن شرط الافراج عنه. واجتيازه السجن المركزي للخطط الى الحرية هو نطقه باسمائهم. قام الوتيدي متهدل الكتفين نظر الي ابنه وكأنه يراه لأول مرة كان حليقا، مجزوز الشعر، للمرة الأولى داخل الزنزانة الصماء يلحظ الوتيدي ان عيني ابنه نسخة رجولية من عيني اثيل التي ذهبت في الخطط الواسعة، بعد أن افضى بما عنده، نظر اليه ابنه، قال بهدوء..

عيب يا بابا..

عندما فارق السجن ادرك انهم لن يدعوه في حاله، وان حياته لن تمضي كما كانت، ومنذ متى سارت حياته كما يرجو ويتمنى؟ طوال عمره في الخطط مَلْطشة، كان يخاف العودة الى الملعب، وجريه وراء الرزق لكنه تحمل ما هو ألعن، الزواج لم يذق له طعما، طوال عيشها معه كانت تدير ظهرها. تبدو جامدة اذا واجهته، واذا تشاجرا تقول له انه قبض ألف جنيه، كم اتخذ من القرارات ولم ينفذ؟ كم مرة اشتهى ولم يفعل؟ بعد تخرج الولد من المرحلة المتوسطة قالت اثناء تناولها الشاي انها ستذهب وضعت امامه مفاتيح الشقة والدولاب وآخر ايصال ايجار وبوليصة تأمين على حياة ابنها وبعض

المظاريف، قالت أنها لا تريد منه أي شيء، فيما بعد كان يردد في حديثه «بعد ان ذهبت عملت لابني أب وأم»، تذكر كثيراً الجعيدي وترحم عليه، مات لحظة ان رأى ابنته في نفس السرير الذي رقدت عليه امها. وكان الرجلان في كل المرتين غريبين عنه. لم ترهقه إلا أيام الاجازات، كان يصحب الولد ويلوذ به الى أي متحف أو حديقة أو مقهى، مع تقلب العهود وتوالي المسافات، لم يعبأ به أحد في الدار، في المشارف نشبت الحرب الرابعة، وهاجم الأعداء بضراوة، قالوا فلنرسل الوتيدي، أوصاهم بالولد، وذهب ببساطة، طوال حياته لم يسمع طلقة مدفع، أو انقضاض طائرة، لم ير الدم لحظة تفجره، لكنه قام بالواجب، وصف ما لم يصفه احد، تعاقبت الرؤس على الدار، وتولى الهلالي ضاحية بأكملها واصبح ذكر اسم العناني يبعث الرهبة ولم يسأل انسان عنه، ولم يعبأ أحد به، ولم يستدعه مسئول الى اجتماع ظهرت شخصيات جديدة في الخطط، تقدمته وأصبحت أهم منه، وتوارى بعيداً، تحمل من أجل الولد، لكن أن ينهره ابنه هكذا، ان يسدد اليه طلقه متفجرة، تتناثر شظاياها داخله، ناءت الخطط كلها فوقه، لأول مرة يشعر بأن الولد يفلت منه، يبتعد عنه، بل ان ما بينهما بتر، أفاق الى ما يدور حوله، ليس هناك من يصغي اليه، أما قلبه الذي ظل حتى الآن جلودا

على البلايا فخف وأدركه وهن، حن الى امه، الى اصغائها، الى قصها أخبار البيت، من تزوج، من تشاجر، من رحل، بدت أمه بعيدة، كأنها لم توجد أبدا، ضاق بافتقاده لها، بما يقرأه، بما يسمعه ضاق بلافتات الحملات المتوالية، بالاحاديث المتكررة عن نسيان ما جرى في الماضي من حروب، ضرورة التخلي عن العقد القديمة، خطب احدهم في الضاحية الأولى قائلا ان الخطط لا تحوي الماضي بالمعنى المفهوم، انه يتشكل في أية لحظة طبقا للمرحلة الآتية. والفائدة المرتجاة ضاق بالأغراب منذ خروجه من السجن المركزي بعد مقابلة الولد، لم يذهب الى الأبناء، لف طويلا لم يجد مكانا يأوي اليه، ولى زمان المقاهي بعد تطهير الخطط منها، ومحو البارات، وأي مكان يأتنس فيه الانسان بالانسان، شنت حملات ضد الونسة، والإلفة، والدعة، وأية خلوة بين اثنين، واعتبر ذلك خطوة في سبيل خفقي الطموحات، انتبه الى حملات التشهير التي لا تتوقف. رجل اسمر تجاوز الستين كان عاملاً في بار قديم مبني من الخشب، مناضده مثبتة الى الأرض، كان يسمى بين الرواد باسم العينين، يسامرهم حتى يوغل الليل، يطبطب على هذا، ويكفكف دموع ذاك ويصغي الى الشكوى، كان افضل من يستمع الى الآخرين في الخطط كلها، وتلك جريمته، أشهروه فوق عربة جيب، جرسوه في الضاحية الأولى، والحي

السابع، واتهم بانه يشغل الخلق، العجيب ان الرجل لم يتخل عن بشاشته وكأن ملامحه صيغت من ابتسامة، أبدية، «عيب يا بابا»، كان يريد لابنه ان ينخ كما مال هو، لا.. لم تعد الضواحي ملائمة له، ضاق عليه جلده، امتلأ قلبه من كئوس المرارة، تبدد عمره في الخطط، نضح ماعون الزاد بما يحتويه وفرغ، قيده البين بسبعة قيود، ثلاثة للولد، واثنان لآثيل، وواحد للأحباب، وآخر للزمن المر، لكنه برغم هذه القيود حول، جلود، مالت عليه الخطط، يا ضيعة أيامه التي لن تعود، انتفض على رأسه، لم يعبأ بما تركه خلفه، قطع الحي السابع كله على قدميه في ستة وعشرين يوما، حتى وصل الى درب غير مطروق عند الأطراف الجنوبية، رأى السحالى والحيات، أوغل في الجبل، مضى يوم، وثاني، وثالث، ورابع، اجتاز صخرا موجعاً، في صباح اليوم السادس عثر على نبع ماء غريب عجيب، بروز خفيف في الجبل ينتهي بثقب مستدير يتدفق منه ماء صافٍ كأنه الواحة، شرب، ارتوى، تتبع مسار الماء، آوى الى مربع غائر في الصخر، استعاد قوته القديمة. بل ان عضلاته تصلبت ونمت نمواً عجيبا، انتابه كره تجاه الأستاذ. التنوخي والعناني، حدث نفسه بصوت مسموع، اين كنت واين كانوا؟ في العصارى الموحشة يزيد به الحنين الى الولد، بل انه يحن الى آثيل، كانت طيبة على اية حال، يرجو

لها التوفيق، وهدوء البال، والبعد عن الصعاب اينما كانت يتساءل: أما من وسيلة لتبدل هذه الخطط ليعيش فيها كل حي كما يشاء، لماذا فعلوا به ما فعلوا؟ لماذا دفعوه يو ا الى ايذاء عجوز عرف فيما بعد انها أمُّ الخضر الذي زجوا به الى السجن، لماذا لا يمضي كل شيء الى الأحسن مع ان الفرصة في الخطط لا تتكرر؟ ارتاح الى وحدته، لأول مرة يخلو الى روحه، الى نفسه، بعد ان راوغها وحاد عنها وحجبها عن وجوده وتجاهل انات ضميره، ان قواه تتزايد يوما إثر الآخر حتى اصبح قادرا على تحريك صخرة ثقيلة قريبة ليسد بها مدخل الكهف اذ ينام، تمنى ألا يدلي نادر بأسماء أصحابه الثلاثة أبدا، حتى لو انقطع امتداده الوحيد في هذه الخطط الى الأبد..

كهف التقية الثالث بمنطقة الخلاوي...

.. هل تتبدل الخطط وتصبح خلاف الخطط؟ صحيح ان كل شيء يجري بحسبان، ولكن تؤكد كافة الشواهد، كل شموس الأدلة ان ذلك ممكن لو شاء الانسان، سبحانك يا من تحض خلقك على السعي، واذا بدأوا فانت تعضدهم وتساعدهم، عندما وصل خالد إلى كهف التقية الثالث رأى صخوراً سوداء، ذات أشكال آدمية، أوضاع التأمل التي

تسبق الحركة، آخرون سبقوه الى الخلاوي، لكنهم سخطوا انفسهم الى حجارة، حتى تعود الأحوال الى رونقها القديم عندئذ يرجعون الى هيئتهم الآدمية. تبطىء الرياح وتسرع، تحتك بجواف الصخور، تنفذ عبر الفجوات، في الليالي السوداء تتردد انفجارات مكتومة كونية الأصداء، في الليل يأوي الى باطن الكهف محتمياً من الصيرورة والتوالي، وأطياف الأيام البعيدة التي لا يمكن استرجاعها، في الصباح تسرع دقات قلبه وكأنه أفلت من خطر، يتجول، يرى، ينزح الماء المتجمع في النقر، أما أوعر ساعات التقية فتجيىء مع العصارى حيث تتوالى الصور والروائح وشظايا عبارات قيلت منذ زمن، وملمس الهواء البارد عند نواصي بعينيها، ومرور نساء لا يعرفهن، كان وقتئذ لا يستطيع دفع الأوجاع، والحنين الموجع، جاءته تفاصيل مرت به منذ زمن ولم يكتشفها إلا هنا، استعاد ملامح امه، وصبرها الدؤب على الأيام. قعدتها عند إعداد الغداء، تقلي البصل وعلى ملامحها جدية وراحة لانها تعد الزفر لولديها وللرجل الذي سيرجع متعباً، متابعته للون البصل الذي يميل الى احرار، على الطبلية ينتظر أبوه عندما يوزع اللحم، يرقب اسماعيل بطرف عينه، هل سيأخذ مقداراً أكثر منه؟ أي أمان في الليالي التي يكتمل فيها العشاء، يتمدد بجوار اسماعيل، يصغيان الى همهمات الأب

والأم، ثم يغفوان، طمأنينة راح زمانها الى أبد الآبدين، تبرق ذكرى نائية مستخلصة، جدته لأمه، وشم جبهتها الأخضر، والرداء الأسود الفضفاض، مشيها خلال حقول الذرة، هو يمسك يدها، فجأة تضيع في الفضاء المعبق برائحة التين العسلية وتدلي عناقيد العنب ومذاق الدقيق الأبيض وصوت ماكينات الطحين الحزين المنبيء القاسي، كانت امه فوق سطح البيت تشم الهواء عندما جاء والده على غير عادته، بدا مكروباً، لا يجيد اخفاء السر، حاول ان يخفف لكنها أدركت ما جرى. لم تصرخ، ولم تتلق عزاء لانها لم تخبر احد الجيران، صبغت وجهها بالنيلة الزرقاء، وجلست القرفصاء في ركن السطح تحت ظل الخشبة التي تشد اليها حبال الغسيل، لم تتحرك لمدة ثلاثة أيام لم تكف خلالها عن مسح الدمع ولم تشح لحظة واحدة. يعاوده اهتزاز جسدها المكتوم ونحيبها الخافت الملتاع الملوع، ثم قامت في الصباح الرابع نفضت البيت وطبخت وغسلت، عندما سافر اسماعيل الى خارج الخطط للمرة الثانية، وازداد صداعها، وجفاف ريقها وتضاعف الأسى في عينيها وارتفعت نسبة التحليل قالت ان ما جرى سيجري، ماتت امي وأنا بعيدة، لم أر اغماضتها الأخيرة ولم أسبل جفنيها، وها هو اسماعيل موغل في بعاده وانا موغلة في المرض، انا في النازل، سأموت ولن أراه، وهذا ما كان، اين

هي الآن؟، وأي معنى لهذه الخطط إذا كان الأحبة يرحلون ولا يمكن استعادة حتى مذاق صوتهم، لا يتبقى منهم إلا الثوى، ينقبض قلبه، يطبق الكهف على أنفاسه، حتى يود لو جاب الخطط املا في رؤيتها، من يدري، ربما يوجد مكان في هذه الخلاوي يتجمع فيه من رحلوا الى أبد الآبدين، ربما يوجد فراغ تأوي إليه كل الأصوات الملفوظة، يمكنه إستعادة نبرات الأحبة، بعد خروجه من السجن للمرة الثانية عبثاً حاول الاستفسار عن والده، كان التحول قد بدأ، والجار يخشى تقديم المساعدة الى جاره، كل انسان صار يخشى على نفسه، بصعوبة عرف ان والده شوهد يتسول حول ضريح ولي من أولياء الخطط السبعة، كان مهدلا في ثيابه، كليل البصر، مرتجفاً بعد ان فصلوه لانتماء أحد ولديه الى المعجم، تلاشى في الخطط، هذه الخطط الفسيحة، الشاسعة، التي تبتلع كل عزيز وغال، سمع عن رجل عجوز كان يركب قطار الجنوب المزدحم، يعدد الأولياء الذين تتبرك بهم الخطط، ويذكر ترتيب زيارتهم طبقاً لأهميتهم، وما يتميز به كل منهم، أهو؟.. من يدري؟ لو ان اسماعيل يتنفس هواء الخطط حتى الآن. يتمنى لو ان الخطط اتاحت لهما الطفولة من جديد، لم يعرف شقيقه إلا بعد تقدم المسافات وعبور الميدان، وابتعاد كل منهما عن الآخر، كانا شقيقين بلا صداقة، لكل منهما

أصحابه واحبابه، اختلفت المصائر، واتخذت الرغبات مقاصد غير المقاصد، إلتحق بالأنباء، ضيق البلشي عليه، استقصى التنوخي احواله، محاولته النفاذ إلى ما يبطنه، ألحقه بعدة أقسام، ضغط عليه، كان يعمل في اليوم الواحد عشرين ساعة، يخرج من الدار مرتجف الساقين، كان يحاول اقتناص نصف ساعة أو ساعة ليقرأ، استجوبه التنوخي مراراً، هل يكتب الشعر؟ هل يكتب القصة؟ هل يهوى الأدب؟. في هذه الفترة أتم اسماعيل دراسته العليا، كان متفوقاً باستمرار، كان هادئاً وذو جلد، ينكب الساعات الطوال حتى يهوى دماغه على صدره فترجوه امه ان يقوم لينام. متى بدءا يقتربان من بعضهما؟ ربما قبل إلغاء الدراسات العليا من الجامعة؟ في هذه السنة استدعي اسماعيل الى الادارة، سأله احدهم عن جدوى الاستمرار في بحثه؟ هل سيكفيه المرتب؟ واذا وجد الجامعة التي ترعى ابحاثه فماذا سيعود عليه والأوضاع كلها ماضية الى انقلاب، الاجانب الذين عرفوا اصول العلم الحقيقية هم الذين سيقيمون ويشيدون. أما الأهالي فسينفذون، قال اسماعيل كلاماً قديماً عن الدواء الذي أصبح على وشك الوصول إليه، والذي سيقضي تماماً على البلهارسيا، لكن الرجل سأل متهكماً، ومن قال اننا نريد القضاء على البلهارسيا؟ عاد اسماعيل مفزوعاً، كان الاستدعاء مباغتاً، في المرة الثالثة ضربوا له

مثلا بمجدي رمزي الذي تخلى راضياً عن الدرجة العلمية التي حصل عليها، في هذه الفترة اعتقل خالد. حبسوه في زنزانة ضيقة، لم ير من الخلق إلا رجل اصلع، حليق الحاجبين، يطل عليه اربع مرات يومياً، اما الطعام فيدفع من فتحة في الباب سرعان ما تغلق، في ظهيرة يوم حار سمع أقداماً، اطل من الثقب المستدير في الباب المصمت، رأى ذراعين ولم يكن ممكناً ان يرى الوجه، لسبب ما ظنه اسماعيل. اخترقه رعب نافذ، خاف ان يعذبوه امامه، ربما نالوا منه ما استعصى عليهم رغم الضرب وعصب العينين ولسع الأطراف بأسلاك الكهرباء، كان يخشى عليه ان يتعرض للتعذيب وان يعرف ممرات السجن، ودورات المياه المكشوفة. وجرادل البول، وغرف التعذيب، والاستجوابات التي لا تبدأ إلا بعد منتصف الليل وتستمر اسبوعاً متواصلا يتبدل خلاله المحققون، كان اسماعيل محدود الأصحاب، همه ان يمحو البلهارسيا من الخطط، يخصص كل جمعة للطواف على أولياء الخطط وتوزيع النقود على الفقراء، كان في حاله، لم يؤذ انساناً، ولم يخض مشاجرة، احياناً يفيض بحركة، يبدو منفعلا، متوهجاً، يقول إنه سيسافر الى البحر، سيعوم، سيأكل السمك المشوي، ويمشي في الشارع المحاذي للأمواج تحت أضواء النيون، عندئذ تطلب منه امه ان يقسم على مصحف مفتوح،

ألا يوغل في البحر، الا يركب العربات المسرعة، حتى يهدأ بالها في غيابه، لم يتحدث عن أي فتاة، حتى رآه يمشي بجوار فتاة ممشوقة، طويلة الشعر، ظن أن البصر يخدعه، لكنه اسماعيل، باطراقته الهادئة، وابتسامته التي يواجه بها الغرباء، كأنه لا يرغب في اغضاب أي إنسان، اختلفت حياة اسماعيل، انتظم خروجه في اوقات معلومة، بدا مرحاً، منتشياً. خرج عصر يوم ولم يرجع، كادت الأم أن تجن، جلس الأب عاجزاً عن التصرف، كل المعارف اختفوا، ولم يعد ينفع الانسان ان يكون قريباً لهذا أو جاراً لذاك، صارت الأوضاع عكس الزمان القديم، لم يستوعب الأب ذلك، فتوقف وعيه عند الميدان الكبير، يخيل لخالد في كهف التقية ان اقسى ما عرفه طوال حياته لحظات اختفاء شقيقه، في مساء اليوم الرابع رجع، عاد منكوش الشعر، يرتدي حذاء بلا جورب، متسخ، لم يلفظ حرفاً، ظل صامتاً لمدة سبع ليالٍ، هاجمه كابوس في ساعة محددة كل ليلة، كان يقوم مفزوعاً، يكتسح كل شيء في طريقه، حروفه معجونة، لا يوقفه إلا باب البيت المغلق، يبدأ بالدق عليه، بعد ان يفيق تنتحب امه، يا بني قل لنا ما جرى لك؟، في بداية اليوم الثامن حكى لخالد. حاصره في الطريق المضاء أربعة من الادارة، طلبوا منه ابراز بطاقته، سأل عن السبب، فقالوا: بلا سبب. قال اذا كان لا بد من ذهابه معهم

فلماذا يصرون على اصطحاب الآنسة؟ انها خطيبته وهي ابنة استاذ جامعي كبير، ضحكوا، قهقهوا، لعبوا حواجبهم، في حجرة مصمتة اجلسوه فوق مقعد بعد ان قيدوا ابهام اليد اليمنى الى ابهام اليد اليسرى بقيد دقيق، جاء العناني بنفسه، ضحك.. ما هي اخبار البلهارسيا؟ اذن انت مصر..، احضروا مرتبة محشوة بالقش، فردوها امامه، ادخلوا سعاد، استنجدت به، صرخت باسمه، اثناء تحشرج انفاسها واضطرابها كانت تقول: الحقني يا اسماعيل.. بدأ الضابط، ثم تعاقب مجهولون لا يعرفهم، وعلى فترات يدخل طبيب اجنبي يرتدي نظارة طبية، يصغي الى نبضها عبر السماعة، يتأمل ما بين فخذيها، يهز رأسه: لا تزال صالحة، وهكذا تعاقب عليها ثلاثمائة وخمسة وستين جندياً، صارحه اسماعيل، لم تعد الخطط مناسبة له، استيقظوا صباح الاثنين، لم يجدوه في غرفته الصغيرة، لطمت أمه وجهها، تنام فوق خشية أمام الباب خوفاً من قيامه صارخاً مفزوعاً في الليل، لحظة اكتشاف اختفائه مخيفة، تبدو الايام التالية مصبوغة بها، لم يأخذ إلا مفكرة صغيرة، بنية اللون، وقلم حبر أسود حصل عليه كجائزة تفوق عند انتقاله من الصف الثاني الى الثالث، وصور ملتقطة خلال رحلاته المدرسية الأولية، في كهف التقية اعتصر خالد حنين معذب الى شقيقه، فوق أي أرض يسعى الآن؟، لم يصحب

معه أية صور او علامات مادية، استبقت ذاكرته بقايا روائح بعيدة. ولحظة الدخول الى السجن لأول مرة، وارتداء ايثار لفستان اخضر اللون، ثم جلوسها عارية ونظراتها إليه، وقولها: لماذا تخجل من جسمك.. ان جسمك جميل ومفرود تجوله في البيت، لهجتها وهي تخبره انها اطلعت مجدي رمزي زوجها على كل شيء، ماذا تبقى في كهف التقية؟، استدعوه مرات، أبدوا رغبتهم في مساعدته اذا رغب الهجرة خارج الخطط، لكن هذا ما لن يقدر عليه، انه يأمل في عودة اسماعيل يوماً، وظهور والده فجأة، مجيئه الى منطقة الخلاوي أمر موقوت، عندما لجأ إلى هذا الكهف كانوا يتحدثون عن خطة لخفض الطموحات، أية طموحات؟ الم تصبح محدودة فعلا اذا ما قيس الأمر بما كان عليه في الشوارع والأسوار؟ لكنهم يعلنون عما تم وكأنه سيتم، كان كل شيء يبدو مستحيلا في البداية، حتى العجم قالوا باستحالة النتائج التي تنبيء بها الشواهد، لكنهم في الجانب الآخر أدركوا جوهر الزمن، عرفوا من واقع مصالحهم ما دون في الصحف الأول، وان أبعد الأمور عن العقل يمكن ان تصبح اقربها، وان الحقائق يمكن تحويرها، ان خالداً يتوحد بالصخر وجدران الكهف المحفورة في الجبل وأصوات الرياح وشدة الحال، حتى لو قدر للأوضاع ان تعود الى ما كانت عليه، لو رحل الأجانب عن

الخطط، لو شيد خزان أكبر، لو اطلقت الملكات، لو قدر للشرف ان يعود شرفاً وللخير ان يعود خيراً، لو قدر للخطط ان تستقيم فلن تنجو من آثار ما جرى، فقدت المباهج البسيطة رونقها، وتلاشت البواعث الكامنة، وعلقت المرارة في الحلق، قبل خروجه الى الخلاوي واعتصامه بكهف التقية زاد به الحال. كانت عودته الى حجرته تخيفه، يغلق الباب ثم يبقى حتى صباح اليوم التالي مجرداً من الرفقة، والأمن، والشعور بالمشاركة، بعد انقسام العجم، وخروج العتاة من الخطط قال في البداية بضرورة الحفاظ على الجوهر، لم يتبع ما قاله آخرون بضرورة مسايرة الوضع في الظاهر فقط والحفاظ على مكنون القلب بهدف التقية، تجربة البعض خيبت أصحاب القول: بدء ممارسة الدور تمهيد للاندماج فيه، التمادي مع الزمن ينسى الانسان منطقه الأصلي، يوهن الروابط، كان همه الحفاظ على الجوهر نقياً، بمنأى عن كل الشوائب، حتى إذا ما ادلهمت الأمور ولم يتبق إلا كائن واحد يكون هو النواة والبذرة، بدأ يقرأ سراً، يدون بعض ما ينوء به ويخفيه عن الأعين، أبى التقدم بأي طلب الى سلطات الضاحية الأولى، كان يتخذ الموقف وينفذه ويظل أول وآخر من يعلم به، أو يعاني بسببه، لا أحد بالقرب، ولا رفقة تسند، ولا صحبة تعزي، اطال التأمل داخل ذاته،

رصد دبيب هذه القوة التي لا ترد ولا تصد، التي لا تفصح عن نفسها إلا في علامات مفاجئة، مباغتة، كدوائر الأشجار أو تجاعيد الوجه أو الاصداء الغريبة لانعكاس اشعة الكربون، او تغير المعالم، كان يعي سريان الزمن داخله، يصغي الى الديمومة، وهذا ما عذبه، خاصة بعد تجاوزه الثلاثين، بعد ان سجن سبع مرات، وبعد ان انقسم العجم، ورحيل امه، وذهاب ابيه، واختفاء اسماعيل، افاق فجأة فوجد نفسه في الخامسة والثلاثين مع ان توالي الأيام والليالي لم يغب عنه أبداً، بسط يده كل البسط في سنوات عمره فتبخرت وأصبح استرجاع يوم واحد من المحال، ردد ساخراً: انه من الظلم ان يحاسب على عمره المنقضي في الخطط، وانه من العدل ان تتاح الفرصة مرة اخرى، لم يعرف هو واصحابه العيش كما يجب ان يعرفه المخلوق، من حيرة الى حروب الى سجون الى تعذيب الى قلب لكل ما عرفوه، أمِن العدل ان تنقضي اعمارهم هكذا في الخطط؟ عزى روحه بما ردده ونفذه، الحفاظ على الجوهر، في البداية كان يعيش اليوم كله من أجل الساعة التي يمضي فيها الى مخبأه في الخطط، يقرأ لمدة ساعة. ساعة فقط كل ما تبقى له، لكنه لاحظ بعد مسافة معينة انه يفتح الصفحات فيتثاءب، وحل النوم كخلوة بديلة، تجربة الموت النهائي، وطليعة الغياب عن الخطط، كثرت

المشاريع المؤجلة، غداً أعوض ما فاتني الليلة، كان يتآكل، فيما مضى، قرأ هذا التعبير، سخر منه، كيف يمكن لانسان ان يتآكل وفيه نفس يتردد؟ لكن جاءت اللحظة التي يعيش فيها اللفظ، اللحظة التي أصيب فيها بالجذام الروحي، ثم ثقل عليه هاجس الموت، صار يفكر فيه، يخشى اقترابه، صارع الوسن ليالي بأكملها خوفاً من اغماض عينيه الى الأبد، تحدى خوفه، سعى الى منطقة المقابر، دون ما كتب على الشواهد الرخامية والجصية، اصغى الى رغبات الموتى، مناجاتهم للاحياء ان يذكروهم، ان يترحموا عليهم، وتنبيههم ان كل حي في هذه الخطط مصيره الى زوال، الى هذه الرقدة، ستحاب لرجاء رجل مجهول مات منذ ثلاثة قرون، اشعل له سمة ليؤنس وحشته في ليالي الخطط الحالكة، تردد على لقابر لمدة شهر، لم يرهبه الموت فيما تلى ذلك، لكن شعوره صرورة الابتعاد وإلقاء كل الأقنعة والعودة الى البديهيات ستيعاب الأبجدية، ما سطر في الصحف الأولى وكشف مطاء والتوسل بالبصر الجديد لعله يرى يوماً تتغير فيه لاحوال حتى وان لم يعشه، دفعه الى النأي الى حين..

العقبات

.. من الثابت ان الهجرة الى منطقة الخلاوي، لم تتم أبداً طبقاً لاتفاق بين شخصين، لكن كيف جرى الخروج من عمار الخطط في وقت واحد، كيف ولد الخاطر لدى هذا أو ذاك؟ ذلك ما لم يحط به انسان علماً، ومن يبدي خلاف ذلك كاذب، انه سر عجيب من أسرار الخطط التي حيرت القاصي والداني، لم يظهر اي انسان من أولئك الذين آووا الى الخلاوي، نشرت صور البعض في جريدة الأنباء، ثم منع النشر بعد تزايد حالات الاختفاء. وزعت صورهم على عصابات السطو التابعة للادارة، اضفى ذلك على الحي السابع المزدحم جواً بغيضاً من الترقب، وجرت كبسات مفاجئة، وعانى الناس هوجات فظيعة، ثم جرت أول هجرة جماعية عندما خرج العمال الجنوبيون الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير، ثم تتابعت الجماعات، وبدا الأمر شبيهاً بمجيىء الطيور من الاصقاع الشمالية الى مواضع معينة في الخطط في شتاء كل عام، ثم جرت الهجرة الثانية الكبرى بعد أن قويت الاشاعات بوقوع الصلح بين الخطط والأعداء، شق ذلك على المحاربين القدماء والجدد وأهالي الشهداء، خاصة وان ما جرى في المشارف لا زال طرياً لم ينس بعد، فخرجوا جماعات جماعات، وازعج هذا العناني، وأصدر سلسلة طويلة من الاوامر، لكن

المجاج لم يكف، وقالت كل الشواهد ان اللجوء الى الخلاوي معناه الهلاك المبين، ثمة سبع عقبات، حزام من الصخور النارية، وجداول مياه مغلية، وبراكين قديمة لم تثر منذ زمن لكنها لم تخمد بعد مما يرفع درجة حرارة الأرض الى حد لا يحتمله بشر، وتشعب الطرق، وافاعي طائرة شديدة الفتك، وغيلان مجهولة، ومهاوي لا حصر لها، والحقيقة التي لم يعرفها إلاّ من وصل حياً الى الخلاوي هي ان شخصيةً غامضة من شخصيات الخطط سهلت عبور الجماعات الى الخلاوي الدفينة، انه رجل قصير، مدكوك البدن، غليظ الرقبة، ظهر من قبل ظهوراً عابراً عندما حمله ابوه الى اقصى الجنوب هرباً من الحملة التي ابادت مواليد الشارع الخامس. وعندما ارشد الوتيدي الى كهف التقية انه الوحيد الذي نجا، ساعد صاحب الفندق القديم، اسمه سليمان، وحوله دارت حكايات عديدة، لكن من الثابت انه يحفظ كل شبر في الخلاوي، وما من مخلوق آخر قادر على معرفة دروبها وخباياها مثله، يقال انه اتم رضاعته بها، وانه عاشر كافة حيواناتها وطيورها وهوامها، خبرها وعرف حركاتها وسكناتها ومتى تشرع في الهجوم والاشارات المتبادلة فيما بينها، انه الوحيد في الخطط الذي كان على علم بالحياة التي تموج بها الخلاوي، وانها ليست خراباً كما تبدو للآخرين، العامة والمتخصصين كما انه قوي على

صعابها، يتحمل اشق الظروف برغم حجمه الضئيل، قيلت عنه امور عجيبة منها استطاعته الطيران في أوقات معلومة، وانه تعلم ذلك من فصيلة نسور نادرة انقرضت من الدنيا ولم يتبق منها إلا زوج وحيد، قاد سليمان مجموعات العمال الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير عبر طريق خفي يتفادى كل العقبات المحيطة بالخلاوي، ارشدهم الى مكان امين، والحاربين الأشداء، وعدد من المنشدين القدامى للمواويل والملاحم، وحفظة السيرة، وكتاب الأحجبة الحافظة، والعارفين بانساب الخيول، وصناع السعف والخوص والفخار، وجمع كبير لم يعد له عيش في عمار الخطط، أرشدهم الى منطقة بها نبع مجهول المصدر، ونخلة صغيرة، متوارية، مثقلة بالبلح. العجيب انها تطرح سبعين نوعاً مختلفاً، قبل وصولهم كان البلح ينمو، ينضج ويسقط ويتعفن فوق الأرض الصخرية، وقيل إن سليمان هو الذي يحمل حبوب اللقاح الى هذه النخلة الوحيدة من نخيل الأطراف البعيدة، ولكن عرف فيما بعد انه اقام صلة بالمناطق المأهولة وانه حمل براميل التمر المجفف، والخبز الجاف الى اهالي الخلاوي، لم يمض وقت طويل حتى انتشرت شائعات عن هجرات خفية تتم داخل الخطط، وان كثيرين خرجوا الى مناطق الخلاوي، وقيل أيضاً بعض الجزر الصغيرة الواقعة في البحر الشرقي المحاذي

للخلاوي، تحركت آمال مبهمة واعدة في صدور الذين غاب اقاربهم او من يمتون إليهم بصلة، عرف التنوخي قلقاً حقيقياً، نشر مجدي رمزي سلسلة من التحقيقات عن وعورة وخطورة الخلاوي، وتنبؤات العلماء الاجانب المتخصصين، لكن الفأر لعب في عب العناني، لم يهدأ ولم يقتنع، طلب تزويد العصابات بطائرات هيلوكبتر، هكذا حلقت الطائرات لأول مرة فوق أوعر مناطق الخطط. الطيارون الأمريكيون أبدوا انزعاجهم لغرابة التيارات الهوائية، وتداخل الانعكاسات المنبعثة من الصخور، وهذا يجعل الرؤية بالعين صعبة، ويضع تعقيدات من نوع جديد أمام أجهزة التصوير الحديثة، طلب اتحاد المستثمرين الاجانب لسائر عموم الخطط توجيه قمر صناعي، ولم تثبت الخرائط الالكترونية والصور الملتقطة من علو شاهق وجود أي شيء غير الفوهات والشقوق، لكن فأر الشك لم يهدأ لدى العناني امر بتشكيل دورية من ثلاثين مجرماً عاتياً، قضوا نصف اعمارهم في حقول القصب، والنصف الآخر في المغارات الدفينة، ابدى بعضهم حذراً، قالوا ان هذه المنطقة لم تطأها قدم من قبل. وعدهم العناني بمكافآت مجزية، فقبلوا وعندهم ضيق، في هذه الفترة بلغت الهجرات الجماعية ذروتها، خاصة بعد وصول وفود من أعداء الخطط، وأدلائهم بالتصريحات واستقبال مجدي رمزي لهم، وإقامته

المآدب، واعلان واحد من الأعداء ان الخططيين هم أقرب الناس إليه، وهذا ما لم يتحمله الكثيرون، فسارعوا بالهجاج، ومنهم من خلف امواله، وأسباب رزقه، وفارق عياله، ولم يفكر معظمهم فيما سينتظرهم، وهل ستكتب لهم السلامة أم لا؟. هلك كثيرون لا حصر لهم، حتى اولئك الذين ارشدهم سليمان، احتاج الامر الى جلد عجيب، وقوة نفس، وصبر، واحتمال، لهذا عد من وصل آمناً الى قلب الخلاوي من خلاصة أهالي الخطط، اما وعورة المنطقة فقد اكسبتهم مهارات وخبرات لم تخطر لهم على بال يوماً، ولم تطرأ على أفئدتهم في الأيام الآمنة..

المرابطون..

.. لا يدري انسان متى ظهر الخضر على وجه التحديد، لكن تفيد الحكايات المتناقلة انه هو الذي انهى مرحلة الخلوات الفردية في كهوف التقية، وأقام التجمعات، والحياة الجماعية للمهاجرين الأوائل، ومن المؤكد انه عرف سليمان وصاحبَه وزامله، وقال له في أول لقاء: «أنت لي مثل الولد..»، قال له سليمان انه سيصحبه الى شقوق الخلاوي لكن عليه ألا يستفسر عن بعض الأمور التي قد تبدو له غريبة وإلا فان العهد سينتهي بينهما، صحبة عبر كافة الدروب،

ارشده الى العلامات المميزة، والاشارات الدالة، عرفه الكهوف الآمنة، والكهوف التي لا أمان لها، والمغارات التي لا يبدو لها آخر، اطلعه على مناطق النيران الأزلية، ثلاث شعلات نحيلة زرقاء اللون، ملتهبة، تضيء في النهار والليل، ولا يمكن الاقتراب منها لمسافة سبعمائة متر، سأل الخضر، لماذا سبعمائة متر بالتحديد؟ نظر اليه سليمان عاتبا، قال: ألم أقل لك ان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أشرح لك، قال الخضر: لا تؤاخذني قد نسيت. انطلقا فمشيا حتى نقاط محددة يمكن من خلالها رصد نجوم السماء، ورؤية النيازك المارقة، والعجيب ان رصد النجوم كان ممكناً في الليل والنهار من هذا الموضع، وفي الليل المعتم يمكنه الحركة في الليل بدون ان يضل طريقه، لف معه على مصادر المياه في الخلاوي. الماء المتدفق والماء المتقطع والماء الذي لا يظهر إلا مع اكتمال القمر، لماذا لا يظهر إلا مع اكتمال القمر؟ نظر اليه سليمان متضايقاً، قال: الم أقل ان اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أشرحه لك، قال الخضر: لا تؤاخذني.. قد نسيت. ثم انطلقا فمشيا الى مناطق الأعشاب، ومواضع الحيوانات المسالمة، والتي يمكن صيدها، وطهو لحمها اذا قدح الحجر بالحجر فيندلع الشرر، توقفا عند النخلة الوحيدة التي يمكنها اطعام مدينة تعدادها ألف ألف بالتمر، ليفها يصلح لصناعة

الأحذية، أو نسج أثواب تقي صقيع الشتاء، ولكن الحذر كل الحذر من ذبحها أو قطعها عندئذ تكون المصيبة الكبرى. لماذا. لماذا تكون المصيبة الكبرى؟، هنا بدا وجه سليمان حزيناً، اسيانا، قال بهدوء ان قدَره في هذه الخطط العيش بمعزل عن سائر الناس.. لكم كان يود أن يصحب أهالي الخلاوي في حياتهم اليومية، ان يأتنس بضجيجهم، أن يرقب العلاقات بين الأشقاء وهو المحروم من الأخوة، أن يشم رائحة الاناث، وان يرقب مشيهن: لكن هذا فراق بيني وبينك لأنك لم تستطع معي صبراً. في هذه اللحظة أوشك الخضر على ابداء العذر ادركه خوف غامض، فوجيء بسليمان يبتعد، ينأى، يخطو فوق الفراغ الذي يفصل قمتين صخريتين متباعدتين، اتخذ الخضر وضع القرفصاء لمدة ثلاثة أيام، حتى تيبست مفاصله، وعندما اغفى متعباً حزيناً ايقظه الهاتف الخفي، زعقة نفضت جسده، قام واقفاً، منذ هذه اللحظة لم يكف عن الحركة، التنقل من كهف الى كهف، من ذروة الى قاع، ومن قمة الى سفح، تحدث الى المهاجرين، خفف عن بعضهم، طلب من عدد لا بأس به استعادة ايامهم النائية، ان يتذكروا التفاصيل، قال ان الانسان كلما أوغل في العمر ازداد اكتشافاً لحياته الماضية، ورأى ما لم يره أثناء معايشته لها، طلب من بعضهم التفكير في الحياة المقبلة، وما ستكون

عليه، عندما انتظمت عمليات التموين، وعرف أهالي الخلاوي طعم المرق الساخن، وصفار البيض، عمَّ تفاؤل، وقال الخضر... ان الخطط عامرة، والخير لم ينفذ منها، ورقص عجوز تجاوز الستين، قادم من مدينة دمرها الأعداء ومحوها تماماً، تفر. بخفة، واستدار بحيوية، تدفق بالعطاء، قلد لهم الصيادين، والبحارة، والقباطنة، والشحاذين في الموانىء، والشباب عند النواصي، والعجوز المتصابي، ثم انشد فاطرب، اضحك فأبهج، كان قد تقلب في مهن بحرية عديدة، لم يدرس في أكاديمية، لكنه خبر البحرين، وعرف مواطىء السير، وأين يهتدي، وأين يضل؟ كان لا ينظر الى النجوم ليعرف طريقه، انما يتطلع الى البحر. ومن انعكاس البريق، وما يردده القاع يعرف الموضع والمكان، قال البحار العجوز ان خبرا جاءه من الأوائل الطيبين، يقول بأن الخطط ستقوم من جديد، وان الاعداء سيرحلون، ليس عن الخطط، إنما عن تخوم الخطط، وجيران الخطط، طلب الخضر منه ان يلقن أهالي الخلاوي ما لديه من علم، أن يردد على مسامعهم أناشيد البحر، كذلك طلب من رواة السيرة والمنشدين الجنوبيين، وعندما اكتشف كهف مدير الفندق هيأ مغارة بأكملها رخامية الجدران، ضوءها عجيب، ليصون لوحة تولوز لوتريك، وعين افراداً يسهرون عليها، أصبح صاحب الفندق مشلولا، لا يمكنه إلا

النطق والتطلع الى اللوحة. طلب الخضر من كل انسان ان يحدث الآخرين عن ثلاثة أشياء، ما يتقنه من عمل، والناحية التي جاء منها، أوصافها، وناسها، وطرقاتها وعن نفسه وما يتمناه للخطط، عرف الخضر الطريق الى خالد، عانقه، وذكره بنفسه، وجريدة الأنباء، وعنابر السجن، ضمه الى خلاوي المنطقة الأولى، وطلب منه قص الأحداث التي مرت بالخطط، والتي محيت تماماً من المدارس، واستعادة وقائع التاريخ الملغى، أما الوتيدي فانضم الى منطقة الخلاوي المتقدمة والتي يسكنها المحاربون القدماء. أحبه أهالي الخطط بالخضر، حتى معارفه القدامى نسوا مهنته، عامل الطباعة، وصاروا ينادونه بالخضر فقط، تعلق به سائر الناس، لا يذكر انسان انه رآه متمدداً، أو نائماً، أو متعباً، كان يظهر عند الحاجة والوتيدي على مقربة منه، عقد عليه أهالي الخلاوي آمالا كبارا، سرت أخباره في الضواحي والأنحاء قيل انه قادر على قطع مسافات شاسعة بدون توقف، وانه محصن ضد سم العقرب والأفاعي، حتى الطائر منها، شوهد يخرج حية ضخمة من شق عميق، حرك يديه في مواجهتها، والحية تقبل عليه ثم تتراجع وترتد عنه، في النهاية لفها حول ذراعه، وضع يده فوق رأس فهد أسود أرقط وهو من أشد الحيوانات شراسة، انه يرتدي تحت الجلد حجابا صغيرا مستديراً في

حجم رأس الدبوس، يحميه من الرصاص والشظايا، والطلقة اذا ما وجهت اليه من أدق المصوبين تصطدم به وترتد عنه، اكدوا ان أمه ولدته وهي في الستين، وانه تكلم في اليوم السابع، وانه يعرف اسماء أهالي الخطط كلهم، الذين أحبهم، والذين أساءوا اليه، وأكد البعض ان ثمة علاقة قديمة تربطه بالوتيدي، هذا الوتيدي العملاق الذي يزلزل الصخر جثا أمامه، ونكس رأسه وطلب منه ان يسامحه، قالوا ان الخضر عرف الشقاء طوال عمره. ومارس كافة المهن والحرف، تقلب في طوائف عديدة حتى استقر عاملا للطباعة، ثم صار من عتاة العجم، وعندما جاء الى الخلاوي التقى بسليمان الذي علمه كل شيء عن الخلاوي وما فيها، كان الخضر اذ يصغي الى هذه الحكاية ينقبض قلبه لأن سليمان انصرف عنه ولديه الكثير مما لم يقله. في أحد الأيام ظهر المعلم الياس، وجهه شاهق البياض، عيناه حادتان، لا يذكره أحد منذ اختفائه في احد الأسوار، عانقه الخضر، نظر كل منهما الى الآخر وبقيا صامتين ساعة زمن، بعدها قال الخضر: جاء الى الخلاوي احد الخلق سمعا، فيما بعد عرف بين اهالي الخلاوي ان الياس من أبناء الخطط القدامى، وانه لم يخرج منها الى أية جهة، عاش عمره كله بها، انه يجيد اثنتي عشرة لغة مع انه لا يعرف القراءة أو الكتابة، وسبب ذلك نشأته في منطقة يتردد عليها

الأجانب لشراء التحف النادرة المصنوعة برسم الآثار القديمة. امكنه أيضاً اتقان اللغات القديمة المنقوشة، إكتسب خبرة نادرة بمعرفة الآثار، اذا تحسس الحجر المنحوت وهو مغمض العينين أمكنه ان يدرك، الى أي عصر ينتمي. وما اذا كان زائفاً أم حقيقياً. انه يعلم موضع كل اثر دفين لم يتم الكشف عنه في أنحاء الخطط، قام بعمليات كبيرة قبل طلوعه الى الخلاوي موه بها أماكن الآثار التي لم تكتشف بعد وأخفاها. بحيث تعجز أية امكانيات حديثة عن الوصول اليها، كما انه اعد خريطة تفصيلية بهذه المواضع لا يدري أحد أين وضعها، أو المادة التي استخدمها في رسمها، من الأمور الثابتة ان الياس هو الذي جاب صحارى الخطط الوعرة حتى اكتشف المغارة الخفية والتي بدأ نقل الآثار القديمة اليها عبر تنظيم هائل الاحكام انقاذاً لها من مصلحة تهريب الآثار، وقد عمل في الخطط سبعمائة من أجهزة المخابرات العالمية لاكتشاف المغارة، وعجزوا عن الوصول الى مجرد خيط يؤدي أو يوحي بمكانها. وقيل بين المعمرين وقتئذ، انها الخطط عندما تصمت فلا ينطقها إلا القدير في علاه، لم يكن جهد الياس سهلا، حتى يعثر على المغارة اختفى عن أصحابه هو الذي يعشق الصحبة الجميلة والأنس والسهر، ابتعد عن عائلته، عمل في مهن متعددة، تجول في كل الصحارى، خبر الجبال، كان يهتدي الى

الأماكن الصالحة من خلال اصغائه الى صدى الرياح ومرورها عبر الشقوق، أو صدى اصطدام ذرات الرمل بالصخور في الليالي العاصفة، كان حاد السمع الى درجة لا يمكن تصورها، باستطاعته ان يصغي الى أدق الأصوات بعدا، وان يفرز الأصوات في الليالي العاصفة الممطرة، كان بامكانه أن يصغي الى سريان عقرب فوق الرمال على بعد مائة مسافة، أو اصطفاف جناحي نسر في الأعالي، كثيراً ما قبع هادئاً عند منطقة الخلاوي المتقدمة، يبدو مستغرقاً بعمق، حتى لتردع هيئة أي انسان يفكر في مناداته، عرف انه يصغي في مثل هذه اللحظات الى ما يجري في أقسام الخطط النائية، ثم يفضي بما سمعه الى الخضر، بل انه رصد كل اقتراب جرى حول الخلاوي، وعرف القادمين الجدد. ومن قبل مجيئه كان الخضر يطوف الخلاوي بحثاً عن الذين هجوا عن عمار الخطط، أكد الياس انه أحاط المغارة بضمانات هي محصلة قرون ولو استطاع أي جهاز مخابرات الامساك بطرف الخيط الحقيقي فانه يحتاج الى جهد سبعين عاما متصلة كي يصل الى المغارة، وعند موته سيظهر في الخطط من هو عالم بالسر، واذا رحل الثاني فهناك ثالث، ان المغارة مجهولة الأوصاف، لكن درجة الحرارة بها ثابتة، مناخها صحي، لو دفنت بها جثة بدون وسائل تحنيط لعثروا عليها بعد مئات السنين على حالها، أما

الذين تولوا عمليات انقاذ الآثار فلا يعرف عنهم أي شيء، الحالة الوحيدة التي ضبط فيها احدهم عندما القت العصابات القبض على عامل مبتور الذراع، عرضوه لكافة وسائل الاستجواب على أيدي خبراء من البلدان المختلفة، واتخذت الاحتياطات لمنعه من الانتحار، ثم عذب، صبوا الزيت المغلي في إسته، ومرروا الكهرباء عبر اعضائه، ولم ينطق حرفاً، في اليوم الثالث عثروا عليه صامتاً الى الأبد في زنزانته المكيفة، لم يطلب الخضر أية معلومات من الياس، أدركه خاطر غامض، لو تملكه الفضول كما جرى مع سليمان سيختفي الياس، وما أشد الحاجة اليه، في فجر خريفي رصد الياس باذنيه اقتراب مجموعات عديدة، اخترقوا الناحية الغربية، أصعب الجهات، سقط منهم عديدون، جلس آخرون وطلبوا من رفاقهم ان يمضوا بدونهم، آخرون لم يقدروا على عبور الماء المغلي، جاء كبيرهم، انه شيخ عجوز، ساقاه نحيلتان كالخيزران، ضلوعه تبدو تحت جلده. استطاع عبور الموانع السبعة. عندما التقى بالخضر، قال الشيخ العجوز الذي نبتت أسنانه الخضراء: لا ندري ان كنت أنت، أنت لا تدري ان كنت أعلم الخلق بالكائن من الأمور الماضية، والكائن منها الذي لم يكن بعد، لكن الشواهد تنبيء وتبشر.. أننا نبايعك حتى تنزاح الغمة الكبرى، معك المرابطون الصابرون..

المؤن..

.. جرى نقل المؤن الى الخلاوي وفق ترتيب مرتب أشرف الوتيدي على نقل الاجولة والصناديق، تفجرت قواه الهائلة في الخلاوي، أصبح باستطاعته ان يزيح ثقلا مقداره الف وزن، تباعدت اطرافه، واعتدلت قامته، وفارقه انحناء العنق الذي ظل ملازماً له طوال الشوارع والأسوار والضواحي، وازدادت قدرته على الإبصار الى حد عجيب، حتى انه كان باستطاعته في الليالي الصافية رؤية ما يجري في المدن النائية، وداخل المقرات، اختص الوتيدي برصد ما يدور، وتوزيع المؤن، تسربت قطع السلاح أيضاً، بعضها من مخازن عصابات الادارة، بل ان عدداً من المدافع الامريكية وصل الى الخلاوي بزيته وشحمه، هذا بخلاف السلاح المحلي الذي رتب خضر طرق الحصول عليه، جاء المدد من خارج حدود الخطط، أطباء وصحفيون ومهندسون هاجروا منذ أمد، وطلبة يعملون في مزارع العنب، وغسيل الاطباق، ارسل كل منهم ما يقدر عليه، بعضهم حار في كيفية ارسال النقود ولفائف الدواء والطعام المحفوظ، تكونت لجان عديدة باسم «أنصار الخطط»، كثيراً ما اغرورقت عينا خالد عند وصول طرد من جهة نائية، تحولت فترة تقيته عن أهدافه

المبدئية، لم يعد يخلو الى نفسه إلا لحظات ما قبل النوم، في أيامه الأولى رتب أوضاعه على البقاء بمفرده مقداراً مجهولا، الآن.. مع الرفقة والعمل لا تكفيه ساعات النهار، في الجزء الأخير من المشارف وفي الضاحية الأولى مرت به الأيام السود، كان قد نأى عن العجم بعد دبيب الفرقة، والشتات، بعضهم عمل مع التنوخي نفسه، لم يجهروا بالردة، انما برروا ما قاموا به، وصموا ما عداهم بالغفلة والجهل وسوء النية، ثم كان من أمرهم ما كان، فقد خالد وقتئذ حميمته واندفاعه وقدرته على الانفعال، بعد اغلاق المقاهي تاه في الطرقات، زمان في الشوارع كان يهرع الى مكتبة الخطط المركزية. ينتظر فتح أبوابها، تخف روحه وتشف اذ يقرأ الساعات الطوال، بعد انقضاء المسافات لم يكن باستطاعته اتمام قراءة عشر صفحات، يشرد، يستدعي ذهنه صوراً بعيدة، تبدل الحال بين أهالي الخلاوي، استعاد الحميمة المفتقدة والدفأ الآسر، حتى دقات قلبه المتعبة كفت عن لهاثها، بل انه استطاع القفز فوق الصخور الوعرة، وتسلق مرتفعات لم يتصور يوماً انه سيرتقي مثلها، تترقرق عواطفه اذ يفرغ مع بعض اهالي الخلاوي شحنة وصلت من بعيد، يذكر أحباءه والأيام الآمنة، حتى ايثار يستدعي طيفها بدهشة وعتاب، ألم يبذل عواطفه من أجلها سنوات، كأنه احتفظ بجوهرة ثمينة ثم

اكتشف زيفها. عندما وصلت الأخبار باستعداد أول دورية لمهاجمة الخلاوي بعد دوريات الاستكشاف التى ارسلت من قبل استدعاه الخضر الى المنطقة المتقدمة حيث المحاربين القدماء .. بعد الشروح العديدة، طلب منه الخضر أن يتخيل الخطة المناسبة، ان يطلق العنان لمخيلته الخصبة، استعاد أيام الخطر عندما تطوع للقتال ضد الأعداء قبل نشوب الحرب الثالثة، عاش الاقتراب الانساني الذي لا مثيل له بين المقاتلين في مناطق الخطر، الذين يمكن ان يموتوا معاً، أو يشهد احدهم موت الآخر، أو يتبادلون الذكريات بعد سنوات وكأن ما جرى أمر عادي. تغيرت أحوال اهالي الخلاوي، تبدل الغرض من هجرتهم الداخلية، بعضهم جاء بدون أن يدري شيئاً عن المصير، بل ان الأوائل الذين ولوا وجوههم الى المنطقة المهجورة كانوا يسعون الى ما يشبه انتحار مستتر، آلان أورق الأمل، التطلع الى أيام يمكنهم فيها الجري وراء أرزاقهم بدون أن يزاحمهم أجنبي، ان يساعد الابن امه العجوز بدون توجيه اتهام اليه، ان يحدقوا الى مياه النهر، ان يجدوا البقعة الهادئة التي يمكن الانفراد فيها بدون خوف من عصابات السطو، في هذه الأثناء جاءت الأخبار باختفاء الدورية المسلحة فابهج هذا اهالي الخلاوي أجمعين..

.. المناطق المضطربة..

.. ظن كثيرون ان الخطط راقت لهم، وانهم لن يشعروا ابداً بمرارة اللعاب بين الاسنان، لكن الحروف لا تتشابه، منها من يستقيم ومن يرتد، وسبحانه هو مغير الأحوال، ومجري الزمان الغريب العجيب، لا يدري انسان من أين جاء الأمس، أو الى أين سيمضي الغد؟ كل شيء يتغير، كل الموجودات تتحول، عند هذا الموضع من الخطط بدأ الاضطراب يسري، والواقع الذي أرادوا له ان يكون يهتز ويرتجف، تردد ان العناني اجتمع ببعض الأعداء المتخصصين في أعمال معينة لها صلة بما يجري في الخلاوي، طلب منهم العون والنجدة لاستكشاف ما يجري في تلك المنطقة الغامضة، التي لم تذكر في مراجع علمية، أو أية دائرة معارف، لم يصدق البعض اجتماع العناني بالاعداء، لكن لم يمض وقت طويل حتى نشرت الصور في بعض المجلات التي تصدر خارج الخطط، مع ان العناني معروف عنه كرهه لنشر صوره، أو أخباره، برغم اشتغاله بالصحافة زمناً لا بأس به، انزعج عدد قليل، ولكن لم يعبأ بانزعاجهم أحد، ولم يسبب اضطرابا، منذ فترة غير قليلة تم تفريغ المصطلحات والكلمات بحيث اصبحت لا تدل على ما تعنيه. كما تم الانتهاء من تنفيذ خطة فوضى

المصطلحات، سمح باستخدام أية كلمة للتعبير عن أي موضع. من ذلك استخدام رموز الطب في المجال الهندسي، أو تعبيرات العجم.

للتعبير عما يناقص العجم، والحديث عن الأصدقاء بأوصاف كان يختص بها الأعداء، والاشادة بالأعداء لأنهم أعداء، جرى ذلك طبقاً لترتيب دقيق، بدأ الأمر من الصحف اليومية، ثم جرى على ألسنة الناس في حياتهم ومعاملاتهم، واستحق العناني ثناء سكان الضاحية النائية، لهذا عندما نددت قلة بما عرف ونشر عن الاجتماع بالأعداء لم يعبأ بهم أحد، كما ان البعض وقع في حيرة، هل المقصود من الاعتراض المدح، أم الذم؟ لم يتأثر العناني، ولم يكن بوسع أي شخص من الذين ظهروا في الخطط حتى الآن أن يؤثر فيه، اعتاد العمل في كتمان شديد، مع عتاة المجرمين، لم يكن يغمض عينيه قبل أن يصغي الى اجمالي ما تم تلفيقه من تهم للأبرياء، وعدد مرات الاغتصاب، وخطف الأطفال لبيعهم خارج الخطط، لو حدث تقصير ما في السرقة أو النشل يبدي عندئذ غضبا، عرف العناني الانزعاج بعد اختفاء الدورية المسلحة التي أرسلها الى الخلاوي، لم يكرر الأمر، انما سعى الى أعداء الخطط، لم يصغ الى الحاح التنوخي بضرورة الهجوم على الخلاوي. أمر بتشديد اليقظة في سائر انحاء

الخطط، ومراجعة ماضي كافة الشخصيات، والتدقيق على مخارج الضواحي، ونبه على مضاعفة دخول المنازل خلسة، والبحث في الأدراج الخاصة، ومعاقبة أي مسئول عن وصول مظروف خطاب مغلق الى صاحبه، ان العناني لا يستهين بأتفه الأمور، عندما اتصل به التنوخي مستفسراً عما يقال حول اجتماعه بالأعداء؟ أبدى العناني دهشة، تساءل: ألم يحدث هذا أية ردود فعل؟ لا بد أن التنوخي يقعد على أذنيه ولا يدري شيئاً عما يجري - يا تنوخي ان أي شيء يمكن أن يقع في الخطط الآن - أي شيء، ولن يقابل برد الفعل الطبيعي يبدو ان الهرم أدرك كبار الشخصيات، وانهم يجب ان يتقاعدوا ليفسحوا الطريق أمام مجدي رمزي وأمثاله. ان التنوخي يتولى مسئولية الحي السابع ذو المساحات الشاسعة، والذي يضم اهم المؤسسات، والميناء الوحيد، لكنه منذ مجيء مجدي رمزي الى الضاحية الأولى وداخله كدمة سوداء، انه يقترب من الخمسين، وبعد عمر طويل من الانحطاط يفاجأ بأنه يجب ان ينافس شابا لم يتجاوز الثلاثين، ندم لأنه بطش بالاستاذ عندما تعمد توجيه الشكر تلو الشكر اليه، والاشادة بمحاسنه وخلقه، وكان هذا أقسى ما يمكن قوله في حقه وأشده ألما، المهم الآن ان يثبت للجميع انهم في حاجة اليه، وان الخطط لا يمكن أن تمضي بدونه، للأسف قدر عليه أن ينافس

شابا صغيراً، يبدو مترفعاً، باهتاً، نحيل الشارب، يوحي جسده بأنه لم ينضج بعد، أثناء تولي الهلالي لم يشعر بخطورة الضاحية بل اعتبرها تابعة له على الرغم من العجرفة الزائدة التي ابداها الهلالي من حين الى آخر. برغم ما يشعر به اتصل مراراً بالضاحية الأولى، يستفسر عن صحة مجدي رمزي، أو يدعوه الى تناول العشاء، ولكنه لم يستطع الاتصال به ابداً، وفي كل مرة لا يجده أو يشعر بتجاهله له، تتزايد الكدمة السوداء داخله، كاد يطق من الغيظ، دارت أحوال الخطط حتى جاءوا بطفل يسير الأمور، لا بد ان يثبت لهم ان اخراجه مستحيل، ان وجوده ضروري، لم يعبأ بما تردد عن أحداث الخلاوي، ما شغله وزحم عقله، البقاء، يا لتدهور الحال، كان يأمل في الترقي، والتقدم، للسيطرة على كافة أنحاء الخطط وها هو يسعى الى مجرد البقاء، الى القيام بسلسلة اعمال تذهل الكل..

مشارف محدودة تقع بين الضاحية الأولى والحي السابع..

.. جاء التنوخي الى هنا في هيئة لم يعرف بها من قبل، كانت هذه المشارف أراضي زراعية تمون الحي السابع بالخضروات، ثم تقلصت الزراعة مع تحديد مساحات الخضرة،

تبقى خط حديدي ضيق لترولِلي كان يدفع باليد، يقال ان مالكا قديما قد شيده في بداية هذا القرن، كان يجلس فوقه مع ولديه الصغيرين، ثم يدفعهم ثلاثة من العبيد السود. جاء التنوخي بمفرده، يرتدي عباءة سوداء، ازاحها فجأة عن كتفيه، بدا مرتدياً زيا غريبا، شديد الشبه بحلة راقصة من العهد الفولكلوري المندثر، لف خصره حزام محلى بالترتر المفضض، حلق حاجبيه، وشاربه، ثم صبغ شفتيه بأحمر قان، أمسك باطراف اصابعه صاجات نحاسية، بدأ يوقع بها على مهل، ثم تزايدت سرعة ايقاعه، تلوى وتكسر، تثنى وتقصع، لم يتوقف احد من المارة على الرغم من ظهور بعض مراسلي الصحف الأجنبية، ومراسل محطة التليفزيون الأمريكية، ان بي. اس، اعلن تأييده بدون أن يوضح الجهة التي يبرق اليها بالتأييد، أشار الى الناس الذين لازالوا يعيشون في الماضي، ويتجاهلون الحاضر الرائع للخطط التي تعيش أمجد أيامها بالمفهوم القديم، ثم قال انه سيقدم الدليل من خلال مؤامرة تم اكتشافها، سيقدم الدليل، أشار بيده، ظهر ثلاثة رجال أشداء ينتمون الى احدى عصابات السطو، يدفعون شابا في العشرينات، برغم الهواء البارد الذي جاء الى الخطط من شمال أوربا نتيجة لوجود منخفض جوي فانه يرتدي قميصاً قصير الأكمام، أشار اليه التنوخي، الى الدليل الحي، الى أحد

الذين يحاولون تعويق المسيرة، قطب الشاب حاجبيه وكأنه يواجه شمساً حادة. ظلت ذراع التنوخي تشير الى جهة ما تطاير اللعاب من فمه. انه لن يسمح ببقاء مثل هذا الشاب في الخطط، انه يروج لبدع قديمة ابطلتها الفتاوى والآراء، انه يدعو لضلالات، انه يحاول زعزعة الأسس المتينة للخطط، توقف التنوخي ليقوم بأداء مقطوعة متواصلة من الدق بالصاجات، احتفظ وجه الشاب بنفس التعبير، ستصادر النقود التي ضبطت معه ولن تصل الى امه أبداً، ارتدى التنوخي العباءة في حركة مفاجئة، احدث ما قام به ارتياحاً عميقاً في الضاحية النائية. هنأه العناني على ما قام به، اعتبر ذلك حدثاً هاماً وبارزاً، لأول مرة تعلق القرارات الهامة من خلال شكل جديد يتنافى تماماً مع المظاهر القديمة، اعتبر حلق الحاجبين والشارب وارتداء بدلة الرقص من علامات البطولة، أما توجيه الاتهام الى الشاب الذي حاول مساعدة امه الضريرة فخطوة واسعة نحو ابادة القيم البالية. كما اتضح أمر هام وهو عدم مبالاة الناس، اذ استمروا في سيرهم بدون التوقف للفرجة، حتى الفضول مات فيهم وزيادة، أكدت هذه البلادة التي جرى التمهيد لها طويلا ان ما يجري في الخلاوي لن يؤثر على الأوضاع العامة في الخطط. علا نجم التنوخي، وضح ان الجيل هو القادر على الأمور الصعاب، لم يفكر

التنوخي، وضح ان الجيل الأول هو القادر على الأمور الصعاب، لم يفكر التنوخي في مجدي رمزي لمدة يومين متصلين. لكن حيرة أدركته عندما نما اليه ظهور مجدي رمزي في هذه المنطقة أربع مرات متعاقبة. لم يتحدث، لم يتكلم الى مخلوق، انما حدق بعينيه، وعلى أثر هذه الوقفات استنفرت سائر الجهات وهذا لم يحدث عندما كشف التنوخي عن مؤامرة الشاب الوفي لأمه، أدرك أن الأحداث لا تمضي كما يتمنى.

.. امتدادات الضاحية الأولى..

.. قبل الدخول إلى هذه الامتدادات التي أحدثها مجدي رمزي لا بد من التنبيه الى نشاط حركة البيع العظمى. شمل البيع كل شيء حتى اعضاء البدن. أصبح العثور عليها ميسوراً بدءاً من الكلى واطقم الاسنان حتى اعضاء الذكورة المعقولة الحجم، جرى تسهيل بيع الفتيات الصغيرات إلى خارج الخطط، ثم الأطفال الصغار بعد خصيهم. ثم تقدمت احدى المؤسسات الامريكية المتخصصة في تربية فئران التجارب بمشروع سرعان ما وافق عليه المسئولون في الخطط، جرى توريد عدد من الذكور والأناث صحاح البنية إلى معامل الأبحاث. وهكذا ظهر انسان التجارب، أو العينة البشرية. انتشرت مكاتب لاختيار بعض الأهالي الأصليين

الذين تتوافر فيهم الشروط المطلوبة لاجراء التجارب، في مجالات الأدوية، والعقاقير السامة، او التعرض للاشاعات، او اطلاق مركبات فضائية في أغوار الكون السحيقة بدون أي احتمال لعودتها. قيل انها خدمة جديدة تقدمها الخطط إلى العالم المتحضر، وان الآلاف يتزاحمون اما لبيع اعضائهم أو للتقدم الى مكاتب الحصول على انسان التجارب. غير ان صوت أهالي الخلاوي سمع خارج الخطط وداخلها، كشف عن عمليات الاختطاف التي تقوم بها عصابات العناني، وناشد الأمم المتحدة التدخل لأن تجارة الرقيق عادت. عند هذه النقطة وبعد تردد مجدي رمزي أربع مرات على المنطقة الفاصلة اتصل بالعناني، قال إن كل محسوس يباع لكنه سيعرض للبيع ما لا يرى ولا يمسك بيد. انشأ مكتباً لتصدير التاريخ. وهذا ما لم يخطر ببال انسان من قبل. صحيح ان تصدير الآثار وبيعها مستمران. لكن بيع التاريخ. هذا ما لم يفكر فيه مسئول، ولم يستطع أحد أن يتصور امكانية تحققه.

لم تر ايثار زوجها هادىء البال مطمئناً كما تراه الآن، تعجبت، لان اضطرابات وقعت بسبب شحة الخبز، وقلة وجوده، وتكالب الناس عليه. لاحظت قلة شروده. ومداعباته لها التي تكررت، كان يحتضنها مقبلا، أو اصراره على مضاجعتها بعد ارتدائها ملابس الخروج، صاحت محتجة

لكنها تفجرت فرحاً لانه لا زال يشتهيها ثم عاد إليه شروده.

لكنها لم تفقد الأمل في استعادته من حين إلى حين، ستظهر معه في الصورة حتماً، ستحتل حيزاً الى جواره. ستدلى بحديث الى مجلة أو صحيفة أو محطة تليفزيون عن علاقتها به، كيف بدأت، كيف تعلما، وعاشا معاً، ستتحدث عن عاداته، وعن املها في خصوله على جائزة نوبل، واقتناعها بان ما قدمه الى الخطط اهم بكثير من تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب.

المهم ان تظهر في الصورة. فجأة دبت الحركة في البيت، جاء إليه عدد من المواطنين الذين وفدوا من بلاد اجنبية. في هذه الفترة سحبت الجنسية الخططية من سائر الأهالي الأصليين، وصار من الضروري تجديد اقامتهم كل خمس عشرة اسبوعاً، اما الاجنبي فيمنح الجنسية فور وصوله الى الخطط، واستثنى من ذلك ابناء دول العجم أو من يتعاطف سهم وينتمي الى القارة الاوروبية او القارة الامريكية اللاتينية. ما أذهلها ان مجدي يتحدث اكثر من عشر لغات مجهولة، غير منتشرة. تكتشف انها تجهله في الوقت الذي تظن احاطتها بكل شيء عنه، لكن فضولها لم يضعف ازاء ما يجري. أقام زوجها معرضاً ضخماً للحضارات التي عرفتها الخطط، ونماذج متقنة لكل ما تخلف عنها، وقسم خاص يضم كافة المعلومات المتاحة، الشخصيات. المعارك، الهزائم، الانتصارات، الفتوحات،

الجيوش، الديانات، الحياة اليومية، الزراعة، الصناعة، التجارة، علوم السحر، المرافيء المندثرة، العملات النقدية المتبقية والأزياء الرسمية والأغاني، النصوص الموسيقية، المتن الدينية، كتب الموتى، التعاويذ، في الخارج نشر كتيب صغير قال فيه مجدي رمزي إن التاريخ أمر مشكوك فيه. أحداثه لا تلمس ولا ترى، التاريخ الحقيقي هو اللحظة الآنية المعاشة، أي انه يولد ويفنى معاً، اذن فلا وجود له، انه وهم يتعلق بأخيلة الناس، تستخدمه بعض الأنظمة لاغراض معينة. ان هذه النظرة نضجت تماماً في الخطط، وسوف يمضي وقت طويل حتى يقتنع العالم بما تم التوصل إليه. من هذا المنطلق ستطرح الخطط تاريخها للبيع. تم انشاء توكيلات في العواصم الرئيسية. توكيل للحقبة الحجرية والبرونزية والجليدية الأولى والجليدية الثانية في بروكسل. وتوكيل للحقبة الفرعونية في شيكاغو، وتوكيل للحقبة الرومانية والاغريقية والفينيقية في كولومبيا. وتوكيل للحقبة البيزنطية والبابلية والآشورية والهند واوروبية في مينيسوتا. وتوكيل للفترة العربية في بوسطن، قام كل توكيل باعداد كتالوجات حوت كل ما يتعلق بالعصر. انتشر سماسرة لا حصر لهم في الدول المستقلة حديثاً. والدول محدثة الثراء، وحملوا قوائم الاسعار والعمولات، وسمح للأفراد بالتقدم. وفي البداية

جرى إقبال لا حد له على التوكيل المختص بالمرحلة الفرعونية وذلك لثراء مخلفاته وآثاره. أبدت عدة دول كبرى رغبتها في شراء الفترات المنتمية الى هذا العصر، سرى حماس شعبي هائل في الولايات المتحدة عندما أعلن رئيسها عن مشروع سوف يتقدم به إلى الكونجرس لشراء الأجزاء الممتازة من الزمن الفرعوني العتيق. سجلت اجهزة الرأي العام ارتفاع شعبية الرئيس بعد اتخاذه هذه المبادرة، كما ازدادت فرص فوزه في انتخابات الرئاسة المقبلة. ولوحظ ارتفاع سعر الدولار في مواجهة الين الياباني. تقدمت فرنسا لشراء عهود الرعامسة بأكملها، وعرضت أعلى نسبة عمولة ممكنة، اضطر التوكيل التجاري المختص الى الزام الدول الراغبة في شراء الفترات الزاهية الى شراء بعض الأجزاء الأقل أهمية. خوفاً من انعدام المشترين لتلك المراحل. لكن ماذا يعني بيع فترة أو عصر او عدة سنوات أو عهد او يوم معين وقع فيه حدث بارز كانتصار هائل، او مجد عظيم، او اكتشاف مؤثر هز العلوم أو ابداع فني او عمراني؟ كيف يمكن ذلك وهذا ما لم يسمع انسان بمثله ولم يعرف من قبل؟ كيف جرى ذلك في الخطط كيف؟. ان البيع يعني - يا اسفي وحرقتي ولوعة ايامي - اسقاط المرحلة المباعة من تاريخ الخطط الغالية، الخطط الدرية، الخطط ذات العماد التي لم يخلق مثلها في

البلاد، الى الأبد تحذف تفاصيلها من الكتب المتخصصة، والمناهج المدرسية، ويمنع التباهي بها. او تذكرها، او الاشارة إليها. تنقل كافة الآثار المنتمية الى الزمن المباع لتصبح ملكية شرعية للجهة التي دفعت الثمن واجزلت العمولة، ويصير من حقها الحصول على أية آثار اخرى يتم اكتشافها فيما بعد مع مراعاة الفروق في السوق العالمي. هكذا جرى، تم تفكيك مجموعة الاهرامات النادرة التي تقع على مسافات متفاوتة في الخطط. والمعابد ذات الاعمدة والواجهات والأسرار المكنونة، والتماثيل التي عجزت الرياح الموسمية والتقلبات الجوية والهزات الأرضية عن تشويه ملامحها، او النيل منها، والكنائس الخشبية المنمنمة، والايقونات، والمساجد الهائلة الراسخة المشيدة في عهد السلاطين، نفذ المعروض من الزمن الفرعوني في فترة سريعة، ساعد ذلك على ترويج العصور الاخرى. وجرى اهتمام بالزمن العربي، وطالب الكنيست بسرعة اغتنام الفرصة بواسطة الجماعات الموالية. في هذه الايام التي تضاعفت فيها الاحزان وصل الى الضاحية الاولى ثري نيوزيلندي وطلب شراء الاعمال الشعرية الكاملة لمحمود سامي البارودي. اعتذر مجدي رمزي لانه من الضروري شراء الفترة الزمنية كلها. لكن الثري النيوزيلندي اعترض لأن الشاعر عاش في عصر حديث نسبياً، وهذه الفترة لا يمكن

بيعها. نفى مجدي ذلك. كل شيء معروض للبيع حتى صباح اليوم، وحتى أصيل الشمس التي لم تغرب بعد. والذي لن يباع الآن سيباع في اللحظة التالية. طلب مهلة للتفكير، وحقيقة الحال ان الثري النيوزيلندي أوحى إليه بمشروع جديد. هو انشاء توكيل لبيع الأعمال الأدبية والفنية البارزة بمعزل عن العصر، واتخذ حجة بدت وجيهة. وهي ان الشاعر او الرسام او الموسيقي ربما عاش فترتين متصلتين، متعاقبتين، هذا سيخلق منازعات ربما تتطور الى حروب اذا بيعت الحقبتين إلى جهتين مختلفتين. واستثنيت سائر الاعمال الاثرية والفنية التي لا يعرف خالقيها. وهكذا بدأ التوكيل الجديد نشاطه، ويعني بيع اعمال شاعر او رسام أو مؤرخ انتقال تبعيتها الى المشتري الذي دفع. والعجيب ان المتقدمين لهذا التوكيل جاء معظمهم من داخل الخطط نفسها، ان الاعمال المعروضة للبيع لا تدر عائداً مالياً ضخماً، ولكنها تمنح وجاهة خاصة. تقدم التنوخي لشراء لوحات الفنان الراحل محمود سعيد، وثلاثية نجيب محفوظ، واشعار كفافيس، وشوقي..

اقام حفلا دعي إليه عدد من الشخصيات الرئيسية، وفيه تم كشط اسم محمود سعيد من اللحوات، ثم وقع اسمه، وتحدث عن المعاناة التي مر بها عندما كتب الثلاثية، واهدى نسخة من الطبعة الجديدة الموحدة، بين القصرين بقلم التنوخي، وكذا

قصر الشوق والسكرية. وقال مجدي رمزي ان الخلود وهم. لهذا امر بالاستيلاء على كافة الآثار الفنية التي ظهرت خلال القرن الأخير وبيعها لمن يرغب. ماذا يضير صاحبها الأصلي بعد رحيله عن الخطط إلى الأبد؟ حروف تحل مكان حروف، ما من خلود مطلق، انتاب التنوخي كمد. ظن انه اضاف الى هيبته مقداراً بعد ان اصبح رساماً وروائياً بفلوسه وها هو مجدي يصرح بأفكار جديدة تلقى ترحيباً. ليته اصغى الى عرض الهلالي عندما طلب منه ان يكتب رواية. لم يفعل، لماذا؟، لا يدري الآن. لم يقتصر الأمر على الراحلين. بل شمل الأحياء الذين حققوا شهرة تعدت الخطط. جرى ضغط ثقيل عليهم. ذهب مجدي رمزي بنفسه الى روائي كبير من مواليد الخطط معروف في العالم العربي، لكن الرجل الذي يقترب من السبعين أبى واستنكر. عاد إليه مرة أخرى ومعه اغراء كبير. بيت من طابقين بأجمل مناطق الحي السابع، وراتب شهري من اللحم. لكن العجوز شخط فيه، انصرف مجدي رمزي. بدأ التليفون يدق في بيت الروائي الكبير الذي يعيش في عزلة منذ عبوره الميدان الكبير، متكلمون مجهولون، يسبونه، يهددونه، يزجرونه، في صباح كل يوم يجد أحدهم قضى حاجته امام باب بيته. انطلقت رصاصة مجهولة بجوار اذنه. جاء يوم بدا فيه البيت

هادئاً، رن التليفون بلا انقطاع، اختفى الرجل، ابدى مجدي ضيقاً، وطلب العون من العناني. بعد اسابيع نشرت صحيفة اجنبية خطاباً، قال الروائي العجوز انه لجأ الى الخلاوي بمعونة زينة شباب الخطط سليمان، انه يقاسي المشاق. لكنه لن يبيع أي عمل من أعماله أبدا، على العكس من موقف الروائي الكبير تقدم بعض الذين لم يحوزوا شهرة، وعرضوا انتاجهم مقابل اثمان بخسة، لكن سوقهم كانت كاسدة، اضطر مجدي رمزي الى تخصيص مساحة محدودة من امتداد الضاحية، امر بوضع دكة عالية، خصص يوماً من كل اسبوع يجيء فيه الكتاب الراغبين في عرض انفسهم للبيع، يقفون فوق هذه الدكة، يتلون بصوت عال نماذج من كتاباتهم، يبرزون قدرتهم على التبرير، أو المديح، أو النفاق، أو التأييد التام، ثم يقدم احد المثمنين بتعديد المزايا، وابراز الخصائص. جاء الى الدكة بعض الفنانين التشكيليين، واساتذة الجامعات الراغبين في بيع بحوثهم القديمة. لكن منتجاتهم لم تلق رواجاً، لم يقبل عليها أحد، عانت انحطاطاً في الأثمان. لهذا عرف المكان بدكة الكتاب.

المعبد الليلي..

.. يقولون ان الخطط محمية بابنائها المخلصين، وبروحها الخفية التي تسري. وان من ارادها بسوء قصمه الله. تناقل الخلق احداثاً وحكايات مجهولة المصدر، مفتقدة لليقين، لكنها، لكنها كثرت. قيل ان رجلا رفض ان يحيى مواطن خططي جديد من الذين جاءوا عبر البحار، وان عمال المخابز اضربوا بسبب ما يشاع عن قرب الغاء اللغة العربية المتداولة منذ ألف الف عام. وان العجم توحدوا بعد طول انقسام، ولحقوا بالخلاوي، وان طائرة عمودية اسقطت، ثم تداول الناس اخبار المعبد، معبد صغير، عظيم القيمة، يقع قرب الصحراء الغربية، شيد منذ ثمانية وأربعين الف شهر ميلادي، عند نهاية أفول الزمن الفرعوني العتيق. اثناء بداية الزمن الروماني الوثني، وقتئذ قام الأجداد المندثرون بالتوجه الى هذه المنطقة الوعرة وبدأوا في بنائه شيدوه في الليل. كانوا يختفون في النهار ثم يمضون إليه ويعملون حتى الفجر، بني المعبد كله في ضوء النجوم الواهن، ونقلوا إليه تمثالاً لطائر غريب من الزمرد الأخضر، حارس الخطط، هذا التمثال استقر في فترة مبكرة من العصر الحالي بمغارة حفظ الآثار، انه طائر مجهول الجنس، ليس بحدأة، وليس بصقر، وليس بنسر، يصدر التمثال عند شروق كل شمس اصواتاً هامسة اما

الأصل الحي فلا زال يعيش في الخطط، كان عشه فوق الشجرة النادرة، ثم طار منها، وظل محوماً في السماء، مجهداً، حتى أكدت الروايات المتناقلة انه شوهد فوق الخلاوي، وانه حط فوق صخرة مدببة في أعاليها. انه اول مخلوق سكن الخطط وآخر من سيفارقها ولا يدري انسان ما مأكله أو مشربه، أو كيفية تناسله، اهو زوج أو فرد؟، تفاءل الناس بظهوره، اختفى المعبد، ولم يستطع شرح ذلك المفسرون والقائلون. قيلت أسباب، منها هبوب عاصفة رملية غطته، وانه لا زال في مكانه، قيل ان الطائر الأخضر نقله حجراً حجراً، وان المعبد في موضع امين، قيل لجدي رمزي ان مصلحة تهريب الآثار عجزت عن حمايته فثار ثورة عظيمة لان بيع المعبد شرع فيه فعلا، رفض كل الحجج، ان تفكيكه كما تقول الدراسات الكومبيوترية يحتاج الى شهر كامل، كيف يختفي في ليلة؟ اما نقله إلى منطقة الخلاوي فمستحيل لانها تقع على مسافة نائية، اتهم عصابات السطو المسلح بالتهاون، وانها بدأت تستعيد ملامح البوليس القديم. ذلك يعني تهديد الأسس التي قامت عليها الخطط، رد العناني بسرعة، اعلن في بيان مكتوب، ان القاعدة العريضة من الخطط منحرفة، ونظرة واحدة الى الشارع تبين مدى الاستهانة، والبلادة، وانقراض كافة القيم البالية، أكد ازدهار الأنانية، وتطور

الاستهتار، وتعاظم الدعارة، وفساد الأسباب، كل ما في الأمر ان ثمة قلة شريفة تتمسك بالاخلاق، وتتعلق بالتاريخ، وتدعو سراً إلى الشرف والأمانة، ان هذه القلة جارى مطارتها، وهذه القلة من الضآلة بحيث لن تعطل أبداً التدهور الذي يمضي بمعدلات عجيبة اذهلت العدو قبل الصديق، ونفى تسرب خصائص الشرطة الى عصابات السطو، ودلل بارتفاع نسبة الجرائم، القتل، والاغتصاب، والتزوير، ما من ساكن للخطط يمكن ان يأمن على نفسه الآن، وهذا انجاز يجب عدم تجاهله بسهولة، وانهى العناني بيانه بدعوة الأجيال الجديدة في الخطط الى التريث قبل اصدار الأحكام، عد هذا البيان اعترافاً علنياً بوجود من يناوىء الأحداث الأجسام. وانتهز التنوخي الفرصة فطلب من العناني التدخل لاقصاء مجدي رمزي بسرعة، لكن العناني كان مشغولا بما وصله من معلومات عن هجوم كبير وقع على أطراف الحي السابع. قدم المهاجمون من نواحي مختلفة، واستخدموا تكتيكات حديثة، والحقوا خسائر، وسرعان ما دب القلق في الخطط بأسرها..

* * *

حروب الخلاوي..

.. من شهر بثونة انقضى خمسة أيام، اشتد الحر في سائر الخطط، جف الهواء، وتيبست الغصون، ثم هبت فجأة رياح لم يعهد مثلها في مثل هذا الوقت من العام، ولأن مرصد الخطط تم بيعه فلم تصدر نشرة، ولم يعلن ايضاح. وجفت قلوب الناس، ولهجت الألسنة، بوقوع حدث عظيم، استمر هبوب الرياح سبعة أيام ثم حملت معها غبارا أسود مما دعى بعض المعمرين الى القول بأنها الرياح السود. علامة من علامات القيامة، يا لطيف، يا الله. السلامة، يا مولاي خف الكرب، هانت الخطط على اهلها وناسها وشخصياتها فظهرت علامات النهاية. ومع بداية المطر الموحل نزل اهالي الخلاوي من أعالي الجبال كالجراد المنتشر، تفرقوا في مجموعات، عرايا، نحاف، حفايا ومع ذلك قطعوا المسافات فوق الصخر المدبب، والأراضي الساخنة سرعة عدوهم لا تقارن، وصبرهم لا يضاهى، خبروا كل أنواع الضيق، والبلايا، من قلة الراحة وقعوا على الجفا، هجرهم من بعد العدو حبيب، تقدمهم

ثلاثة، الياس، والخضر، والوتيدي، الخضر قلبه على الخصوم جاحد، قبل نزولهم من الخلاوي طلب عدم الرأفة، وانقاذ ما يمكن انقاذه من الخطط، لا هوادة ولا راحة بال إلا بعد استعادة زمان الخطط الحلو، الرائق، الخضر انهى انقسامات العجم، دعاهم من ساحة العجم الى الخلاوي. لحقوا به، وحذرهم من أي تفكير في انقسام حتى تعود الخطط كما كانت واحسن، انقسامات العجم أحدثت الخلل لزمن طويل، بلغت ذروتها بعد اجتياز الميدان الكبير، وقتئذ كانوا موزعين على فرقتين رئيسيتين. الأولى قالت ان ثمة شيئاً خفياً يجري في الخطط يستهدف العودة بها الى الوراء، وتقديمها وجبة جاهزة الى الأعداء. الى كل من أراد الشراء، أما الفرقة الثانية فقالت ان الأمور لم تعد كما هي وان الوضع اختلف بشكل جذري عن القسم الذي ضم الخطط والأسوار، لكن هذا لا يقتضي ردود فعل حادة كما تريد الفرقة الأولى. ثم شهدت ساحة العجم مناقشات عديدة داخل الفرقة الأولى وكان ذلك في زمن الهلالي عند بدء المتغيرات الكبرى في الضاحية الأولى. رأى البعض ان هذه المتغيرات ليست الا مقدمات للأخبار الطوال، زوال الضاحية يعني ان الأمور صارت صعبة، وقيل رأي آخر مضمونه ان الأمور لم تعد صعبة. صدر بيان من المجموعة الأولى وبيان من الثانية وجرى

الانقسام، ثم تبودلت اتهامات، ثم توالت الانقسامات داخل الفرقة الأولى حتى بلغت سبعين انقساماً، وداخل الفرقة الثانية وصلت الى أربعين، جرت اغتيالات، وتصفيات جسدية، ومجادلات عقلية، واتهامات بخيانة الخطط، والعمالة لجوهر العناني وللتنوخي، بل للأعداء. غير أن اغرب موقف ذلك الذي اتخذته مجموعة اعتقدت في مجدي رمزي، ورأت فيه امكانية لتغيير افضل، وانه يعمل بشكل غير مباشر لمصلحة القاعدة العريضة في الخطط. وفسروا تصرفاته تفسيرات عجيبة، ومن ذلك بيعه للدكتوراه، وقولهم ان ذلك مجرد خطوة من جانبه للتخفي، واظهار خلاف ما يبطنه. وقالوا بأن التشنجات لن تفيد. وان مجدي رمزي بقعة مضيئة، لا بد من الوقوف الى جوارها، بل ان أحد أفراد الجماعة عرض نفسه فوق دكة الكتاب وعدد فضائل مجدي وتغزل فيه، ودعا الى طاعته. وبعد ان تزايدت الانقسامات حتى وصل الأمر بالمجموعات الى الانقسام فرادى. صار كل فرد يمثل رأياً، واتجاها، واعتقاداً، ثم انقسم كل فرد على نفسه، حتى أن أحدهم أصدر ثلاثة بيانات في يوم واحد كل بيان يناقض الآخر ويرد عليه. استفحل البلاء. وهنا بدأت هجرة شباب العجم الى الخلاوي. ويقال ان الخضر، بذل مجهوداً غريباً في توحيد الكلمة، ابدى ليناً، واظهر قسوة، واخذ هذا منه مقداراً

هائلا حتى تمكن من ايجاد حد أدنى للاتفاق، وهكذا دخل العجم فرادى وجماعات تحت اللواء الذي عقد له لقيادة خلاوي الخطط، خلت ساحة العجم القديمة. زحف الخراب اليها ونبت العشب ودبت السحالى وتناثرت الأحجار. ثم زالت فيا بعد ما أزيل من الخطط. واستبدلت ساحة العجم بفرقة العجم التي تبعت الخضر خلال عمليات الهجوم الضارية. ازعج هذا العناني واهالي الضاحية النائية، واستدعوا خبراء في مكافحة العجم. اشتركوا في الهجوم الكبير على الحي السابع، وكان هجومهم مرا، قاسيا، جرت فيه الأعاجيب، انطلق الخضر كنار حامية. صوبت نحوه آلاف الطلقات الكاشفة والمعتمة، سددت بعضها من مسافات ومن قرب، وبدا كأنه لم يخدش، وتناقل الناس ما قيل عن الحجاب الصغير المدسوس تحت جلده والذي يقيه الشظايا وسم الأفعى ولسعة العقرب، وقدرته على الرؤية من بعد قصي. هوجمت مراكز العصابات المسلحة، اخذوهم بضربات موجعة، فتكوا بالاغراب، صار الهم ثقيلا عند كبار الخطط. في كرهم على الحي السابع انقذوا آثاراً قديمة كانت معدة للبيع، ومخطوطات نادرة، منها مصاحف بخط اليد العجيب، وايقونات، وبحوث علمية، ومتون، وفي مرة أخرى حرروا فتيات مستديرات الكعوب، ناهدات الصدور، كلهن في

الرابعة عشر، ابكار، خطفن واعددن للتصدير، يا عز اهالي الخطط. في هجوم ثالث أوشكوا على الوصول الى المقر الرئيسي لقيادة العصابات المسلحة في الجزء الشرقي من الحي السابع، وتصادف وجود العناني هناك، يا سوء حظ أهالي الخلاوي. بدا واضحاً ان هؤلاء المقاتلة ذوو قدرات تفوق الطاقات المتوقعة. وبدا الأمر كالحلم، انهضي وقومي يا خطط، لم يعد الوهم مستحيلا، والأماني ليست بعيدة عن التحقق، ما القول يا من تتابعون ما يجري منذ زمن؟. يا من ظننتم ان كل شيء صار هامداً، لا روح فيه، لم يعد ممكناً التمويه على السكان الأصليين، أو المواطنين الأجانب، أو العالم الفسيح الممتد خارج الخطط.

عرف الكل ان الجبال الصخرية المهجورة منذ أن قيل للأشياء، كوني فكانت، لم تعد خالية، وان أنفاس الانسان تتردد فيها، وان حياة بأكملها تدب هناك، اختلف الرواة، قالوا إن أهالي الخطط عاشوا هناك منذ الخليقة، إلا يعرفون المسارب والدروب، الا يجتازون في كل ليلة العوائق السبعة. انهم ادخروا أنفسهم ليوم كهذا، منهم اعلم خلق الله بالكائن من الأمور الماضية، والكائن منها الذي لم يكن بعد، وأن ثمة اخبارا جاءتهم من الأوائل، وكلهم ماضون الى حسن الختام. محصنون ضد الشظايا، الواحد منهم بألف، الحرب لهم وهم

لها، وقيل أيضاً عكس ذلك فكلهم من الذين عانوا الهم والنكد وقاسوا ما لا خير فيه. عاشوا في الشوارع والأسوار، ضاق بهم الحال، فهجروا الى الخلاوي. مات كثير وبقي القليل. الذين قاموا بالهجمات هم من اجتازوا العقبات الرئيسية، وشظف الرقاد، والحرمان، وقسوة الحال، وضراوة الحنين، يهون في نظرهم الموت، يا خطط...، لم تتوقف الهجمات خلال موسم المطر الكبير، وفي نهار ساطع هوجم المقر الرئيسي لجريدة الأنباء ودمر تماماً، واشتعلت فيه نيران حادة، ذات لهب غريب، وسمع لانهيارها قعقعة من بعيد، وراحت كل الجهود التي حاولت اطفاء النيران، أو انقاذ المبنى، وهكذا زالت جريدة الأنباء كأنها لم تقم في الخطط، ولم يحدث فيها ما حدث، انقطع ذكرها تماماً، وخلت الخطط منها، لم يرثها مخلوق، ولم يبك عليها انسان، حول المبنى جرى الدم، الغريب ان جثة واحدة من قتلى الخلاوي لم تتبق. حتى ردد عجائز معمرون ان قوى خفية قامت بالهجوم، لكن دلت الشواهد أن أهالي الخلاوي لا يتركون قتيلا أو جريحاً، وعدا ذلك من محاسنهم، ويبدو انهم انتشروا في الخطط، وانهم قبعوا او كمنوا أو اختفوا في مواضع مجهولة يثبون منها في لحظات معلومة. «بدأ الجهاد يا خطط»، من ناحية اخرى اطلق رجال العناني النار في الخطط، راحوا

يكبسون الدور والخلق نيام. ويوقفون المارة، يرقبون ويفحصون، وينبشون التبن في الاجران، ويدقون الجدران، ويبقرون الحشايا، ويعدون ذرات الكحل في العيون، وامتلأت السجون الفرعية. وحدث ان هوجم مقر السجن المركزي، ومبنى جديد في الضاحية الأولى خصص لتاريخ الدعارة في الخطط واشهر العاهرات. وجرت محاولة لحرق دكة الكتاب. واختطف الدكتور عبد العظيم السوافيري، ووصلت رسائل بطرق مختلفة الى الذين تأهبوا لعرض أنفسهم فوق الدكة. استعان العناني بأجهزة مخابرات اجنبية لم يعرف عددها، بعد جهود امكن تحديد أحد الشخصيات الرئيسية الثلاث، انه أحد الذين لفهّم الغموض في الأسوار واسمه الياس، ظهر في الميدان الكبير لثوان معدودة، ثم جاء من الخلاوي، لكنه كان جهما، معتما وليس مرحاً، ودودا، كما بدا في الأسوار، عرفوا عنه حدة السمع واستطاعته الاصغاء لمسافات لا نهاية لها، وتأثيره على تابعيه لا يضاهى، يقود العمال الذين رفضوا استنكار الخزان الكبير، وأعداداً مجهولة من البنائين، والنقاشين، والمرخمين، وصياغ الذهب والفضة، والسروجيه، وعمال الموانىء، والبحارة الذين انقطعت اسباب رزقهم بعد بيع وحدات الأسطول. ثم اتضحت شخصية

أخرى، وكاد العناني ألا يصدق نفسه عندما تبين له الاسم. الوتيدي أقوى شخصيات الخطط، وامتنهم بنيانا، وأكثرهم استكانة وخضوعاً.

كيف؟ لم يصدق العناني في البداية. وعندما تأكد من النبأ، امر باخراج ابن الوتيدي الوحيد، وعرضه في قلب الحي السابع، شدد عليه الحراسة، ثم اعلن بكل الوسائل ان اعدامه سيتم خلال اثنتي عشرة ساعة اذا لم يسلم الأب نفسه، وفي حالة ظهوره فسيمنح مبلغاً من العملة الصعبة ويسمح له بمغادرة الخطط مع وحيده.. مضت الساعة تلو الساعة، كثرت الأراجيف، والأقاويل، صحيح ان الوتيدي هائل البدن، قوي، حاد الرؤية الى درجة مذهلة، حتى انه ما من حركة في ليل الخطط الا ويرصدها من مكمنه في الخلاوي، اذا قبض جمجمة انسان طقشها كالبيضة، يمكنه جر دبابة بأسنانه، لكنه رقيق القلب، لا يطيق ايذاء نملة بدون حق، لا يميل على الضعيف، كيف سيتحمل تقطيع ابنه في العراء المبين، لا بد انه سينزل، سيظهر، سيقف في اللحظة الأخيرة لينقذ ولده، لكن مع نهاية المهلة المحددة لم يعبر الساحة مخلوق، حتى الحيوان نأى وابتعد، ونزل صمت كخمدة القبور، يا لطيف ألطف، فيما بعد تناقل الخلق جلد الوتيدي وخروجه الى اقصى ذروة في الخلاوي، وطلبه من الياس ان يرسل

البصر الحديد وان يصف له ملامح ابنه الذي لم يره منذ حين ومقدار، اصغى مغمض العينين، واستدعى صوراً بعيدة، من طفولة منسية، وساقين تحاولان الخطو، ولسان ينطق الحروف الأولى، ولقاءات ما بعد عودته من العمل، والأحضان الكتكوتية الدافئة، والتعلق الحميم، وبكاء اليوم الأول في المدرسة، ولحظة ظهور النتيجة، ولحظة المواجهة في الزنزانة عارية الأطراف، ثم انقطاع الأحوال «يا مهون على الأحباب» لمدة سبع ليال لم يأمر الوتيدي فرقته بأي هجوم، حتى ظنوا به الظنون، ولكنه في صباح اليوم الثامن زعق زعقة هائلة، نزل من الخلاوي، واشعل ناراً لا تنطفىء في منطقة جديدة خصصت كلها لسكنى الأجانب، سأله الخضر لماذا لم يبادر بالهجوم ليلة اعدام ضناه؟ فقال إنهم كانوا ينتظرون ذلك، لكنه آثر ان يخيب توقعاتهم، رويت حكايات لا حصر لها عن الوتيدي، عن الوتيدي، ولم يذكر انسان ماضيه في الأسوار البعيدة، أو الشوارع أو الميدان الكبير. حتى العناني قال انه لم يتصور أبداً تبدل حال انسان كما حدث للوتيدي. بات معروفاً له ان هناك شخصية ثالثة تمثل القلب، تقود المرابطين والعجم وكل من هتف يوماً بحياة الخطط أو رفع العلم، أو أنشد القصائد وردد الأناشيد، لكن لم يستدل عليه احد، ولم يحدد ملامحه أي جهاز مخابرات،

واضطر الخبراء الأجانب الى دراسة ما يشاع عنه، ومن ذلك ولادته في الخلاوي، ونطقه بالشهادتين وهو في بطن أمه، ورضاعته من نبع خفي يسيل منه لبن لا مثيل له في الخلاوي، وانه يستحم يومياً في النيران الأزلية، كما انه يعاشر الحيوانات والأفاعي والطيور النادرة ويعرف لغة كل منها، ويحفظ الخلاوي حجرا حجراً ولولاه لما استطاع انسان ان يعيش هناك أو يتنفس، كما انه الأمين على سر المغارة العظمى التي تم حفظ الآثار القديمة فيها، وانه لا مستقر له، يضرب في كل مكان بالخطط، خطوته واسعة، ويمكنه الظهور في مكانين متباعدين في وقت واحد، لا ينام أبداً، يجول النهار ويسهر الليل. من هو؟ لم يستطع العناني التوصل الى ملامحه، الى اسمه، الى أية نبذة عنه، عند هذا الحد بدا واضحاً ان عصابات السطو المسلح لا يمكنها مقاومة الامر بمفردها، وتردد ان العناني بدأ المفاوضات مع سبعة جيوش اجنبية لدعوتها بغرض الاقامة الدائمة في الخطط، والاشتراك في الحرب ضد أهالي الخلاوي، وان الدول السبع تدرس الأمر بجدية، واعلنت الولايات المتحدة انها سترسل الى عصابات الخطط مائة دبابة من طراز أم - ٦٠ المتطورة، وطائرات عمودية مصفحة، واعلن أكثر من مرة ان العناني غادر مقره ليشهد مناورة كبرى بالذخيرة الحية في مكان ما من الخطط، لكن

معنوياته تدهورت تدهوراً خطيراً بعد ان جاءت الاخبار باستحالة الاقتراب من منطقة الخزان الكبير، حتى قيل فيما بعد ان أسود يومين في حياة العناني، يوم ان بلغه اتحاد العجم ويوم اعتبار الأراضي المحيطة بالخزان منطقة محررة يسيطر عليها اهالي الخلاوي. مما زاد في ضيقه ان أجهزة البحث سجلت نمو الثقة بين السكان الأصليين، وكانت قد اهتزت بشكل وراثي حتى ان الطفل لم يعد يستغرق نفس المدة الزمنية اللازمة للمشي، أو الكلام، وصل بعضهم الى سن العاشرة وهم يتهتهون ويخلطون، الآن يوشك أن تعود الأمور الى وضعها الطبيعي، ونشطت حركة الحفاظ على الآثار الى حد مزعج يحدد بإلغاء كل التعاقدات. وحدث أن احد الثلاثة الأقوياء نزل متستراً بالليل، واطبق على عشرة لصوص قدامى فصرعهم، اقتلع تمثال من قاعدته، تمثال من حجر الديوريت النادر، فادح الوزن، سار به مسافة طويلة الى هدف مجهول، وهكذا انقذ التمثال الذي كان بيعه مقرراً مع حقبة تاريخية تنتمي الى فجر الخطط العتيق. صار أهالي الخطط الأصليين اذا سمعوا باختفاء تمثال او حلية نادرة أو مخطوط مفرد لا يصدقون إلا انه في حماية اهالي الخلاوي. حتى لو تم تصديره. بل تردد ان ثمة جماعات في اطراف الدنيا الفسيحة من أهالي الخطط تنوي اعادة سائر ما نهب. وانهم

سيبدأون بالفترات التاريخية المباعة، كيف سيتم ذلك؟ هذا ما لم يعرفه أحد. وصلت الأمور الى حد خطير، مما دعا التنوخي، والعناني الى توجيه نداء حاد. يناشدون فيه الأستاذ الظهور، والعودة فكل شيء في حاجة اليه، لكن مجدي رمزي لم يعجبه ذلك، توجه الى الضاحية النائية، غاب أياماً، ثم عاد ليبدأ في تنفيذ ما لم يخطر على بال. قال إن اعداء الخطط يدخلون اليها ويخرجون منذ عهد الأستاذ، احياناً خفية، وأحياناً علناً، ان العداء القديم يجب أن يزول من النفوس ليس من المعقول ان تستمر الحروب أربعة آلاف عام، كثير من اللوحات الآثرية تحمل ما يعبره عن هذه المعارك وجاء ذلك في نصوص الأشعار، والقصص المتوارثة مجهولة المصدر، الأطفال يرضعون كراهيتهم منذ الصغر، لماذا؟ من مات في الحرب ضد الأعداء راح على حاله. نسي ذكره وضعف خبره، اقرب الناس اليه ضحكوا من بعد عبوس، والأرامل تزوجن أو أحببن رجالا آخرين. لماذا القول بضرورة الثأر لهم، بعض افراد من القلة الصالحة المستقيمة التي خرجت عن اجماع الخطط يقولون لا بد من استرداد الأراضي الشمالية المغتصبة، لماذا؟ هل اغتصب الأعداء هذه الأراضي في زماننا، إنها مسئولية الأجداد الذين تهاونوا وتقاعسوا، لماذا يدفع ثمنها الأبناء والأحفاد؟ هل نحن الذين

أضعنا الأراضي الشمالية من الخطط القديمة. لكن أبناء يومنا فحسب. بعد التخلص من تاريخ الخطط الذي أثقلها أكثر مما يجب، لم تعد هناك مقدسات تعني الأيام الرواحل، والبعد الزمني، والخطط الآن بلا تاريخ، ان العناني يدعو سبعة جيوش أجنبية للاقامة في الخطط، لماذا؟ ان الجيش القوي على مرمى البصر، انه جيش الاعداء، لنفتح له الأبواب، عند هذا الحد انزعج العناني لأول مرة انزعاجاً شديداً من مجدي رمزي، الخطوة جريئة، واسعة، غير مسبوقة، تدفع بمجدي رمزي الى صدارة الخطط، اعلن العناني ان الانفتاح على الاعداء ليس بجديد وانه سبق له الاتصال بهم، وسمح لهم بدخول الخطط تحت جنسيات تختلف عن جنسيتهم الأصلية، كما انه سهل لهم القيام بأعمال التجسس، وذلك قبل انشاء مؤسسة بيع الأسرار، وتغاضي عن نشاطهم والحقيقة ان كل الترتيبات السابقة تؤدي الى النتيجة التي يحاول مجدي رمزي الآن الاستئثار بها. هل نسي الناس ما جرى في الضاحية الأولى، وخطة تغيير المفاهيم، واحباط الطموحات، من ناحية أخرى لم يهدأ التنوخي، ولم يسكت، قال لعدد من الصحفيين العاملين ومندوبي محطة ان بي اس الأمريكية ان الفضل الأول في الاندفاع نحو الأعداء يرجع الى الأستاذ، كان الأستاذ مؤمنا بالخيانة ويعمل لصالح اعداء

الخطط، طلب الرجوع الى الأسوار. الى مرزوق البلشي ليسألوه عن الرجال الغامضين الذين كانوا يجيئون في أوقات معلومة، هؤلاء من اعتى رجال مخابرات العدو. متى جرت هذه اللقاءات؟ في زمن تشييد الخزان الكبير، وبهذه المناسبة يذكر قولا للأستاذ «تقطر القطرة في موعدها، وكل امر له وقت ومقدار»، وضع الأستاذ البدايات ونماها، لماذا نتجاهله الآن؟ ليته ينهي استتاره ويظهر، ليته يعود ولو يوماً واحداً حتى تعود الأمور الى نصابها، وتعرف كل شخصية حجمها، غير ان حملة العناني لم تثمر، اذ صدر قرار من الضاحية النائية بانشاء مجموعة جديدة من الأوسمة والنياشين، وسام خائن من طبقة جاسوس أول. وسام السقوط، نيشان الخراب. ميدالية الرشوة الذهبية، وسام الافشاء وله ثلاث طبقات ويمنح لأشهر الجواسيس، اما أرفع تقدير فتمثل في وشاح الخيانة العظمى ومنح أول ما منح لمجدي رمزي، وجاءت التوجيهات الى التنوخي بمساعدته في تنظيم الاستقبال الحافل الذي سيجري للأعداء، وان يتولى الحي السابع توزيع اللافتات التي ترحب بالأعداء، أدرك التنوخي انها راحت عليه وان القطار فاته، اقصى ما استطاعه اباحة الدعارة وتحريم فعل الخير والتضيق على معايش الناس، هذه الآن أمور عادية، ولى زمانه في الخطط، وعليه ان يتقبل ما يسند اليه، أو يغادر

الخطط الى الأبد، لو التقى بهدى الحلاوي الآن، لو رآها لحظة لتعلق بها، وطلب منها أن تصحبه الى الخارج، لديه رصيد محترم من العملة الصعبة في أحد البنوك السويسرية، أين هي الآن؟ في اليوم السابق على دخول الأعداء الى الخطط حاول أن يتبول، لم يستطع، أصيب بحصر بول، نقل الى مركز علاجي خاص بالأجانب.

لم تعد هناك مستشفيات عامة أو خاصة منذ زمن، بكى غما وقهراً والماً، تذكر زمن اللذات المولّي، اثناء ارتفاع درجة حرارته افضى اليه الزعزاني بأن معارك عنيفة نشبت في الليلة الماضية، وأن أهالي الخلاوي يهددون الحي السابع كله، ولا بد من اتخاذ اجراء عنيف، وعاجل، لم يستطع التنوخي النطق، وعندما اصغى الى نشرة أخبار اذاعة صوت امريكا علم أن مجدي رمزي ابتدع بدعة جديدة عرفت بالاستفتاء اذ اعلن انه أجرى ثلاثة استفتاءات عامة، تم أولها في الصباح، والثاني في الظهر، والثالث في المساء، وان النتيجة في الحالات الثلاث مائة في المائة، وافق أهالي الخطط، كلهم بلا استثناء على دخول الأعداء مظفرين الى الخطط، جحظت عينا التنوخي، مجدي رمزي يطارده، اثناء تمدده فوق السرير اقترب منه رجل يرتدي ثياب التمريض الدولية. بدا وكأنه يحدث نفسه، في احد الأيام رأت حواء اربع صرر، قالت

لآدم.. ما هؤلاء؟ قال انهم الصبر، والقناعة والرزق والطمع، قالت: اذهب وهات الصبر، عاد ليقول ان الجمل اخذه. قالت: اذهب وهات الرزق، عاد ليقول ان الطير اخذه، قالت: اذهب وهات القناعة عاد ليقول ان الكلب اخذها، قالت.. آه.. لم يبق إلا الطمع.. انه قدر الانسان، ارتعد التنوخي، حكاية من الفولكلور الخططي الملغى، من أنت؟ لكنه لم يجد أي شخص أمامه، بينما الحرقان يكوي مثانته..، في هذه الليلة جرت استعدادات لا مثيل لها. اقيمت منصة اقيمت على عجل بواسطة القوائم الحديدية في نقطة مرتفعة قرب دكة الكتاب، ظهرت أعلام الأعداء خفاقة عالية بلونيها الأزرق والأبيض، وعلقت صور قادتهم الذين كانوا موضع سخرية رسامي الكاريكاتير، والصور المتحركة على امتداد قرون طويلة، وقف مجدي رمزي يحيط رقبته بوشاح الخيانة العظمى، وبجواره شخصيات مجهولة تظهر لأول مرة في الخطط، كان يمسك حبلاً حريرياً ناعماً ينتهي بشرشوب فضي راح يديره على مهل، سلطت العدسات عليه، واهتم المراسلون بالتقاط صور متعددة لزوايا وجهه، ولم يدر أحد منهم ان إيثار تعلقت بزوجها وزحفت على بطنها وشدت شعرها في البيت، توسلت اليه ان يصحبها معه، ان تقف خلفه فوق المنصة، ان تدلي ولو بحديث واحد الى الصحافة العالمية. ستخبرة مقدما بنصه، لن

تتحدث إلا عن عبقريته، وساعات معاناته التي سبقت اعلانه فتح الخطط بأسرها للأعداء، نهرها، دفعها، ضربها، ثم اغلق عليها الباب، تركها تندب حظها، وسوء بختها، وميل أملها، انه لا يفكر فيها الآن، بمجرد ان يفارقها تروح تماماً من ذهنه، وكأنها لا تنتمي اليه. انه هادىء، رصين، هذا البرود الذي عرف عنه منذ أيام دراسته..، بدأ صوته هادئاً..، «.. يا أهالي الخطط الدائمين، ويا سكانها الأصليين، تقترب الآن مجموعة حملة الأعلام، اعلام الأعداء، نفس الاعلام التي ارتفعت فوق مواقعنا الحصينة عند اطراف الخطط في كل هزيمة حلت بنا، انها الأعلام التي رضعنا كراهيتها ظلماً، ها هي ترفرف في سمائنا. أرى من موقعي الأطفال اليتامى يلوحون بالاعلام، وجوه بريئة لا تعرف الحقد القديم، حرضنا على اختيارهم، كل منهم فقد أباه أو أمه أو عائلة في غارة أو معركة..»..

ان طابور الاعلام يمر، تسود فترة صمت، تتردد هتافات..

يعيش الأعداء

يعيش قتلتنا..

يعيش من أذلونا..

ليحي الذل.. ليدم العار..

يستمر مجدي رمزي في وصف دخول الأعداء بنفسه..

« .. تمر أمامي الآن طوابير المشاة، انهم فخر الأعداء، كم اشهروا السناكى، كم صوبوا من طلقات الى صدورنا.. »

هتافات بعيدة، تبدو خافتة، ثم ترتفع..

« يعيش مشاة الأعداء.. »

« .. وتلك قوة العدو الضاربة، إنها تهدر بجنازيرهم فوق أرضنا، لطالما صبت علينا حمماً، انها الدبابات التي أذاقتنا مر الهزيمة ثلاث مرات... »

« .. في نفس اللحظة تمرق في السماء تشكيلات من سلاح الطيران المعادي، أهلاً بهم في سمائهم، كل طياري الخطط يعلمون البسالة التي يتحلى بها الأعداء، كان سلاح الطيران هو ذراعهم الطويلة، أوجعونا به، بفضله عرفنا طعم الشظايا الساخنة..

اننا نرى بأعيننا الذراع الطويلة للأعداء.. »

« تعيش الذراع الطويلة.. »

يعيش سلاح الأعداء الجوي.. »

« .. تسقط طائرات الخطط التي قاومتهم.. »

« .. ها هم أسور الماجوج، رجال المظلات. كلنا يعرف

مرارة بأسهم، نحييهم من أعماق قلوبنا..

« يعيش اسود الأعداء.. »

« يعيش رجال مظلات العدو.. »

ترتفع الهتافات، خيول تعدو حول المنصة، واعلام ترتفع، وزغاريد، وحراسة مشددة لم يسبق لها مثيل، تمر وحدات الاشارة، عاش سلاح الاشارة، وحدات من الرعاية الطبية، عاشت الرعاية الطبية، كتيبة كاملة من المجندات، عاشت المجندات الجميلات، تنطلق صواريخ ملونة، تمرق طائرات تقذف مظلات صغيرة تنفتح ويطل منها علم الأعداء، عاش الأعداء، توزع كتيبات أثناء الاحتفال تضم سجلاً بالهزائم التي لحقت الخطط على أيدي الأعداء، صور جنود الخطط القتلى، دبابات الخطط المحطمة في حروب المشارف، وحدات رجال الشؤون الادارية، عاشت الشئون الادارية، عاشت جيوش الاعداء، تسقط الخطط، تسقط الخطط.

ألطف يا مخفف الرزايا، ارفع الغضب والمقت عنا. يا عالماً بالسرائر، دخل الأعداء الى خططك المحمية، انتشروا فيها، ومن مساحة العرض خرجت وحداتهم المقاتلة مباشرة للالتحام بأهالي الخلاوي. وفي نهاية الاسبوع الأول صدر بيان من الأعداء الذين أصبحت لهم اليد العليا، يقول بان الخلاوي

جرداء تماماً. وانه تم استكشاف كل شبر فيها، ولم تعثر فرق الاستطلاع على أي انسان حي، أو حيوان، ان الخلاوي مكان غير صالح بالمرة للعيش، وكافة ما روي من قبل ما هو الا كذب واختلاق لاشاعة الأمل الكاذب في الخطط، اما الاضطرابات التي وقعت هنا أو هناك فان المتسببين فيها هم قلة من العجم، وقد تمت ابادتهم، ثم اعلن بيان آخر لقيادة الأعداء الموحدة انه تم الاتفاق مع عدة دول نووية على تصدير مخلفاتها الذرية الى الخطط، وسيتم رش هذه النفايا في منطقة الخلاوي، ولا داعي لدفنها، لأن الخلاوي جرداء تماماً..

سياحة الفناء
ويسبقها مدخل بسيط..

.. جاء زمن الأخبار الطوال والنوازل، اشتعل الرأس مني وأصبح قلبي في لون القار. وأأسفاه على الخطط الجميلة، وأأسفاه على أيامها اللطيفة. وأأسفاه على نهرها الرقراق، وأأسفاه على مناعة خلاويها التي زعم المرجفون أنها لم تكن، وأأسفاه على الأمسيات، والظلال، وأصداء الضحكات عند النواصي الخريفية، والليالي، وسكونات الظهيرة، ولحظات التفنن، وأيام التجلي، وليالي الأهلة، ونهارات الشموس الوليدة، العفية، الهرمة، ورضابها المسكي، واللحظات الأولى للقاء العائدين بها، وحمرة الشفق، وغموض آثارها القديمة، والتيه في عيون نسائها. وأأسفاه وأأسفاه، ولَّت الخطط كما يولِّي كل جميل يا لوعتي، هل كانت الخطط محض طيف أو حلم، أو تلاشت مع بخار الندى؟هل كانت مجرد خانا ضخما أقام فيه من أقام، ورحل منه من رحل، ثم جاء يومه الموعود. أخبرني، إشرح لي. فسر لي. بصرني، إهدني.. يا صاحب النظرة الدائمة، والعين التي لا تغفل أحقاً تمكن منها غير

المحبين، الكارهين لها. احقا باعوها وخربوها بخطوط باهتة في دفاتر حسابات سرية لبنوك بعيدة صماء، عنها، أحقا راحت برخص التراب، أحقا لم يتبق الا الأخبار الصعبة الطوال بعد ان زحف البحر وغطى كل يابس وافنى الخضرة؟ الخضرة، ولحظة ولادة البراعم، وتفجر الأزهار، آه.. الغواث الغواث، الغواث، لم يتبق إلا ساحة الفناء حوار الصم، البكم، العمي، لا يرون الا أنفسهم، وما انقضى، العيون في أواسط الرؤس والأكف أما ملوحة أو ضارعة هنا مضيق الضيق، تختلط الاصائل بالضحى، مدخلها كعنق الرحم لا يتسع الا لمرور شخص واحد، هنا يتبلور السطر الأخير، استتبت الأمور لأعداء الخطط، راقت لهم، وحليت في عيونهم، وقاسى اهالي الخطط ذعرا وخوفا. وهجاجا، حتى جاء زمن لم ير منهم إلا نائح أو باكي أو صارخ أو جريح أو قتيل أو شاكي، خلت منهم احلى المواضع التي عمرت بهم دهورا مؤصلة سهلوا لهم الرحيل، وحالوا النفي، ثم سيق الفوج في أثر الفوج، فرقوهم في أرجاء العالم الفسيح بحيث لا يجتمع سبعة من اهالي الخطط في مكان واحد، نما الحسك في الأراضي التي كانت عامرة. استفحل الشوك، وكثرت البقايا المحزنة في كل مكان. بقاياهم يا حسرتي، من مناضد، وحشايا ومرايا، ومزاهر، وكراسات وبطاقات بريد، ودفوف، وبيارق، ومقاعد محطمة، ومباخر،

ولعب أطفال، واقلام، وكتب كانت محرمة، في ريف الخطط عشعش البوم، وتكاثرت الغربان، راحت أنفاس الناس، بها كان ينمو النبات، وتتورد الأطيار، ويأنس الحمام، وتنأى الهوام، وتفزع العناكب، جاء الحين الذي يمتلىء فيه النهر، يفيض، تتفجر الأرض بخصوبة الأنثى الولود. ما من ايدي تعدل، أو حوافر تقلب، أتى الأعداء بانابيب البلاستيك، شفطوا المياه، ثم جرفوا الطمى حتى ظهرت قيعان الحقول فرشوا صحاريهم بالخصوبة الخططية.. آه يا مراري، لم يكتفوا بذلك، بل صدروا الباقي، هنا وقع العجب، اذ بدأ البحر يطغى على البر، تآكلت حواف الخطط، ثم زحفت المياه بلا راد أو مانع، زحفت قاسية، هادئة، تبدو كخيوط نحيلة ثم تغطي اليابس، وتمضي الأيام السود فيصبح لها عمق، وتسبح فيها غمامات السماء السابحة في الأعالي، وظلال ما تبقى منتصبا، في هذه المرحلة ظهر مؤلف مجدي رمزي الذي قال فيه إن الخطط عاشت أكثر مما يجب ولو استمرت مع الزمن لتحللت وفنيت، قال إن الخطط لم تعد موجودة الآن، تاريخها تفرق على البلدان والأمصار سكانها اندمجوا مع بقية الأجناس، قال إن الخطط راحت، واستعادتها مستحيلة على أية حال نجحت خطة بيعها بثمن لا بأس به، عاد على عدد من شخصياتها، بدلا من اختفائها الطبيعي في المستقبل بلا ثمن،

في هذه المرحلة ايضا ترددت حكايات واهية كأنفاس الطفل المحتضر تقول بان الخطط لم تخرب، لم تنته، ذرى الخلاوى لم تمسها المياه، وفي وقت معلوم يحلق الطائر الأخضر لفترة مجهولة المقدار، يقلع زاهيا، متوهجا، يندلع لونه في سماء الخطط الصقيعية، يبدو كرسالة غامضة قادمة من اعماق الكون، يطوف حتى الحدود، وان ظهوره يعني ان ثمة شيئاً هنا مجهول، غامض، دفين، ستظهره الأيام القادمة. قيل إن سكان الضاحية النائية هربوا كلهم الى خارج الخطط كان لديهم أمل في اكتشاف مغارة حفظ الآثار حتى اللحظة الأخيرة، وان الأستاذ بينهم، حكايات عديدة ترددت بين الأهالي الذين بدأوا زمن التفرق والشتات العظيم، لم تتوفر معلومات دقيقة لأن المناطق التي هجروا اليها شديدة النأي عن الخطط، قيل انهم يتراسلون بعيدا عن النظم البربرية المعلومة وانهم يعلمون أولادهم اللغة المندثرة والتاريخ العتيق، وحتى لا تضل الفروع وتضيع الأصول، قيل انهم يعدون العدة للاغارة على الأراضي المفروشة بطمي الخطط الخصيب لينتزعوا ما يقدرون عليه، بدءا من ملء قبضة اليد حتى اثقل الأثقال، وانهم سيتجهون مرة اخرى الى الخطط ليخصوه خفية. حتى تظهر الخطط من جديد، قيل إن الخلاوي ليست خربة، وفي موضع منها يوجد بعض المقاتلين

الأشداء. تعددت الأخبار الطوال، اختلطت الأزمنة، وفي الأقاصي امتدت ساحة الغناء، غريبة محيرة، الداخل اليها لا يدري ان كان لا زال موجودا في الخطط ام أنه يحوم بعيدا، أو انتقل الى مكان آخر، فيها تبطل الحواس وتنشط الذكريات. تلين تحت اقدام وتتيبس تحت اقدام اخرى. ترق وتلتهب، وتبدو للبعض كأنها مدن صيغت من الماء، محاطة بسور غير مرئي لا يمكن تخطيه كما أنه منبسط حتى النهاية حتى ليفلت من محاولة خط الأفق ان يتماس به، الداخل اليها لا يعرف أمه أو أبيه وان جاورها، لا تصله صلة ولا تضيء قلبه جذوة آنية.

يبدو خالد مهموما، حزينا، يتساءل، زاعقا، كيف انقضت هذه المسافات، كيف؟ خلف وراءه ألف وبال، وعهود، كيف انقضى زمن الفتوة؟ الأم صارت كل هذه الحال؟ فأرى الخطط والبحر يزحف. وقتئذ كان من المقربين الى الخضر، ما من معركة جرت إلا وشارك في تصميمها. ثم تحمل عبء ترحيل واخفاء ما تبقى من عصور الخطط البالية. اصبح من القلائل الذين يمسكون بأول الخيط الذي يقود الى مغارة الآثار العظمى عبر المعلم الياس، عرف الموت سبعمائة وسبعة وسبعين مرة قبل وقوعه في الأسر وابتلاعه عرق النبات السام، آه لو عادت الخطط من جديد أو عاد هو اليها،

يمكن للامور أن تمضي بشكل افضل، سيعيش بعض المتع التي ضيعها، اما من وسيلة للبدء من جديد، لكن مع الأم، والأب.. واسماعيل، أما من وسيلة، سيعرف قيمة الثواني. سيدرك ان الزمن سيف باتر لكنه لا يؤلم لحظات الدنو، لن يمر بلحظات تردد، سيدعو للمجم بلا هوادة، سينذر عمره ليدرء عنهم خطر الانقسام، سيسعى الى الخضر منذ السطور الأولى.!

على مقربة يقف رجل بدين، قمة رأسه اضيق من وجنتيه عيناه واسعتان، يمسك بيديه آلة إيقاع غريبة الشكل، يحرك اصابعه، يتمايل مع النغم الذي لا يسمع، يقرب الآلة من فمه ثم ينقلها فجأة حتى تجاوز اذنه ثم يلمس مقدمة ركبتيه، ثم يتراجع الى الخلف ماداً يديه، ملوحا بآلة ضبط الايقاع...

تقف بجنبته أم خالد واسماعيل. لم تتغير ملامحها عما بدت عليه آخر مرة في الخطط، في عينيها نفس الاستسلام الهادىء الذي كانت تقابل به اعتى الظروف، حتى عندما ناء المرض بثقله وغبائه لم تنزعج، لم تيأس، انها الوحيدة في الخطط التي أدركت ايقاع القدر الخفي الداخلي وحتمية المصير، ولم تعبر عن ذلك لأن أمور الحياة اليومية كانت تنهكها وتأخذها من كل صوب، انها لا تنطق، لا تزعق متمنية عودة الخطط،

تدرك عبث ذلك. تعرف أن المشيئة نفذت، لكنها تذكر ولديها وزوجها فتدمع صامتة وتلوح بيديها لتخفف عن صدرها التعس، عسى ان تلمح، عسى ان يندفع اليها حنين تنتظره، لكن الكل متشاغل....

كان اسماعيل تائهاً عن نفسه في الزحام والخلق من حوله مضطرب..

يصرخ الهلالي محاولا ان يتذكر بيت الشعر في صياغته الصحيحة..

ليس مـــــا في نفس المر...
تجري الريـاح بمـا لا تشتهي..

آه بما لا تشتهي السفن..

تنحني شابة حلوة التقاطيع، تهتز باكية. لماذا لم تتحقق امنيتها التي ابدتها عند عبور الميدان الكبير، انا باكينام ممتاز، كانت رغبتي أن أصبح مذيعة، أمانيها اجهضت، لم تحتل موقعا متميزا في الخطط، لم تكن الا مجرد خادمة في دكان يبيع عصير الفواكه المغشوش، لماذا لم تتحقق امنيتها البسيطة.. هل طلبت المستحيل؟ لماذا قهرتها الظروف، أليس من حقها ان تجرب من جديد..

يمر امامها رجل قصير، يرتدي جلبابا ممزقا، وطرطورا له

شراشيب، يمسك عصا طويلة في نهايتها قمع مثلث من حلوى بيضاء وتحته علبة من الصفيح داخلها قطع معدنية تحدث صوتا يلفت النظر. يهز العصا، لكن لا احد يلتفت ولا اطفال يهرعون.. يسأل فتى لم يتجاوز العشرين.. كيف الحال خارج تلك الساحة؟؟

يصرخ التنوخي وما من مجيب..

هل من المعقول ان تمضي الأمور بهذه السرعة؟ هل يولي كل شيء؟ هل تنتهي الخطط، اين هدى الحلاوي؟ انه يطلب فرصة قصيرة، لن يوافق على دخول الأعداء، لن يوافق على بيع قطعة اثرية، او شبر، يتمنى ان يعود صحيحا معافي، أن يرجع زمن اللذات، لتمنح له الفرصة وسيكون أول من يتصدى للاستاذ، لجدي رمْزي، للعناني، اما ان تولي الأمور هكذا.. الا يرجع بعض مما كان فهذا حرام.. حرام.. حرام..

على مقربة يمسك رجل ضخم الجثة بأوراق اللعب، يقذف بها واحدة اثر الأخرى، هذه واحدة، الثانية، الرابعة، السابعة، كان يخاطب من لا يراهم، راجيا ان ينتظروا.. ان يتمهلوا حتى يروا ما سيفعل..

رفع رجل يده، قال انه مهندس، احتل مكانا من أسوار

الخطط ظهر كومضة، كانت لديه آمال ومشاريع لقهر الصحارى والجدب لكن الفرصة لم تعط له. خرج منذ فترة مبكرة، لو ان ما حدث لم يحدث لما دخل الأعداء الى الخطط.. لتكاثر الأشداء، لنجت الحلاوي من نفايا الذرة.. لما دفعت الأرحام أي جبناء لو عاد ستتغير أمور من بعدها أمور..

على مقربة يقف الوتيدي، قسماته هادئة البال، خلف ذكرى لن تنضب أبدا، لم تشهد الخطط مقاتلا مثله، وصف بأنه أشد المحاربين الذين تنفسوا هواءها، انه راض لأنه أتيح له ان يصلح أمره، بعد أن حاولوا افساده، لكن ما آلمه انه لم يبق حتى يرى الأعداء مولين، مبتعدين، انه لم يمسك الأستاذ، لم يقطعه ويلقي بكل حتة منه في مكان، عبثا يحاول البحث عنه هنا، تختلط الملامح، تسيل التجاعيد، تنصهر العيون، حتى اثيل، أمه، والولد.. صعب.. صعب..

يزعـــق برنـــق مصفقـــا..
يا ناس، يا ناس، يا ناس..

يعلو نحيب خشن، راحت أيام الهناء، ولت ليالي العز يا أسفي..

غناء تبكي لسماعه الأجنة في الأرحام..

يا أسمر يا أبو الزند صعيدي
حبــــك بيسري في وريـــدي

تبكي ايثار بحرقة، لماذا لم يتحقق أملها البسيط في الخطط ظلم ظلم، مجرد أن تقف إلى جواره أثناء تسلمه الجائزة أو أثناء وصفه لدخول الأعداء. لماذا لم يسمح لها بالأدلاء بحديث الى صحيفة؟، ألا يكفي معاناتها؟ ألا يكفي ما ذاقته من أجل اللحظة المرتجاة؟ ان هذه الخطط تخلو من العدل.. لماذا لا ترجع ولو للحظة تقف فيها الى جواره، ثم...

يتمهل العناني، الضوء يؤذي عينيه، اعتاد الأضواء الصناعية في المكاتب التي لم يخرج منها منذ سنوات. صاح فجأة.. لا.. ورب الخطط.. لا، انه لن يخشى لومة لائم، سيخرج عن صمته الذي استمر، سيظهر لأول مرة. امتدت يده في اشارة حادة. ثم خفضها الى جواره. إلتفت برأسه الى اليمين، ثم الى الشمال، رفع يديه معا.. صاح.. لا.. ورب الخطط، انه لا يخاف.. سيتكلم، سيفضي بالكثير من الأسرار التي حفلت بها هذه الخطط، التي لم يقدر لها أن تعرف، أو تذاع، سيقول، من هم أهالي الضاحية النائية، سيكشف حقيقتهم التي ظلت غامضة، بل سيقول ما هو أخطر من ذلك، سيتكلم عن الدور الحقيقي للأستاذ في الضواحي، لا.. بل سيصرح بما سيصدم الكثيرين، سيبوح بما لا يمكن لانسان ان

يتخيله، سيحدث عن الجهة التي ذهب اليها الأستاذ، والمكان الذي أقام فيه، وكيف عاد الى الخطط. سيعلن الأرقام السرية لحسابات البنوك، ومقدار الأرصدة التي ضاعت على أصحابها لمجيئهم الى ساحة الفناء، وسيبذل جهده ونفوذه لدى كبار لصوص الدنيا ليعيد كل شيء الى الخطط، النقود، المزارع، الأسهم، الخيول الأصيلة، الآثار المنهوبة... انه يتوقف شاخصا مزبداً، ما من أحد يصغي اليه، ما من انسان يعبأ به هو الذي كان ذكره يملأ القلوب فزعا، لم يتوقف أحد، لم يصغ اليه أحد..

يندفع الجعيدي ضاحكا، انه لا يرى العناني، أو ابنه أو امرأته أو وصول البوليس الذي رأى مؤخرته عارية، ولا مفتش الصحة صاحبه الذي اتهم بالتجسس في وقت ما، لا يذكر مجيء الوتيدي اليه وقوله له.. سامحني، يوشك أن يصطدم بايثار، لا يصغي الى تساؤلها المستمر، يرتفع غناء غامض، بعيد، وايقاع نحاسي، يضحك الجعيدي ولا يدري لماذا؟

يتمتم قنديل هادئا، لم تكن الأمور هكذا عند عبور الميدان الكبير، لم تكن الأمور هكذا...

يستغيث صاحب الفندق القديم الأغراب ملأوا الخطط، الأغراب زحموا الخطط، الأغراب اخذوها..

تمر وجوه غريبة، لم يظهر أصحابها في الخطط، أزياء مختلفة.. يحرك عجوز رأسه الى الأمام، ثم الى الخلف، وفجأة يخرج لسانه.

تقف هدى الحلاوي على مهل، شاهقة العري، مضوعة الجسد، فارهة، مرمرية، لم ينل الزمان منها، خصرها دقيق حتى لا يرى، لم تكن تظن أنها ستجيء الى ساحة الفناء بمثل هذه السرعة، لم يعرف الكثيرون أنها من الشخصيات القليلة جداً التي أقامت طوال الوقت في الضاحية النائية، بل كانت من أهم شخصياتها، تخطط، وتقابل، وتأمر وتنهي، لم ينلها إلا برنق طوال مسافات الضواحي وحتى مدخل الساحة، لم يدرك اسرار جسدها الا برنق، وكثيرا ما استطلعت رأيه في أخطر الأمور المتعلقة بالخطط، وقوله مهما بدا غريبا ينفذ، تحوله الى واقع، لو عادت الخطط من جديد فستختاره، ولن تخفي علاقتها به، انها تتجرد من ملابسها، يتكور نهداها في الضوء العجيب، لكن ما من أحد يتطلع، ما من انسان يرنو.. يتشقلب رجل على مقربة منها. لا أحد.. ترى كيف أصبحت ملامح الأستاذ انها لا تدري.. وما من انسان يجيبها..

ترتفع أدعية المرابطين، لا يرون بعضهم وان بدوا على هيئة جماعة، تتوحد حركتهم ولكنهم متباعدون.

امراة شقراء الشعر تشد شعرها، تشير بما يعني أن أحدهم

سلبها نقودها، وأنها تود عودة الخطط لاسترداد ما ضاع..

طفل رضيع يبكي

فتاة مجهولة الاسم تصرخ، تنوح، انها من بلاد بعيدة لا علاقة لها بهذه الخطط. تريد الخروج من الساحة، ليس لها دور، لم تظهر مرة واحدة في الخطط. تريد الابتعاد عن هذه الساحة.. ليس لها دور.. ما من مصغ.. ما من مجيب..

تود خيرية لو تلمح أمها، منذ رحيلها بعيدا الى تركيا لم شم رائحتها ولم تسند رأسها الى كتفها، وعندما جاءت الى ساحة الفناء لامت نفسها لأن أياما بلا حصر مرت بها ولم تتذكر أمها في البلاد البعيدة..

تختلط الأصوات، تضج الساحة، يعلو صوت هاتف خفي لا يرى.. يبدو الصوت وكأنه لشخص وصل الى الساحة لتوه.

الخضر لم يمت، الصور التي نشرت لجثته كاذبة، والأصبع المقطوعة التي عرضوها وقالوا إنها تحمل بصمته ليست أصبعه، الخضر لم يمت ولن يموت. انه يظهر يوميا عند جسور الفجر وحدود الضحى، يتنقل مع النسمات ويتحول الى ضوء فوق ذرى الخلاوي، وفوق القمة الجرداء يلتقي بسليمان المولود في شارع المفاجأة وربيب الصعاب كلها وحافظ أصول الخطط ومنطوقها وجمادها، انه يطوف بقية النهار على أهالي الخطط

في المنافي والمهاجر ليطمئن عليهم، أما الياس فيطوف بهم ليلا، ثم يلتقيان مع سليمان قبل الفجر في موضع من الخطط لم تغرقه مياه البحر، يقفون ليتأكدوا من سلامة المدخل الوحيد الى المغارة العظمى، ثم ليشهدوا لحظة اقلاع الطائر الأخضر عندئذ تطمئن قلوبهم..

يا ناس، يا ناس، أهالي الخطط الذين أكلوا طعام الشقاء كله، يستعيدون طمي الخصوبة قبضة اثر الآخرين، ويلقحون الأرض المغمورة بالماء المالح. في كل يوم تزداد مساحة الطمي، وتنمو اليابسة، المغارة سليمة، المومياءات العظمى سليمة، لوحة تولوز لوتريك لم تمس، القلائد والحلى، التمائم والتعاويذ، الأناجيل والمصاحف والأناشيد القديمة ونصوص الحكمة والمتن الأصلية، وما جادت به القرائح..

يا ناس، الخضر والياس وسليمان لن يموتوا، لأنهم شربوا من نبع الحياة الخفي في الخطط، وعبروا النيران الأزلية، انظروا.. حدقوا بالبصر الحديد، الخطط زاهية وسرها نائي، الخطط محمية وأصولها محفوظة. من قبل غمرها البحر مرات ثم استخلصها الأشداء المباركين. الخطط مرسى المراسي، الخطط تنضر، لماذا لا تبصرون؟

تصفق أيدي، يضيع صوت الهاتف الخفي، تدبدب

أقدام، تشخص عيون، يصرخ رجل من أعاجم الخطط.

يا أيام الكفاح عودي.. يندب آخر أيامه في الخطط، يزعق ثالث..

الغواث، الغواث، الغواث..

جمال الغيطاني

١٩٧٦ - ١٩٨٠

المحتويات

السور الأول ١١
الشارع الأول ١٥
السور الثاني ٣٥
الشارع الثاني ٤٧
السور الثالث ٧٧
الشارع الثالث ٩٣
السور الرابع ١١٥
شارع الوتيدي ١٢٧
السور الخامس ١٥٥
السور السادس ١٩٣
الميدان الكبير ٢٠٩
الضواحي، والنواحي، والخلاوي ٢٤٣
الحي السابع ٣٢٣
حروب الخلاوي ٤٠٥
سياحة القناء ٤٢٥